

**THE BOOK WAS
DRENCHED**

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190437

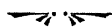
UNIVERSAL
LIBRARY

رسائل الأعران

في فلسفة الجمال والحب

بقلم

مصطفى صادق الرافعي



مقوق الطبع محفوظة

مطبعة النهضة

تصر سنة ١٩٢٤

تاريخ آداب العرب (الجزء الاول) في اللغة وتاريخ روايتها.

» » » (الجزء الثاني) في اعجاز القرآن

» » » (الجزء الثالث) في تاريخ الخطابة

والامثال والشعر

(تحت الطبع)

كتاب المساكين

حديث القمر

ديوان الرافعي (ثلاثة أجزاء)

ديوان النظرات

النشيد المصري الوطني وتاريخه (الطبعة الثانية)

نشيد سعد باشا زغلول وتاريخه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

كان لي صديقٌ خَلَطْتُهُ بِنَفْسِي زَمَنًا طَوِيلًا وَكُنْتُ
أَعْرِفُهُ مَعْرِفَةَ الرَّأْيِ كَأَنَّهُ شَيْءٌ فِي عَقْلِي ، وَمَعْرِفَةَ الْقَلْبِ
كَأَنَّهُ شَيْءٌ فِي دَمِي . ثُمَّ وَقَعَ فِيمَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ أُمُورِ دُنْيَاهُ حَتَّى
نَسِيتُنِي ، وَطَارَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى غَابَ عَنِ بَصَرِي ، وَالتَفَّتْ
عَلَيْهِ مَذَاهِبُهُ فَمَا يَتَّعِ الْيَّ مِنْ نَاحِيَتِهِ خَبَرٌ ؛ وَامْتَدَّ يَدَيَّ
وَبَيْنَهُ حَوْلٌ كَأَمَلٍ خِلَا مِنْ شَخْصِهِ وَامْتِلَأَ مِنَ الْفِكْرِ
فِيهِ ، كَأَنَّهُ الْعَامُ الْأَوَّلُ مِنْ تَارِيخِ حَفْرَةِ بَيْنِ الْقُبُورِ الْعَزِيزَةِ
الَّتِي لَا تُنْسَى

وطلعت الشمسُ يومًا في غيمٍ يناير من سنة ١٩٢٤
فأَحْسَسْتُ قَلْبِي مِنَ الذُّعْرِ كَالطَّائِرِ يَنْفُضُ نَدَى جَنَاحِيهِ فِي

أشعتها ، ولم تكدر ترتفع وتتلأ لأ حتى وافى البريد يحمل
الى خطه واذا فيه :

يا عزيزي الحبيب !

فقدتني زمناً إن يكن في قلبك منه وخزة في قلبي
منه كحز السيف ؛ لم أنسك نسيان الجحود وان كنت
لم أذكرك ذكرى الوفاء فأبعث اليك بخبر يترجم عني ،
إذ كنت في سجن وأنا الساعة منطلق منه . لا تجزع
ولا تحسبته سجن الحكومة ... إن هو الاسجن عينين
ذابلتين كان قلبي المسكين يتمزّع في أشعة الحاضها كما
يكون المقضي عليه اذا أحاطت به السيوف وجعل بريقها
يتخاطف معاني الحياة من روحه قبل أن يخطف هذه
الروح . بل سجن فكري الذي ابتليت به وبخيله معاً
فلا يزال واحد منهما يبالغ في ادراك الجمال والآخر يبالغ
في تقديره حتى تكاد تطلع نفسي من نواحيها^(١) لكثرة

اذا امتلأ الشيء الى آخره قيل كاد يطلع من نواحيه

ما يُسرِّفان عليها كما يريد الاطفالُ أن يملأوا القدح
ليستفيضَ لا ليمتلئ ، وليرسلَ الماء لا ليُمسكه ؛ فلو
أنهم صبُّوا فيه ملء بحر بأمواجه لجرى البحر من حافة
قدح صغير

ما أحسبني قط رأيتُ امرأة جميلة كما هي في نفسها
وتركتها كما هي في نفسها بل هناك نفسي . وآه من نفسي .
وما أسرع ما يمتزج في هذه النفس بعضُ الانسانية المحبة
يعض الانسانية المحبوبة فاذا أنا بشيء إلهي قد خرج لي
من الانسانيتين . هو هذا الشعر ؛ هو هذا البلاء ؛ هو
هذا الحب

فررت منك ومن سواك يا عزيزي مُصَيِّف^(١) الى
امرأة كالتى جعلت آدم يفرُّ حتى من الجنة ومن الملائكة ؛
وقد يكون اتصال رجل واحد بامرأة واحدة كافياً احياناً
لتكوين عالم كامل يسبحُ في فلكٍ وحده . عالم مسحور ،

(١) مصيِّف تصغير « مصطفى » على قاعدة الترخيم وكان
الصديق يتحجب الي به

في فلك مسحور ، لا يخضع الا لجاذبية السحر ، ولا يعرف
الا تهاويل السحر

على انك لم تفقد مني في هذه السنة الا بضعة كُتُب
وكلاماً كنا نترسّل به وليس فيه الا الحبر ؛ فسأردُّ عليك
من ذلك كُتُبَ سنوات وأعوذك برسائي كلاماً فيه دمعُ
العين ودمُ القلب . فقدتني صديقاً يهزُّ يديك بتحيته
والآن أعود اليك شاعراً يهزُّ قلبك بأنيته . فقدتني شخصاً
وسأرجع اليك كتاباً

أما أنت فاكُتُب لي رَجْعَ كل رسالة تأتيك من
قَبلي واذكر لي موقعها من نفسك وكيف كان دَيْبُها أو
طيرانها عندك فاني راميك بأسمهم لا قاصرات عن قلبك
تنزل دونه ولا زائدات تمر عليه وتتجاوزهُ بل مُسدّات
يقعن فيه

وأرجو عافاك الله ان لا تتطلّع في نامي بنقد أو
اعتراض أو تعقيب بل دعني وما أكتبه كما اكتبه فان
لكل شيء طَرَفَيْن وان طرفي الجمال هما الحب والبغض ؛

ورسائي هذه ستأتيك بالجمال من طرفيه فلقد والله أُحِبْتُ
حتى أبغضت ، ولقد والله يُضَجِرُ العمل الساي إذا أصاب
غير موضعه كما يُضَجِرُ العملُ السافل إذا نزل في موضعه

ومنى انقطع هذا المدد المتلاحق من كتي فاجع
الرسائل وقدم لها كلمة بتمامك ثم اطبعها وسمها « رسائل
الامير » ؛ انها كانت عواطف ثارت وقتاً ما ليحدث
منها تاريخ وسكنت بعد ذلك ليحدث منها شعر وكتابة
فان نجتمع بعدُ نظرنا فيها معاً وقرأتها عيناك لقلبي ،
وان ارتاح الله لي برحمته ^(١) رفّت عليها روحي فأسمع صوتك
في الغيب يرسل الى هذه الروح تحيةً من أنعام قلبها الميت
صديقك

(.....)

٢١ يناير سنة ١٩٢٤

« * »

وجعلت رسائل الصديق تترادف اليَّ مُسَهَّبَةً ضافية
تقطر فيها نفسه كما ترسل السحابة المنتشرة قطراتٍ انعدت

(١) كناية عن الموت

وانحلت . ثم جعلت نفسه تنطوي على نأي حبيبته واشته
عليه أمرها ثم أسهل وانقاد ، واعتادها هاجرة فرأت
قليلاً ^(١) ثم كف ^(٢) ؛ ومرت الظبية تطفو^(٣) ووهبها للبر
الواسع وانتلب عنها بعد أن ملأت نفسه كما يقول
في بعض رسائله « بمثل البحر ملحاً ومرارة »

أما هذا الصديق فأعرفه أسلوباً من الكبر ولكن
على نفسه ، ومن الشذوذ ولكن في نفسه ، كأنما فتحت
أفواه عروقه جينناً وملأتها الوراثة من دم ملك كان في
اجداده . مستصعب شديد المراس فهو أبداً في حياته
كالملك الذي حالت السيوف والأسنة والقوانين بينه
وبين تاجه فجعلت له حياتين يفصل الموت بينهما ، اجتمع
من تاريخه انسان بلغ الزمن تحت عينيهِ نيفاً وأربعين سنة ،
فهو تاريخ أحزان قد استفاضت مسائله في فصول وأبواب
جف القلم منها على نيف وأربعين جزءاً ! كلماتها في حوادثها

(١) أي ابطأ واسهل عاد سهلاً

(٢) تعدو لحقتها عدواً شديداً

وَأَنْ السَّطْرَ مِنْهَا لِيُرْعَدُ فِي صَحِيفَتِهِ مِنَ الْغَيْظِ وَأَنْ الْكَلِمَةَ
لِتَبْكِيَ بَكَاءً يُرَى وَأَنْ الْحَرْفَ لِيُثْنَّ أُنَيْنًا يُسْمَعُ وَأَنْ تَارِيخَهُ
كُلَّهُ لِيَنْتَفِضَ لِأَنَّهُ مُصِيبَةٌ مَلَكِيَّةٌ مَصُورَةٌ فِي مَلِكٍ

« * »

لَقَدْ سَبَقَ الْكِتَابُ وَجَفَّ الْقَلَمُ الْأَزَلِيُّ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ
فَمَا أَتَيْنَا إِلَى هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا لِيُمِثَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فَصْلًا مِنْ
مُعَانِي الشَّقَاءِ الْإِنْسَانِيِّ فِي تِلْكَ الثِّيَابِ الَّتِي هِيَ مَلِكٌ لِصَاحِبِ
الْمَسْرُوحِ ، لَا نَخْلَعُهَا وَنَلْبَسُهَا بَلْ يَخْلَعُنَا بَعْضُهَا لِيَلْبَسُنَا بَعْضُهَا
الْآخَرِ . فَلَسْنَا نَبْتَدِعُ وَلَكِنْ يُلْقَى عَلَيْنَا وَمَا نَحْنُ بِمَخْتَرَعِينَ
وَلَكِنَّا نَحْتَذِي ، وَالرَّوَايَةُ مَوْضُوعَةٌ تَامَةٌ قَبْلَ مِمثْلِهَا .
وَضَعْنَاهَا ذَلِكَ الْقَلَمُ الْأَعْلَى الَّذِي كَتَبَ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ كَانَ
أَوْ يَكُونُ حَتَّى تَمُجَّى مِنْ صَفْحَةِ الْأَرْضِ هَذِهِ الْأَحْرَفُ
السُّودَاءُ الْمُتَحَرِّكَةُ وَالسَّاكِنَةُ^(١)

وَالْمَشْكَالَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ الْكُبْرَى إِنْ كُلُّ إِنْسَانٍ يَرِيدُ أَنْ
يَكُونَ بَطْلَ الرِّوَايَةِ وَمِثْلَهَا الْبَكْرُ حَتَّى ذَلِكَ الشَّخْصُ

الذي جيء به لتنزل عليه اللعنة في سياقها . غير ان الرواية مفصلة من قبل ، ويأتي فصل اللعنة كما هو بأطرافه وحواشيه وأسبابه ونتائجها فينصبُّ على ممثله جملة واحدة على وجه لا يُحَس ولا يُرى ولا يُدفع كما يلبسه النوم فاذا هو يفتل فيه فتلاً واذا رجلٌ على أعين الناس باللعنة حالٌ وباللعنة رتحل النوم والقدر والموت كالشيء الواحد أو ثلاثتها أجزاء لشيء واحد ؛ فالنوم غفلة تُخرج الحي هُنيئةً من الحياة وهو فيها على حالة أخرى ، والموت غفلة تخرجه من الحياة كلها الى حالة أخرى ، والقدر منزلة بين المنزلتين يقع هيناً على اهل السعادة بأسلوب النوم ويجيء لأهل الشقاء عنيفاً في أسلوب الموت ، ولن يجلب شيئاً او يدفع عن نفسه شيئاً من هذه الثلاثة الا الذي لم يُخلق على الارض . ذلك الذي يستطيع أن يفتح عينيه على الليل والنهار فلا ينام ، او يحفظ نفسه على الصغر والكبر فلا يموت ، أو يضرب يديه على مدار الفلك فيمسكه ما شاء او يرسله

جئنا الى هذه الحياة غير مخيرين ونذهب غير مخيرين
ان طوعاً وان كرهاً ؛ فمد يدك بالرضا والمتابعة للاقدار او
انزعها ان شئت فانك على الطاعة ما أنت على الكره وعلى
الرضا ما أنت على الغضب ؛ وان تعرف في مذاهب القدر
اذا أنت أقبلت أو أدبرت أي وجهيك هو الوجه ، فقد
تكون مقبلاً والمنفعة من وراءك او مدبراً والمنفعة أمامك
والقدر مع ذلك يرمي بك في الجهتين أيهما شاء

وحريٌّ بمن يوقن انه لم يولد بذاته ان لا يشك في
انه لم يولد لذاته ؛ وانما هي الغاية المقدورة المتعينة فلا الخلق
يتركونك لنفسك ولا الخالق تارك نفسك لك

« * »

كذلك كان صديقي وما هو الا انسان من الناس ،
وقد بلغ من العمر أربعة عقود ولكنه يحس منذ الصغر أنه
رجل هرم او كما يقول بعض الفلاسفة^(١) في تعليل ذكاء
الاذكياء انهم يتذكرون ما يرونه ولا يتعاملونه لان فيهم

(١) ينسب هذا الرأي لافلاطون

نهوساً خرجت من الدنيا كاملة ثم رجعت لتزداد كمالاً
وتلك خرافة ؛ ولكن من نقص هذا الانسان انه لا يستطيع
التعبير عن اكبر الحقائق وأدقها الا بأسلوب خرافي ...
قال لي هذا الصديق يوماً : اني بلغت اربعة عقود
ولكنها فيما عانيتُ كأنما تضاعفت الى اربعين عقداً ؛ وقد
انتهيتُ من دهري الى السنّ التي ينقلب فيها الآدميُّ من
وَفرة القوة ليثاً ويرجع من قوة الحكمة نبياً ويعود من
تمام العقل انساناً . غير ان هذه الاربعين بما تعاورتُ عليَّ
قد هدم في بعضها بعضاً ؛ فان اكن بناءً فذلك صرْحٌ
مُمرّد عمل فيه اربعون معولاً فما أبقت حجراً على حجر ؛
وان اكن حومةً فقد اعترك فيها للأقدار اربعون جيشاً
فاتوّرخ بنصر ولا هزيمة . يا ويلتاً من هذه الدنيا . ان
مصابة كل رجل فيها حين يصير رجلاً أنه كان فيها طفلاً
وما علم أنه كان طفلاً

تلك حياة الصديق وكانت ليلاً طويلاً انبسط عليه
فَنَنٌ من الظلام كأنه مُورقٌ بالسحب والغمام السوداء

لا ينقشع بعضها عن بعض حتى كأن صباحه مات فيها أربعين سنة ثم انبعث آخراً من وجه فتاة أحبها فأشرق له من غرتها واستضاء عليه في وجهها وطلعت شمس حبه من خديها حمراء في لون الورد اذا مزجت أشعتها بظلماته ويؤخذ من رسائله ان صاحبه كانت من قوة الجاذبية كأنها كوكب جذب منه كوكباً آخر ، ومن فتنة الحسن كأنها رسالة الالهية الى هذه الارض بل اليه وحده في هذه الارض . أدارته هذه الحياة طويلاً وأدارتها ليحبي موضعها الى جانبها فكانما ادارت منه فلِكَاعَاتِيَا لا يترشح الا بعد دفعه اربعين سنة كاملة

رجل وامرأة كأنما كانا ذرتين متجاورتين في طينة الخلق الازلية وخرجتا من يد الله معاً . هي بروعتها ودلالها وسحرها وهو بأحزانه وقوته وفلسفته ، فكان منهما شيء الى شيء كما توضع زجاجة الحبر الاسود الى جانب يتيمة من الأملاس أجيد نحتها وصقلها وتكسر على جوانبها شعاع الشمس فاذا هي من كل جهة تغرّ يتلأل

واذا بالزجاجة ولو على المجاز « ألباس اسود »

كانا في الحب جزئين من تاريخ واحد نشر منه
ما نشر وطوى ما طواه ، على انها كانت له فيما أرى كملك
الوحي للانبياء ورأى في وجهها من النور والصفاء ما جعلها
بين عينيه وبين فلك المعاني السامية كمرآة المرصد السماوي ؛
فكل ما في رسائله من البيان والاشراق هو نفسها ، وكل
ما فيها من ظلمات الحزن هو نفسه

« * »

هدمت الاقدار هذا الصديق حتى انحط كل ما فيه
من العزم والقوة فجاءت « هي » تبنيه وتشد منه وترمم
بعض نواحيه المتداعية وتقيم به بسجرتها بناءً جديداً وتحفت
به عنايتها زمنًا حتى صلح على ذلك شيئاً فأيسرت روحه
من فقرها الى الجمال والحب . ويقول صديقي « انه ليس
على الارض من يشعر كيف ولدته أمه ولكني رأيت بنفسي
كيف ولدت تلك الحبيبة نفسي ؛ مرت بيديها على أركان
المتهمة واعانتها الاقدار على اقامتي وبنائي وغير أن هذه

الاقدار لم تدعها تبينني الا لتعود هي نفسها بعد ذلك
فهدمني مرة أخرى »

يصف حبيبته في هذه الرسائل كأنه مسحور بها
فيجبيء بكلام غاوي مشرق كتسبيح الملائكة يمازجه
أحياناً شيء يحار فيه الفهم لان أحدنا انما يرسل فكره
وراء قلمه ، أما هو فيرسل نفسه وراء فكره ويستمد قلمه
منهما . فنزلته أن يكتب ثلاث كلمات ومنزلتنا أن نفهم
كلمتين ، والانسان منا كاتب وفكر : أما هو فقد زاد
بصاحبته فكان كاتباً وفكراً وملمهماً

ومما لا اكاد افهمه انه يكتب كتابة محب أحياء
الحب ومبغض قتله البغض ؛ فاني لأعلم ان كل شيء حبيب
ممن نحبه حتى البغض اذا كان يدل على حبه ولو دلالة
خفية . بيد ان صاحبي يحفو جفاء شديداً فلعلها انفة غلبت
بها النفس على القلب خولت الحب الى جفاء والجفاء الى
غيظ والغيظ الى مقت وانما المقت اول البغض وآخره

يا صديقي المسكين لا يَحْزُنُكَ فَنَ آخِرَ الحُبِّ آخِرُ
لأشياء كثيرة ... وان من بين النساء نساء أولهن
كالشباب وآخرهن من أشياء كالهرم والضعف
والموت

ويا جمالَ النساء ان كان في الاشياء ما هو أحسن
وأجمل فان في الاشياء ما هو أنفع وأجدى ، وقد تكون
الجدوى والمنفعةُ من الجمال في بغضه أحياناً أكثر مما
تكون في حبه

ويا رحمةَ الله من فوق سبع سماواته لقد علمتنا بما
نجده فيسرثنا ، وما ننساه فلا يضرنا ، أن لا نياس منك
أبدًا ولو كنا من الهم تحت سبع أراضيه

مُصَيِّطِي صَبَاحِ الرِّافِعِي

الذكرى

ما أَشَدَّ على قلبي المتألم أن لا يأخذَ بصري من الناس
 إلا من يَتَدَحْرَجُ في نفسي إيهويَ منها أو يَتَقَلَّبُ في
 أجفاني ^(١) لِيُثْقَلَ على عيني ؛ وأحاول أن أرى تلك الطلعة
 الفاتنة التي انطوى عليها القلب فانبثَّ نورها في حواشيه
 المظلمة ، وأن أملاً عيني من قر هذا الشعاع الذي جعل
 السماء في جانب من صدري ؛ فإما شئتُ من الوجوه إلا
 وجهَ الحبِّ ، وإذا في مطلع البدر من رُقعة سوداء لا تبلغ مدَّ
 ذراعٍ و غشَّى الكونَ كله منها ما يَغشَى . فاللهم أوسعْ
 قلبي سعةً ^(٢) يَلُودُ بها

العالمُ لكل الناس . غير أن لكل إنسان عالماً هو
 خالصةُ نفسه ^(٣) ؛ وعلى أن هذه الدنيا مترامية إلى كل جهة

(١) كناية عن الثقل وفلان يتقلب في أجفان عيني أي ثقل

(٢) أي اجعل له سعة لا تضيق به السلوة

(٣) ما استخلصه لنفسه من يحبهم كأنهم من نفسه

تَمَدَّلَى عَلَيْهَا السَّمَاءُ ، فَانْ أَرَا ضِيَّهَا الْخَمْسَ بِمَا رَحِبَتْ لَا تَقُومُ
عِنْدِي بِتِلْكَ الْجُدْرَانِ الْارْبَعَةِ الَّتِي رَأَيْتَ فِيهَا مِنْ أَحْبَبْتُهَا ؛
رَأَيْتَ مِنْ هَذِهِ صُورَةِ قَلْبِي فَلَا عَجَبَ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ
الْجُدْرَانِ صُورَةَ ضُلُوعِي . وَهَلْ أَدْرِي أَذَلِكَ سِحْرٌ أَمْ تَلْيِيسٌ
أَمْ تَخْيِيلٌ ؟ ^(١) أَمْ هُوَ الْحُبُّ ؟

إِذَا كُنْتَ شَاعِرًا فَأَضْلَمْتَ نَفْسَكَ فَزَشَدَتْهَا طَوِيلًا
وَقَلَبْتَ عَلَيْهَا آفَاقَ النُّفُوسِ وَأَفْلَاكَ التَّلُوبِ فَانْكَ لَنْ
تَصِيبَهَا إِلَّا فِي نَفْسِ امْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ يَجْعَلُهَا مَهْنَدِسُ الْكُونِ
مَرْكَزًا لِلدَّائِرَةِ الَّتِي تَنْفَسِحُ بِأَقْطَارِ نَفْسِكَ ذَاهِبَةً بِكُلِّ
قُطْرٍ إِلَى جِهَةٍ مِنْ أُمَانِي الْحَيَاةِ

وَإِذَا كُنْتَ حَكِيمًا فَسَأَلْتَ نَفْسَكَ سُؤَالَ الْفَلَسَفَةِ :
مَنْ أَنَا ؟ وَوَجَدْتَ فِي نَفْسِكَ ذَلِكَ السِّرَّ الْخَفِيَّ يَقُولُ
عِنْدَكَ : مَنْ هُوَ ؟ فَانْهُ لَنْ يَظْهَرَ لَكَ مَعْنَى « أَنَا وَهُوَ » إِلَّا
إِذَا وَضَعَ الْحُبُّ بَيْنَهُمَا « هِيَ » ...

وَإِذَا كُنْتَ رَجُلًا مِنْ عَامَّةِ الْأَرْضِ انْدَمَجَ فِي

(١) مَا يَخِيلُ لِلْعَفَلِ وَيَجْعَلُ الْأُمُورَ مَلْتَبِسَةً

جِلْدَةٌ مِنَ الثَّرَى^(١) فَإِنْ نَفْسُكَ لَنْ تُحِسَّ جَوْهَرَهَا الْإِلَهِي
الْأَفِي نَفْسٍ حَبِيبَةٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ عَامَّةِ السَّمَاءِ فَالْحُب
يَجْعَلُ النَّاسَ أَعْلَاهُمْ وَأَسْفَلَ صَاعِدِينَ أَبَدًا مِنْ أَسْفَلَ
إِلَى أَعْلَى

« * »

إِنِّي أَخْطُ فِي هَذِهِ الصَّفَحَاتِ صُورَةَ مِنَ الزَّمَنِ الْفَانِي
تُصَوِّرُ خَطْفَةَ الْبَرْقِ الَّتِي خَطَرَتْ فِي سَمَاءِ الْعُمُرِ مِنْ ابْتِسَامَةِ
مُلْتَهَبَةٍ كَانَتْ سَيَّالَةً بِكَهْرٍ بَائِهًا ؛ وَإِنْ فِي الْقَلَمِ لَشَيْئًا إِلَهِيًّا
يُدْفَعُ الْمَوْتَ وَالنَّسْيَانَ عَنِ الْمَعَانِي الَّتِي تُكْتَبُ إِلَى أَجَلٍ
طَوِيلٍ ، كَأَنَّ الْقَلَمَ يَنْزِعُهَا مِنَ الْإِنْسَانِ الَّذِي هُوَ قِطْعَةٌ مِنَ
الْفَنَاءِ لِيُبْعِدَ الْفَنَاءَ عَنْهَا . هِيَ «رِسَائِلُ الْإِحْزَانِ» لَا لِأَنَّهَا مِنَ
الْحُزَنِ جَاءَتْ وَلَكِنْ لِأَنَّهَا إِلَى الْحُزَنِ انْتَهَتْ ، ثُمَّ لِأَنَّهَا مِنْ
لِسَانٍ كَانَ سَلَامًا يُتَرْجَمُ عَنْ قَلْبٍ كَانَ حَرْبًا ، ثُمَّ لِأَنَّ هَذَا
التَّارِيخَ الْغَزَلِيَّ كَانَ يَنْبُعُ كَالْحَيَاةِ وَكَانَ كَالْحَيَاةِ مَاضِيًّا إِلَى قَبْرِ

(١) كُنْيَاةٌ عَنِ الرَّجُلِ مِنَ الْعَامَّةِ لَا هُمْ لَهُ إِلَّا هُمْ الْعِيْشُ فَلَا

يَعْلَمُونَ عَنِ الْأَرْضِ

ليس بيني وبين الهوى شأنٌ ولا عداوة ولكنها تركت
 في ثلاثاً : قلبٌ أخلص لها وأوغرته^(١) عليها ، وبقايا آلام
 كأنها أشلاء^(٢) من فريسة تُشير الى تاريخ من الموت والالام
 والتمزيق ، وتركته مع هذين اسمها الذي أحفظها فيه
 بجملتها ، وقد يُحسمُ الداء^(٣) ولكن اسمه يبقى داءً ما بقي .
 فهذه الاسماء اكثر ما انت واجدوها إما زيادة على أصحابها
 في الحب او زيادة في البغض او زيادة في الألم ، اذ هي عند
 أشخاصها تُطلق على أشخاصها ، ولكنها في الناس تنبه
 الى المعاني والحوادث والصفات المجسمة التي تنتشر عليها
 النفس او تنقبض ويتحرك لها الدم حباً او بغضاً ورغبةً
 او رهبة وعطفاً او غلاظةً وأحياناً ... إهمالاً او ازدرأ ،

والحبيب قد يتحول الى كلمة او قُبلة او معنى من
 المعاني اذا اراد محبه ان ينقله معه الى أي مكان وهو باق في
 مكانه ؛ الكلمة والقُبلة والمعنى . هذه هي الجهات الثلاث
 التي تنفذ منها النفس الى أحبابها حين يُخفيهم الغمام الفاصل
 (١) أحفظته وملاؤه حقداً (٢) اجزاء (٣) تتمطع مادته ويبرأ

بين الحياة والحياة اذا ابتعدوا او هجروا أو النعم الضارب
 بين الحياة والموت اذا لحقوا بالأبد . أما الجهة الرابعة فحين
 تفتح للمحب يُبقى جسمه ويصعد بروحه ويختفي هو فيها .
 ولعمري اني لأريد ان أنساها ثلاث مرات لا مرة
 واحدة ولكنها في ذكراي كأنها ثلاث نساء واحدة في
 الرضا وثانية في الغضب وثالثة بين ذلك ؛ واحدة في كلمة
 وأخرى في قبلة وثالثة في معنى من المعاني

« * »

السعادة تنصرف عنا في اكثر الاحيان ليكون
 تلهفنا عليها واهتياجنا لها سعادة على وجه آخر وكأننا
 أوشكت^(١) لنا من هذه الجهة وهي ذاهبة ؛ واذا لم يكن
 الانسان بأشد حاجة الى الطعام في وقت منه الى الجوع
 في وقت غيره فكذلك هو في غذاء روحه وعواطفه، يفقد
 السعادة وقتاً كالجوع ووقتاً كالصوم . وان هذا هو بعض
 أسرار الحكمة الالهية في الشقاء الانساني ولكنه كذلك

(١) أي قربت وعرضت

من أسباب سوء الفهم في الانسان . ولقد ذهبت هي
 كالسعادة فلا أطمع ان يتنفس قلبها على قلبي او يتنهد
 صدرها لصدري ، غير ان الشاعر الروحاني الذي يسعد
 بالحب اذا أرضى الحب نفسه يكون اسعد بالهجر اذا
 أرضى نفسه كذلك ، ومع الحب عالم كئيف يُنشئ في كل
 يوم ألماً ، ومع الهجر عالم مجرد يحدث في كل يوم سلوة
 فلنترك المادة للمادة يتحطم البغض والغیظ فيهما
 وتخلص الروح الى الروح كنور في المشرق ينبعث الى نور
 في المغرب ؛ واذا ابتعد نجم عن نجم استطاع كلاهما أن
 يلمح للآخر لحظة متبسمة من بعيد ، يجعلها البعد شعاعاً
 صافياً وان كانت في ذات نفسها شعلة من جحيم يتضرم
 ان هذه الذكرى حياة أثبتني في نسيانها فما أهتاني
 ان يحيتني من نسيانها شيء تبثه هي في حياتي

(.....)

بعد ما كنت وكنا^(١) ؟

يا رياض الغزال في سرحك الفية
 نأني يهفو بنا النحول غصونا^(٢)
 ما الذي يجعل الحب سعيداً
 غير من غادر الحب حزيناً
 ليتني في ثراك نبع ويأتي
 يتراءى الغزال في النبع حيناً
 ليتني في دباك ظل ظليل
 يلوذ الغزال بي ويلينا

« * »

بعد ما كنت يا غزال وكنا
 ما الذي تحسب الهوى أن يكونا ؟

(١) كل ما يأتي في هذه الرسائل من الشعر فهو منها
 (٢) أصل الفينان الحسن الشعر الطويله واستعيرت هنا للشجر

الرسالة الاولى

سأكتب هذه الكلمات المرتعشة ، وسأبسُطُ رِعدةَ قلبي في ألفاظها ومعانيها ؛ أكتبُ عن (...) ذلك الاسم الذي كان سنةً كاملةً من عُمر هذا القلب ، على حين أن السعادة قد تكون حَظَاتٍ من هذا العمر الذي لا يَعدُّ بالسنين ولكن بالعواطف ؛ فلا يسمُنِي إلا أن أَرُدَّ خواطري الى القاب لتَنصَبِغَ في الدم قبل ان تنصبغ في الحبر ثم تخرج الى الدنيا من هناك بين ما يَخْفُقُ وما يَزْفِرُ وما يئنّ . « من هناك » ! آه . من تُرى في الناس يعرف معنى هذه الحكمة ويتَّسعُ فكره لهذا الظرف المكاني^(١) الذي أُشير اليه ؟ إن العقل ليمدُّ أكنافه^(٢) على السموات فيسمعها خيالاً كما ترى بعينيك في ماء الغدير شبكةَ السماء كلها محبوكَةً من خيوط الضوء ، مفضلةً بعقد النجوم . ولكن هناك ؛ في القلب ؛ عند ملتقى سر الحياة

(١) هناك من ظروف المسكان (٢) جوانبه

بسرُ مُحِيهَا ؛ وهناك ؛ في القلب ؛ عند النقطة التي يَتَقَطَّعُ فيها الطَّرَفُ ^(١) بينك وبين من تحب ، حين تريد الجميلة ان تقول لك اول مرة أحبك ؛ ولا تقولها . هناك ؛ في القلب ؛ وعند موضع الهوى الذي يَنْشَعِبُ فيه خيطٌ من نظرك وخيط من نظرها فيلتَبَسَانِ ^(٢) فتكون منهما عقدة من أصعب وأشدَّ عقدة الحياء . هناك ؟ هذا معنى «هناك»

((*))

سأكتب اشياء وأخبرُ على أخرى لا أبوح بها ، وما دام لكل امرئ باطن لا يُشْرِكُهُ فيه الا الغيبُ وحده ففي كل انسان تعرفه انسان لا تعرفه . وليست على المعاني والخواطر سِمَاتٌ ^(٣) تميز بعضها من بعض كيباض الالبيض وسواد الاسود ؛ فأنا وحدي أعرف سبب الزائلة التي أصفُها ، والناس بعدُ كأولئك اخیالین القدماء الذين كانوا

(١) تقطع النظر أن ينظر في اغضاء وفتور كنظر المستحي

(٢) يختلطان وينعقد احدهما بالآخر

(٣) أي علامات جمع سمة

يقولون متى اهتزَّت أثقالُ الارضِ^(١) : إنَّ إله المصارعة
يَنْبُض قلبه الآن وأعرف سبب البركان المنفجر
وكانت خرافة الاقدمين عندما تتمزَّع الارض من الغيظ
وتلعنهم بألفاظ من النار : أن الله الحدَّادة ينفخ في
الكبير أنا وحدي أعرف ما أندمجُ عليه^(٢) وما
يُكِنُّه قلبي المتألم الذي أصبح يضطرب اضطراب الورقة
اليابسة في شجرتها نافرة تَمْلَمَلُ إن عَفَتْ عنها نسمة
لا تعفو النسمات كلها . فسأتيك في رسائي بالكلام
الصحيح والكلام المريض ويتشعب عليك من خبري
أمور وأمور فلا تحاول أن تهتِك سر هذا القلب . وإذا
صح ان الانسان انطوى فيه العالم الاكبر فقد صح أن
السماء انطوت في قلب الانسان . ما أبعدك عن السماء !
انظر انظر فان السماء تقول لك ايضاً انها معنى « هناك »

« * »

لم تُحَيِّرْني المتناقضات ولا المتشابهات ولا ضِغْتُ

(١) كناية عن الزلزلة (٢) انطوى عليه

بأسباب الفكر فيها فان ذلك الحب جعل في عقلي لا عقلا
واحدا ؛ احدهما يُقرّني في هذه الدنيا والاخر ينقلني الى
ثانية ؛ دنيا الناس جميعاً ودنيا امرأة واحدة ؛ دنيا السموات
والارض ودنيا قلبي

في العقل الأول تنحلّ كل المشكلات ، وفي الثاني
تتعدّد كل « البسائط » أحدهما قوي فلو اجتمعت
عقول اعدائه في عاصفة واحدة اكان وحده عاصفة تليف
بها لفاً . والاخر ضعيف ضعيف تُمرّضه الابتسامة الواحدة
مرضاً طويلاً . ذلك يكسر النفس كسراً ويرضها رضى
الهشيم^(١) ويزعها من جمعاتها ؛ وهذا ؟ كان الله له لا
يشبه الا الفناء ما نُسب الى شيء ولا حُسب في شيء
الأول جبّار يلد المحنة ويُميتها ، فهو عقل ما ينقطع له من
الحيلة مدد ؛ والثاني خوار^(٢) يُمتحن بالنظرة الفاترة
المتهالكة دلالاً فتحمل هذه المحنة وتلد في طريقها اليه فلا

(١) الهشيم ما يابس من دقيق النبات فكسره اهون الاشياء

(٢) ضعيف لا جلد فيه

تصل حتى تكون محتتين وأنا بين هذين العقلين
 كأني عالم عجيب حقائقه هي خرافاته ، وما مثلي الا مثل
 النهر الطامي يتدفق الى البحر وقد فار فائره ؛ فلو سألت
 أحفَى مسألة ^(١) واستعنت بالفنون والأدوات جميعاً لتعرف
 ما هو ذلك الموضع المعين الذي يصل بين منبعه ومصبّه
 لكان الجهل والعلم في ذلك سواء ؛ إذ الموضع في النهر هو كل
 موضع فيه على طول ما يجري ويمتد

كذلك حَيِّرةُ الحياة والحب يُجاب عنهما بجواب واحد
 هو نفسه حَيِّرةُ اخرى ؛ ولكني اكتب الآن وقد تركتُ
 الحب وتركني . خرجت من المعركة فَشَشْتُ نفسي في
 معركة اخرى لا أدري أي قائمة بين الحب والبُغْض أم بين
 الحب والحب ؟

أرأيتَ قَطُّ ذئباً قد افترس شاةً وجعل يُفَرِّفُها ^(٢)
 بأظافره وأنيابه وهي تنتفض يائسة هالكة ؟ إن تكن رأيته
 فذلك ذئب رحيم لو أنت كنت عاشقاً فرجعت لك من

(١) بغاية التدقيق (٢) يمزقها وينفضها

تهواها مما تحب الى ما تكره فرأيتَ البغض وما يصنع
 بقلبك . انما الذئبُ نابٌ وظفرٌ وسورةٌ وحشٌ ^(١) يعتري
 اكيلته فيسطوبها فيذهلها عن نفسها ثم لا يزيد بعد ذلك
 على طيب جاهل في « عملية جراحية » أما البغض
 فذئبٌ الدم ؛ يساورك سورة الحمى فاذا هو شعلة طائرة
 في عروقك لا تدع منك موضعاً الا مسته ولا تمس منك
 موضعاً الا نقت فيه ^(٢) مثل ناب الأفعى من وهج الحب
 وسمه وغيظه وألمه فما تدري في أي ناحية عذابك من هذا
 البغض ولا من أي الآلام هو ؟

وان تظهر قدرة الجمال وما فيه من القوة الأزلية الا
 اذا حملك على بغضه بعد ان يحملك على حبه فيقتلك مرتين
 كل مرة بسلاح وكل مرة على أسلوب وكل مرة بنوع من
 الألم . وذلك ضربٌ من العذاب لا تملكه قوة في الارض
 لا في الملوك ولا في الجبابرة ولكن تملكه بعض النساء
 الضعيفات ويعدبن به حتى الملوك والجبابرة

مهما يبلغ الألم في عذاب انسان فلن يُجاوز حالة معينة
ثم يُغمى على المتألم ويستريح ولو دُقَّت في عظامه المسامير ؛
كلما مهما تُوقد عليه فلن يَعْدُو درجة معروفة في غليانه ثم
يثبت عندها ولو أضرمت عليه من النار التي وقودها الناس
والحجارة . غير أن ألم الحب الشديد حين يُكرهك على
بغضه نوع منفرد في كل آلام بني آدم كأنفراد « ذئب الدم »
في جميع ما خلق الله من المعاني الوحشية

« * »

لم أر وصفاً كهذا أفظع ولا أبعت على الرعب لانه
إنما هو موصوفه فسأخفف عليك فيما يلي هذه الرسالة
ولا اذكر لك ثَمَّتَ الا ما يكون كوصف الجنة تَزَخَّرَتْ
له ما بين خَوَافِقِ السموات والارض ^(١) ، ولكن دعني اقل
لك اني ابغض من أحبها ، على أنك لو رأيتها لرأيت نفسها
تَلُوحُ في وجهها ، جميلة كجمالها رقيقة كرقته محبوبه كحبه ،

(١) هذه الكلمة من حديث في صفة الجنة والمراد ملء

السموات والارض

ولكنني مع ذلك أبغضها والله بغض المَحْرُور لما يَتَلَدَّعُ^(١) من أشعة الشمس ، وبغض العين الرَّمْدَاء لما يتلألأ من إشراق الضُّحَى ؛ فلا يُدَاخِلُكَ في ذلك ريب ولا شك . وسيدبقى سبب هذا البغض من سر الحب الذي لا يُعرف . ان بعض الاسرار فيه ضربةُ العُنُقِ^(٢) فلا يباح به وبعضها يكون فيه ألم النفس الكبيرة فلا يباح به كذلك : ولكن اعلم انها هي هي وأنه انا هو . هي الكبرياء كلها لا تستعذرها من شيء فتعذر ولا تسمح بشيء الا التَوْتُ به^(٣) وأنا كبرياء الكبرياء ما خلقت الا مُحْكَمَ المعاقِد لا أتلم ولا أتخطم ، وتقلِّبني في يدك ما تقلِّب عَصَاةَ اَحَدٍ فلا تراها من كل جهة الا حديدًا . هي يمينُ حلف الدهر بها ليكذبن كذبة بيضاء مُغَشَّاةً يغرُّ بريقها ويلتمع ماؤها لَمَعَ السَّرَاب فتُبصر فيها الروح معنى الرِّي لتأهب منها بالظُّمأ القاتل

(١) المحرور الحران ويتلدع يتضرع (٢) كالاسرار السياسية

مثلا (٣) التوت غدرت ومنعت وأعدرت جعلت تعذرها

يُفِيضُهَا عَلَى رَمْلٍ ذَهَبِي صَبَغْتَهُ الشَّمْسُ . . . وَأَنَا؟ أَنَا كَلِمَةٌ
 قَدْ اسْتَوَى ظَاهِرُهَا وَبَاطِنُهَا فَمَا أَنْ تَصْدُقَ كُلَّهَا وَأَمَا أَنْ
 تَكْذِبَ كُلَّهَا . كَلِمَةٌ لَيْسَ فِيهَا جُزْءٌ مُحْبُوبٌ وَجُزْءٌ مُكَرَّهٌ
 فَلَا تَحْتَمِلْ أَبَدًا مَعْنِيَيْنِ . هِيَ كَالسَّيْلِ تَنْحَلُّ بِهِ السَّحُبُ ؛
 وَأَنَا قِمَّةٌ مِنَ الصَّخْرِ الصَّدِّ تَغْسِلُهَا السَّيُولُ وَلَا تَشَقِّقُهَا
 ثُمَّ هِيَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ كُلِّهِ فِيهَا رُوحٌ بَلْبَلُ يَفْرُ بِأَغَانِيهِ
 مِنْ ظِلٍّ إِلَى ظِلٍّ فِي رِيَاضِ الْجَمَالِ ؛ وَأَمَا أَنَا فِي رُوحٍ نَسْرٍ
 يَتَرَامَى بِصَفِيرِهِ مِنْ جَبَلٍ إِلَى جَبَلٍ فِي قِفَارِ الْحَبِّ . حَاوِلْ
 الْعَصْفُورَ الصَّغِيرَ الظَّرِيفَ أَنْ يَطْوِيَ النَّسْرَ فِي جَنَاحِيهِ وَهُوَ
 لَا يَبْلُغُ نَصْبَةً فِي رِيْشَةٍ فِي جَنَاحِ هَذَا النَّسْرِ ، وَلَكِنَّهُ . . آه
 وَلَكِنَّهُ طَوَاهُ فِي غَيْرِ جَنَاحِيهِ

« * »

أَيْنَ الْعَقْلُ فِي الْحُبِّ وَالْبَغْضِ وَبِخَاصَّةٍ إِذَا أَفْرَطْتَ
 عَلَيْكَ اسْبَابُهُمَا؟ أَمَّا إِنْ كُلُّ طَرِيقٍ كَيْفُفٌ فِيهِ الْإِنْسَانُ عَلَى
 بَصِيرَةٍ إِلَّا هَذَيْنِ فَإِنَّ أَحَدَهُمَا إِذَا احْتَوَاكَ لَمْ يُغْلِبْكَ
 وَأَصْبَحْتَ فِيهِ كَالَّذِي يُضَافُ بِهِ الدُّنْيَا وَيَدَاهُ فِي قَيْدٍ ، فَمَهْمَا

سَوَّغَ^(١) من الحركة والاضطراب وهما انفسحت له
 الآفاق فان قدر ذراع من وثاق حريره الذي يشدُّ يديه هو
 قياسُ دنياه في طولها وعرضها ما بلغتْ . فأنا على ما كنت
 أشعر من أن لي عقليْن كنت أراني في ذلك الحب كأنني
 بلا عقل ، بل كأنني مجنون من ناحيتين ويسرف عليَّ
 بغضها أحياناً فأتلمَّهَبُ عليها في زفَرات كعمعة الحريق^(٢)
 حين ينطبق مثلُ الفلكِ من جهنم على مدينة قائمة فيمضغُ جدرانها
 ، مضغَ الخبز اليابس . ثم يسرف عليَّ حبها أحياناً فينحطُ
 قلبي في مثل غمرات الموت وسكراته يتطوحُ من غمرة
 الى غمرة . فأنا بين رقعة تنفجأ وبين عافية تتحول وكأنه
 لا عمل لي الا أن أسعد . مئة درجة لأهبط مئة درجة ...
 أما ماذا يردُّ عليَّ السمودُ والنزول فسل تسمبة الزئبق^(٣)
 ولا تساني . انه سيال يتخرج في القلب بين شيء مني
 وشيء منها ؛ وكانت عروقي كأنما ينسبُ فيها أحياناً دمٌ
 قتيل فيهم بهم بالموت (الآخر) على حياتي يريد أن يغواها
 (١) سوغ أبيع له (٢) صوت الحريق (٣) الترمومتر
 (رسائل الاحزان) (٣)

ان تلك الفتاة لتغضب الملائكة الذين لا يغضبون ؛
وقد خلق النساء لامتحان جنون الرجال وخلق الرجال
لامتحان عقول النساء ؛ وخلقته هي وحدها لجلب الجنون
لا لامتحانه

« * »

أراني سأبتدى أياي من آخرها فاني لا أفسها
عليك وهي تولد بل وهي تموت بعد أن تركتني كالقنبلة فرغ
الحب من حشوها وتريد أن تنفجر . لم اكتب لك اذ
كان هواها ناشئاً يرّتع وياعب ، واذا كان ينكسر انكسار
فرخ الطائر حين يهدل جناحيه ^(١) لتسحبه أمه بجناحيها
ولا كتبت اذ كان هواها الجِدَّ أشدَّ الجِدِّ واذا كان كالريح
المُرْسلة لا تقف ، ولا تنكسر الا اذا تدلى من السماء جدار
يبلغ الارض أو رُفِع من الارض حائط يبلغ السماء . ولا حين
كان الهوى يركض بي ركض الجنون الذي يجري وكأنه
يجري وراء عقله الذاهب على غير طريق ولا جادة ولا
(١) يرخي جناحيه عند لقاء أمه

لم^(١) فلا عقله يتف له ولا هو يدرك عقله . ولكني
أكتب وقد ركد الهوى ؛ وقد ماسحت قلبي حتى
بأن من غضبه ؛ وقد اجتمع الي رأبي الزاهب . ولا تحسبن
ني سأخط لك قصة فيها اليوم والشهر والسنة وفيها
زمان والمكان وذلك السخف الذي يطولون ويعرضون به
ذ يستهجون سبيل الحادثة من حيث تبتدى الى حيث
نحدر ، فان هذا مما يحسن في تاريخ صخرة تتدحرج أما
نافسأقدم اليك تاريخ لؤلؤة فريدة . هم يغطونك بقبة الليل
لمع في بعض جوانبها نور كوكب يظهر ويغيب . أما أنا
أضعك في ساعة من السحر بين نسيمها وجمالها ورقتها
ذبول الليل فيها ثم ينشق لك الابيض ذو الحواشي^(٢)

« * »

ودعني أذكر البغض مرة أخرى قبل أن أنساه

(١) الجادة الطريق المستوية والمراد الجري اعتسافاً

(٢) الصبح من قول القائل

فلما شق ابيض ذو حواش له حال ولظلماء حال

إنَّ اللين في القوة الرائعة أقوى من القوة نفسها لانه يُظهِر لك موضع الرحمة فيها ، والتواضع في الجمال أحسن من الجمال لانه ينفي الغرور عنه ؛ وكل شيء من القوة لا مكان فيه لشيء من الرحمة فهو مما وضع الله على الناس من قوانين الهلاك

اجمع يا عزيزي إن استطعت سِرِّباً من الوحوش الضارية وَصَفِّهَا لَوْنًا الى لون وَصَفِّهَا شَيْئًا الى شيء فانك سترى في « جلودها » مكتبة ضخمة من هذه القوانين والوباء الذي يحاق الناس حَاقَ الشَّعْرَ فَبَاسَاتُطُونُ أَلُوفًا أَلُوفًا بِحِجْرَةٍ من يد الموت . والزلزال الذي يرجهم في سربال الارض رجَّ الحصى يَنْفِيهِ من هُنا رَهِنا . والمصائب التي تبسط العُقُوبَةَ على النعم في سحابة كَهْدِيرِ الموجة العاتية حين تصارع العاصفة . والجيلة الضرورة التي تراها في أخلاقها من حُرَّاز كدماغ السكَّاء الفارغ من زينة بشيالات الحمر وسؤرتها . كل تلك من « قوانين العقوبات » في العالم الذي خُلق مُتَّهِمِينَ وَقَضَاءٌ وَلَا مَن يُحَارِمِي ...

وهذه التي سأقص عليك منها فلسفة الجمال والحب ،
قوة من القوى لم يجعل الله التسوية فيها الا لعلمه بها ؛ وما
ابتساماتها الفاتنة الا كسجن من البلور الصافي يَخْتَنق من
يُحبس فيه وهو يتلألأ وكنت أراها أحياناً في جمالها
وتأثير جمالها كأنها طاووس من طاوويس الجنة على كل
ريشة فيه لون من ألوان النار

نصيحتي لكل من أبغض من حُب أن لا يحتفل
بأن صاحبه غاضته وأن يُكَبِّر نفسه عن أن يغيظ امرأة ؛
انه متى أرخى هذين الضَّرفين سقطت هي بعيداً عن قلبه
فانها معاقبة الى قلبه في هذين الخيطين من نفسه
ما من قفل بلا مفتاح والا فما هو بقفل ؛ والا همال
والازدراء وسمو النفس ثلاثة مفاتيح لقفل واحد هو قفل
الغيظ

الرسالة الثانية

لقد هَوَّلتَ عليَّ في كتابك حتى أخرجتني عن غيظي
الى غيظ آخر . تقول : « وَيَحْكُ أَرَاكَ أَخْرَجْتَ الْقَمَرَ
مِنْ دَارَتِهِ وَجِئْتَ بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ ؛ وَالْأَفْنِ تِلْكَ الَّتِي
لَمَسْتَ الْفَلَكَ الْأَعْلَى حِينَ لَمَسْتَ قَلْبَهَا فَكُنَّا نَجْتَرِئُ
عَلَى الْقَدَرِ فِيهَا حَكْفَ لَيْتِيحْنُكَ فِتْنَةً ^(١) تَدْعَاكَ وَمَا يَلُوي
مِنْكَ شَيْءٌ عَلَى شَيْءٍ . وَهِيَ عَسَاهَا تَكُونُ هَذِهِ الَّتِي لَيْسَ
فِيهَا إِلَّا مَا فِي الطَّائِفَةِ مِنَ رِيَشِهِ الْجَمِيلِ وَهِيَ مَعَ
ذَلِكَ رِضَاكَ ^(٢) فِي الْحُبِّ وَفِي الْبَغْضِ سَوَاءٌ . ثُمَّ نَقُولُ :
« وَلَعَلَّهَا رَفَعْتَكَ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّجْمِ لَا نَهْمَ عَشِيرَتُهَا
وَأَهْلِهَا فَاثْتَ تَخَاطَبُنِي فِي رِسَالَتِكَ الْأُولَى وَكَأَنَّكَ
مُرْتَفِقٌ ^(٣) تَحْتَ جَنَاحِ جَبْرِيلَ أَوْ مَتَكِيٌّ عَلَى بَسَاطِ الرِّيحِ
فَتَصِفُ مَا لَا عَهْدَ لَنَا بِهِ مِنْ كَلَامٍ مُفَوِّفٍ كَأَنَّهُ غُرْفُ الْجَنَّةِ
تَفْوِيْفُهَا لَبَنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ وَأُخْرَى مِنْ فِضَّةٍ وَتَفْوِيْفُ كَلَامِكَ

(١) ليقدرن لك فتنة (٢) اي كافيتك (٣) مستند الى مرفقة

جملةً من الحب وجملةً من البغض . وتَنَعَّتْ غراماً كأنما
فُصِّلَ لك ثوبه من سحابة يمرُّ فيها مقرّاض البرق ففي كل
ناحية منه فَتَقُّ من النار . وتسألي : كيف أجعل نفسي
كالميت فلا اكتب اليك الا يوم تحين الوصية ولا
أخبرك الا وقد حلت عقدة القلبين وانفسخت ألفة
ما بينهما ؟

« * »

فيا ويحك ألا تعلم أن مرَّ جلُّ الباخرة حين ينقلب
ماؤه لهباً أبيض فوق اللهب الأحمر ؛ يَنْفُثُ نَفْثَةَ المارد
الممدود بسلسله في قاع الجحيم ، فيرمي بسهام من الذرِّ
المحرق لو كنت في جهنم رَهَجَ يثور لما كان الا دُقاق
تراها^(١) . أم تُراك لم تدرك من رسالتي أني أسع من
بغض من أحببت فوق ما يتلأني وان هذا البغض وجه
آخر من الحب كالجرح ظاهره ألم وباطنه له ألم ، وما
يمسه من ظاهره غير ما يَنْسُكُ فيه من باطنه . ام حسبت

أني أزين لك صور الكلام وأزخر فيها بألوان لا تلتمسُ إلا
لرونقها وانسجامها وحسن تأليفها فمنها الأسود لأنه اسود
ومنها الأحمر لأنه أحمر ومنها لون قلبها لأنه لون قلبها . . . ؟
كلام ثم كلام فلا تنهدم علي^(١) بمثل ما كتبت واعلم انه هو
ما وصفت لك وان السحابة التي تراها تدمع حيناً لا يبعد
أن تراها قد تلففت على صاعقتها ثم اجتمعت أرحاؤها
وبواسقها^(٢) ثم ارتجت ثم . . تنفجر

ولم اكتب اليك من قبل لأني أحب بلا غاية
أباهيك بها ولا غرض أستعينك عليه ولا سر أستودعك
إياه وهل رأيت الحب ينكشف إلا في واحدة من هذه
الثلاث ، وهل انكشف قط إلا تتابعت عليه أمور وأمر
وامتلات منه الأنفس بالظنون والغفلات ؟

لقد أحببت فتاة كأنها قصيدة غزلية في ديوان شعر
لا خطبة سياسية في حفلة . . . فأنتم الامعة دقيق

لطيف خلّاب ساحر ؛ كل قولي له : أريد ان افهمك وكل
قوله لي تأمل تفهم

ان الذّ المعاني في هذا الجمال ما جعل ينبؤ في يديك
كلما ألقيتَهما عليه كيلا تستمكن منه ؛ ففي كل نبوة يظهر
لك منه جانب وأنت معه في ارتفاع وانخفاض أبداً ولا
تزال تجري ويجري ، أما أنت فتشتدّ جهداً في سبيله ،
واما هو ففي سبيل منبهر من الجمال الأعلى الذي أفاضه
موجة منه فكانك ذاهب الى الجنة حياً ، لا يمر بك الا
في روح ، ويحان على طريق من لذة النفس لا تنتهي اذ هي
من حيث لا نعرف الى حيث لا نعرف ، وتغدو كأنك في
تلك المرات الروحية طفل لا يكبر ، ما دام في عرش الحب .
والحب الروحاني السميع اما هو كالحقوله لا تعرف وجهه الفتي
الا شبيهاً بوجه الفتاة فليس فيه تذكير وتأنيت بل حالة
متشابهة كاخضرار الشجر تبعث عليها الحياة حين لا يجيء
الحس فيها الا من جهة القلب . وما أرى الشجرة حين
تحضر الا قد نبئت فيها كلمة من قدرة الله ذات حروف

كثيرة ؛ ولا الزهرة حين تتمطر الا قد لاح في جمالها
معنى بديع من حكمة الكلمة الالهية ، ولا الانسان حين
يعشق عشقاً صحيحاً كما تُروِّحُ الشجرة وتنفطر^(١) الا
قد صار قلبه كتاباً من تلك الحكمة النقية الجميلة المعطرة

كذلك يكون هذا الحب عند الذين خلُقوا للشعر
والحكمة اذا هم اتصلوا به فانه لا يهبط اليهم من السماء الا
ليلاً أو عيتهم ؛ وفي هؤلاء خاصة يكون الحب الانساني
هو الشرب^(٢) الذي يتخذونه سبيلهم الى غور ما^(٣) في
الأمواج الالهية العظمى التي لا تنتهي أعماقها فيغوصون
ويخرجون وفي أيديهم أفلاذ الحكمة والآئها ؛ ومن شفتي
المرأة الجلياتين يخرجون للناس كلام السموات
أما الآخرون فتلك عقول كادها بارؤها^(٤)

- (١) أي على هذا الاسلوب الطبيعي الذي لا صنعة فيه حين
ينفطر الشجر ويخرج اوراقه (٢) الطريق تحت الماء
(٣) الغور العمق (٤) ارادها بسوء

عقولُ الناموس الاصغر العامل في حَرث الارض^(١)
يضم اَحدَهم يديه على الجِمال فيَتَلَقَّفه فيَجعلُ أَصابعه أَعواد
القَفَص لهذا الطائر ويقول له لَطالَمَا التَّمسُكُ في جو
السموات وطالما كُنتَ وكُنتَ فَهَنا فَاسْتَقِرَّ . ولا يراه
بعد قليل الا كما اغْتَرَفَ غُرْفَةً من الموجة ؛ كانت حركة
تَفُور فأصبحت سكوناً هَامِداً ، وكانت مَلءَ البحر فصارَت
مَلءَ الكف ، وكانت مَوْجَةً فصارَت .. آه فصارَت
بِصَقَةٍ

« * »

أقول لك أَحِبَّيْهَا لا كِهَذَا الحُب الذي تراه وتسمع
به في رواية تَبْتَدِئُ وتَنْتَهِي في جُزَيْنِ من رَجُلٍ وَاِمرَأَةٍ ؛
ولا كالحُب الذي يُوَثِّقُه الكِنَابُ والشُّعْرَاءُ حين يَجْمَعُونَ
عَشْرِينَ مَعْنَى في كَلِمَةٍ او يُرْسِلُونَ عَشْرِينَ كَلِمَةً لِمَعْنَى
ولا كالحُب الذي يَبِيعُ وَيُشْرَى فَيَتَأَخَذُ مِنْهُ بِالْدينَارِ اكْثَرَ

(١) في القرآن الكريم « نساءُكم حَرثُ اَكْمَ » وهو مجاز
على التَّشْبِيهِ لا نظير ابلاغته يَنْهَمُ معاني كثيرة فافهم

مما تأخذ بالدّرهم ولا كالذي تجيئه وانت من
الإشراق والنور رببة الخمر فيعيدك وانت من الظلمة
والسواد كزجاجة الخمر أحببتها ولا كالحب نفسه
منذا الذي قال : « من يُهلك نفسه من أجلي يجدها » ؟
أظنه المسيح وقد كانت هي تتمثل بها كثيراً^(١) ؛ ولكن
هذه الكلمة بعد كلمة الحياة الأزلية التي تقول للناس
حين يشكّون فيها : موتوا لتعرفوا . كلمة الجمال الاعلى
الذي يقول للشمس حين تصفر : أغربى لتصبحي بيضاء
حية في النهار . كلمة الحب الصحيح الذي يقول للبنتى به :
تعذب لتعرف كيف تتخيل السعادة وتتمناها . كذلك
تراني لا أحب الا لثلاث : لأعرف وأحس وأتأمل ؛ ولا
أهلك بالحب الا لثلاث : لأوجد في نفسي وأبقى في
نفسي وأضمّ نفساً الى نفسي

« * »

(١) فتاة هذه الرسائل سورية مسيحية تعرف اليها الصديق
في لبنان ثم قدمت الى مصر اشهرأ فأتصل بها ثم ضرب الدهر
بينهما وسافرت الى حيث لا يدري بعد ان سافرت من قلبه

أفهمت ايها الصديق أم أزيدك ؟ ها أنا أهبط عليك
 من الفلك الذي تقول اني لمستته حين لمست قلبها . فاعلم
 أني لا أحب فيها شيئاً معيناً أستطيع أن أشير اليه بهذا او
 هذه أو ذلك أو تلك ؛ حتى ولا « بهؤلاء » كلها انما
 أحبها لانها هي هي كما هي هي ، فان في كل عاشق معنى
 مجهولاً لا يحدد علم ولا تدفعه معرفة وهو كالمصباح المنطفي
 ينتظر من بضائه ايضي ، فلا ينتقصه الا من فيه قدحة
 النور ^(١) أو شرارة النار ، وفي كل امرأة جميلة واحدة من
 هذين المكانين في تحرك القلب حتى يدني مصباحه
 لتعانق تلك المنة فتد وما يحرك كذلك الا التذكر . وما أحكم
 الناس ان يقولون في بعض حوادث الحريق انها « وقعت
 قنصلاً ونحوها » ، وكل حريق القلوب لا يقع الا هكذا . . .
 ومن كذا كانت الجميلة على قلب رجل أضاءته فيضيتها
 نوره بأن من الحسن لا يراها ولا يدركها ولا يصدق بها
 الا صاحبها من القلب . فلو ان الشمس كانت تصب

أشعتها على طلعة هذه المرأة ألف سنة تحياها جميلة شابة
لا تضعف ولا ترقُ سِرُّها^(١) لما كشفت لأعين الناس شيئاً
من تلك المعاني السرية التي يكشفها ضوء قلب عاشقها
لعينيه ؛ وما ضوء قلبه الا منها فلن تكون فيه الا ما أحبت
ان تكون فيه

يَبْدَ أن مصائب المحبين انما تأتي من انقلاب المصباح
فيستطير حريقاً لا ضوءاً وترى النار تَعْتَلِجُ في القلب
وذؤابتها تَلَوَّى في الرأس ويُصْبِحُ العاشق مَرُوحاً^(٢) بما
اعتراه من الوهن والضعف كأنه في جملة وفيما أبسه من
الهم والسواد ما تراه من بقية بيت محروق

« * »

رأيتها مرة في مرآتها وكانت قد وقفت اليها تسوي
خُصْلَةً من شعرها الاسود الفاحم المتدلى عناقيداً عناقيداً ولم
يكن بها ذلك كما علمت بعد ؛ وانما ارادت ان تطيل
نظرها في من حيث لا يستطيع ان اقول انها هي التي تنظر

(١) كناية عن الهرم (٢) متساقطاً من الضعف

فان ذلك الذي ينظر كان خيالها فلما انتصبت الى
المرأة خيل اليّ أني أرى ملكاً من الملائكة قد تمثّل في
هيئتها وأقبل يمشي في سحابة قائمة من الضوء ؛ أو أن يد
الله في كمح النظرة قد رسمت هذا الجمال على تلك الصحيفة
يتموّج في ألوانه الزاهية ؛ او هي قد ارادت ان تبعث
اليّ بكتاب يحتويها كلها ولا يكون في يدي منه شيء
فأردتني مرآتها

ألا فاعلم أن هذه التي في المرأة وهذه التي امام المرأة
وهذه التي هي في قاي ؛ ثلاثة في واحدة . لو هممت أن
أضع يدي عليها فرت من يدي لتختبئ في مرآتها وتفرّ من
المرأة لتختبئ في قاي . فكأنما كنت أعشق مخلوقة من
مخلوقات الأحلام لا تدرك بجميع أجزائها واذا أدركت
بقيت وهماً لا تناله يد . وهي كالملائكة قادرة على التشكّل
إلا أنها تتشكل في الذهن فبينما تراها شخصاً جميلاً اذا هي
فكرة جميلة تتعطف عليها حواشي النفس ، وبذلك
تستطيع أن تشعرني انها فيّ وان كان بيننا من الهجر بُعد

المشرقين ؛ وأن تنزل بالسلام على نجلي وان كانت هي
نفسها الحرب ؛ وأن تجعلني أحبها وان كان بغضها يأكل من
جواني

تراها مع أيّ أحوالها كالسعادة تَحِيدُها هو هي
ولولا ذلك ما احتملتُ غضبها وان لها لغضباً تَجْمَعُ
فيه فتملاً جوّ النفس بمثل الغبار الذي يُبِيدُهُ الْجَوَادُ الكَرِيمُ
إذا انْجَرَدَ لِلسَّبْقِ وترك أعناق الخيل تتقطع عليه ولا تلحقه
فتراه يغضب ويتميّز ويحاول ان يسبق جلده وأن يخطف
أرض الله كآها في حوافره . تغضب على أسلوب من هذا
الطراز او من طراز البحر الزاخر حين يَقْلَعُ في أيدي
الأعاصير او من طراز الارض حين تَتَخَلَّعُ في أيدي
الزلازل . وأحياناً من الطراز الرقيق حين تتجاهل في
غضبها نجباءً هي بعضُ تاريخه فتدعوا يشعر أن فيه مكاناً
مجهولاً وأن من قلبه قطعة من روعة . و قد من الطراز
العسير حين تلوي وتُكَدِّحُ وتتركني وكأنني ما اجد في
الدنيا مكاناً ليست فيه ولا مكاناً هي فيه :

وكل هذه الاساليب شروحٌ وتفسيرٌ ؛ أما المعنى
الذي تدور عليه فهو هذا : داء الحب تقدأ والدواء عند
النسبين وسوف عند هذه الجميلة التي هي أكذبُ
ما في الصدق عند محبتها وأصدقُ ما في الكذب على محبتها

الرسالة الثالثة

« حيلة مرآتها »

حسنا ، خالقها أتمَّ جمالها
سألتُه مُعْجَزَةَ الهوى فذلتها
لما حبَّأها الله جلَّ جلاله
بالحسن منفردًا أجلَّ جلالها
تُضِنِّي المحبَّ كأنما أجفأنيها
ألت عايه فتورَّها وملائيها
هيفاء قد حسب النسيم قوامها
نصنأ فان خطر النسيم ملامها
سِيَّالَةُ الأعطاف أين ترنحت
تُملقُ لكهربة الهوى سداها
طلبوا لها شهابي ضياءها
أرى الرَّاظِر أو نداه دلالها

أما السما فجلت عليهم بدرها
والأرض قد عرضت لذاك غزالها ...
لكنها نظرت فأخجلت الظبا
وتألفت البدر فاستحي لها
هم يطلبون مثالها فلبرقبوا
مرآتها يجدوا هناك مثالها

« * »

مرأة فاتمة القوس وصفحة
تلمر بها أرواحنا آمالها
عجزت أن تفصل وصفها
جمت لنا مرآتها إجمالها
وامرأة البنيان لم رنت
يرى في الجفء خيالها
تملأ السمك في جبهتها
تسجل ضوء الشمس هز مثالها^(١)

من نغرها ؛ من منبع النور الذي
 نبتت به ضحكاتها فأسالها
 تنتقل اللحظات في أنفاسها
 قتالها مستتبع قتالها
 جرحتها وبهدايا وكذا النوى
 أبداً يعد من السيوف ظلالها
 حورية شهدت لها جناتها
 وجمال عبيدتها شهداتها
 وكأننا المرأة من أفق السماء
 وكأنها ملك يلوح خلالها

« * »

وقفت لها يوما فألقت نظرة
 حيرى تشابه وعدها ومما لها
 نظرت بلحظ نافذ لو أنه
 لقي الإرادة نفسها لاغتيالها

نظراتِ حواءَ التي أوهتُ بها
 عزّمت آدمَ يومَ ضلّ ضلّاها
 فرأت على المرأةَ وجهًا . ظنّهُ
 ملكَ الجمالِ يحاولُ استقبالها
 راع المليحة منه فرطَ جماله
 أم راعها أن لا يكونَ جمالها ؟
 فرّت بنظرها اليه تطيلها
 ورنّا بنظرته لها فأطالها
 لحظان لو رجفّا حياك تراجفتُ
 كبرَدُ الفؤادِ فزُلزَلت زِلزالها

« * »

نظرت لها حسنا اذا ما احتلّ في
 دُؤلِ النّهي سلب النّهي استقلالها
 ورأت لسحر جنونها ما راعها
 ورأت لفتك لحاظها ما هالها

فتذكرت شمسُ الجمال مُتَيِّماً
 تركته من فرط النحول « هلالها »
 ما زال يشكو « الصَّدَّ » حتى بنضت
 في نفسه « صَاد » الحروف « ودالها »
 ورأت صفا المرآة يشبه قلبه
 مبهما تحمله يكن حمالها
 فتنهدت أسفاً عليه وأنشأت
 عبرات رحمتها تجول مجالها
 حزعت له يُعْنَى العذبة كـ
 وتريه كن ثوابه إهمالها
 حالان خيرهما وشرهما سوى
 ومن المنفع ما يجزئ وبالها
 مُجهدُ المقامر أن يحاول حيلة
 ولكم أضرت حيلة محتالها

والعمر آمالٌ وما جَابَ الشقا
الا ابتناء الطامعِينَ مُحَالِهَا

ان الذي أعطى النفوسَ عقولَهَا
جعل القناعةَ للنفوسِ عِقَالَهَا

« * »

جرت الخواطر بالمليحة لحظةً
شغلت بأحزان المتَّيمِّ بِأَلِهَا

فبدأ عليها بعض ما قد ناله
وبدا عَلَى المَرَاةِ ما قد نالَهَا

ورأت لها وجهاً نَعَشَهُ الأَسَى
والحسن قد منع الأَسَى أَمْشَالَهَا

كادت تقول "رضيتُ عنه" فما سكت
ومضت عَلَى عجلٍ لِتُخْفِيَ حَالَهَا

أَوَّاه لو مرَّاتِهَا فنجحت ولو
فَمَهْهَا تَبَسُّمٌ عِنْدَ ذَاكِ « وَقَالَهَا »

الرسالة الرابعة

ما أحلاه كلاماً وأنداه على كبدي هذا الذي تقوله
في كتابك : « لو كانت تلك الفتاة الساحرة شجرة يابسة
قد تحأت^(١) وكان النساء كلهن شجراً أخضر لا ورقن
عليك وأثمرت ، فإن فيك وفيها القوة والسبب ، ومن
مثل هذه القوة وهذا السبب تخرج معجزات الحب » .
آه لو صح ذلك . ان بعض الرجال يكون في صفاته كذباً
على الرجال فهذه والله كذبٌ على النساء ولو جاز لقلت
إنها ولدت خطأ في هذا الجلد ؛ بل ما وضعها الله فيه إلا
لعلمه بها وليجعل منها عاملاً لمن شاء أن يدرس بروح الرجل
الحب أو المبغض جمالاً شاذاً في روح امرأة تحتمل الحب
والمبغض معاً . لم يكن في وفيها القوة والسبب بل القوة
والقوة ، وما كنا إلا كدولتين متحالفتين تمنع قوتيهما أن
تعتدي واحدة على واحدة ، ويشق ذلك عليهما فتعبر أن

(١) تساقطت اوراقها من اليبس أو عارض ما

عن لفظ القوة بلفظ أرق وأجمل وهو المحالفة؛ ثم يرقُّ هذا اللفظ فتخرج منه الصداقة، ثم ترقُّ هذه فيجبي منها الحب. ولا حبَّ هناك ولا صداقة ولا محالفة بل هي أساليب سياسية في لغة القوة حين تخشى وحين تطمع

لقد أذكرتني بالشجرة اليابسة يوماً جميلاً وكلاماً أجمل منه فانا باعث به اليك وان كان قد بَعُدَ به العهد اذ وقع اول معرفتي بها في قرية . . . بلبنان . هناك زهر أصفر يلوح للعين كوجود الدنانير يسمونه « الوزال » وهو طيب الرائحة ولكنه خبيث النبتة لا يكون الا في مثل الرماح من الشوك . وكان لها ولعٌ شديد بهذا الزهر اطبع من أشواكها واشواكه فقد نلتُ من كليهما وسنحت لها على زهرة منه فراسة زاهية، صبوغة فوثبت اليها واستدت وراءها وكانت الفراشة تقوتها وتسنّضد لها وتعبث بها عبثاً بين أن تلوح وتختبئ . ثم رجعت « الفراشة الكبيرة » بعد ما انتطعت وقد تراجمت الأنفاس على صدرها وجعل قلبها يغيطني بدقّاته غيظاً شديداً اذ كان يخفق من البهر

والإعياء لا من شيء آخر وتساقطت تحت شجرة
من التين فلما أراحته وثابت إليها نفسها قالت : فراشة
لا تبلغ عقدة اصبع من ثوبي وتُعِينني هذا العناء كله ثم
أرثد عنها خائبة ؟ قلت بل خائبة خيبة المفلس يعدو يومه
وراء « الدينار الطائر » فلا يدركه . فاجتذبتها الى كلمة
« الدينار الطائر » ومن خصائصها أنها لا تعجب بشيء
اعجابها بدقة التعبير الشعري وسأستوفي لك هذا في رسالة
أخرى . انها تريد أن تجمع الى صفاء وجهها واشراق خديها
وخلاقتها وسحرها ؛ صفاء اللفظ واشراق المعنى وحسن
المعرض ، وجمال العبارة وهذا هو الحب عندها ؛ تحبك
كما تحب كلمة تكتبها او معنى تتخيله فاذا سئمتك لم تكن
عندها الا الثالثة الاصحيفة تمرقها

« * »

ورفعت رأسها الى الخيمة الخضراء ثم قالت : هذه
شجرة تين . قلت وماذا في أنها شجرة تين ؟ قالت ألا
تعرف تينة الانجيل ؟ قلت وان في الانجيل لتينة ليست

كغيرها ؟ قالت كان من خبرها ^(١) أن المسيح مرَّ في
جماعته وهو جائع فرآها من بعيد فينانة خضراء تهتز كأنها
تدعوه ولم يكن إبان هذه الفاكهة ؛ فمدَّ اليها لعله يجد
فيها شيئاً يطعمه فلم يجد غير ورقها الذي لا يؤكل فقال
لها : خَسِيتِ لا يأكلنَّ منك أحدٌ ثمرًا بعد اليوم .
وانحدروا الى اورشليم ؛ ولما أصبحوا انقلبوا فرَّوا بشجرة
التين فاذا هي خاوية قد زعت ثوبَ نضرتها والتفت في
كفن من الينس وماتت واقفة . فرماها بطرس بعينه
وقال انظر يا سيد ان هذه التينة التي مرَدَّتْ عليك فلعلتها
قد ماتت وثرأها حيٌّ بعدُ

قلت هذه لعمري هي المعجزة ، تموت الشجرة وثرأها
حيٌّ وتجري اللعنة في أعوادها فتشرب ماءها وتتركها
يَبَسًا لا تصلح الا للحريق ، وتنقلب الشجرة الخضراء في
ليلة من خشب الله الى خشب الناس . ولكن ما ذنبُ

(١) هذه القطعة من انجيل مرقس وقد ترجمناها من

عربياتهم الى عربيتنا

الشجرة المسكينة اذا لم يكن موعدَ فاكهتها ويريدها المسيح على غير طبيعتها ؟ قالت فان الذنب في اخضرارها كأنها ذاتُ ثمر . قلت اوليس للثمر وقتٌ قد مضى وهل الشجرة الا شجرة ؛ أم تحسبونها تُدير الشمس وتقلب الفصول لتعقدَ الماءَ ثمرًا حلواً ؟ ألا ان الشمس تدور ثم يحين الفصل ثم ينعقد الماء ثم يملو التين فينضج فيؤكل . قالت انك لتجبيء بالدواهي فماذا تقول انت ؟

أقول اعلمي أن فيلسوفاً يونانياً كان قبل المسيح ^(١) وكان يرى ان تلك الشجرة ومثلها مما سفلَ وعلا من قدم الكون الى ذؤابته انما هي الارادة البشرية بعينها الا أنها لم تكتمل لعلّة ما ، فكأن العالم عند هذا الفيلسوف إنسانٌ غيرُ سويٍّ ذهب طوله في عرضه فلم يُعرف شيءٌ من شيء ، وكان الانسان هو العالم الذي نما وتم . فالشجرة ان لم تكن من الارادة كما يقول هذا الفيلسوف فهي من الحياة وقد التقى منها ومن المسيح انسانٌ حي وشيء حي ؛

(١) هو سيدوكليس كان قبل المسيح باربعة قرون

والتقيا على خلاف انقلبت فيه الى حياة ذات إرادة، وإرادة ذات كبرياء ، وكبرياء في رُعونة يختال بها جذعٌ خشبي غائر في الارض على جذع روحاني باسق في السماء ؛ وتتيه عُشْبَةُ الطين على زهرة الفلّك الأعلى . والكبرياء كانت من شرها أول ما تمرّد به الشيطانُ على الله ^(١) وأول ما لعن الله به الشيطان وحسبها من الشر أنها ذهبت بجميع حسنات شيخ الملائكة (كان ^(٢)) فهو يبعدها من لعنة الله في اعماق لا تنتهي ولا يزال فيها طاراً الى أسفل وما برحت هذه الكبرياء ثقيلةً على الارواح الصافية الكريمة ولو كانت ممن تنقّ له ، ولو كانت من شجرة تحييها الشمس ويقوم على حفظها ناموس الكون والمسيح لم يفرّ الى ظلها من حر بل الى ثمرها من جوع ؛ فلما ألتها بجوعه تلقّته بزهُوها . قال لها بلسان قلبه العظيم هاأنا ذا ، فقالت له وهانأذه أخرى غير التي تريد . ظل جائعاً وظلت خضراء تتموّج لعينيه شبعاً ورياً ما تستحي ولا تتواضع بحمّاف ورقة منها

(١) حين تكبر فاني السجود لآدم (٢) أي سابقاً

تسقط عذراً عند قدميه . كانت في غير حالته القائمة بروحه
وكان في غير حالتها القائمة بروحها ؛ فكل ذنبها في روحه
هو وفي حالته هو وفي حسه هو ؛ فاشمأز منها فيبست
ولعنها فأتت ورآها ظلاماً فأطفأ سُنَّتَهَا الى الأبد . هكذا
يفعل الروح الأقوى بالروح الأضعف حين يختلفان
والمتكبر دائماً هو الأضعف وان ظهر انه الأقوى ؛ فلو
صدمته روحٌ عاتية بما فيها من بغضه وازدرائه لوفعت منه
موقع أظلاف الفيل من النملة الضعيفة ؛ فان فوق كبرياء
المخلوق ناهٍ موسماً ثابتاً من كبرياء الخالق ما لجأ اليه مكسوراً
القلب بكاسر قلبه الا وضعه والله ثَمَّتَ موضعَ حبة القمح
تحت حَجَرِ الطاحون الضخم لا يُبقي ولا يذر

« * »

وكنيت اتكلم وكأني مُرْتَفَقٌ تحت جناح جبريل كما
قلت وان الكلام لينفذ الى دهبها مع أنفاسها فما أتيت على آخره
حتى رأيتها قد اصفرَّت وارتاعت وقالت ويلى منك فهل
أنت مسيح جديد ؟ إني لأسمعُ الفاظك هذه وكأني اسمعُها

من يوم بعيد لم يأت بعدُ ولكنه أتٍ لانه يتكلم ويقول
بكلامه أنا موجود وان كنت بعيداً عنك . فأردت أن
أخفف عنها فرفعتُ طرفي الى خيمتنا وقلت : اسمعي
يا شجرة التين فانفجرت ضاحكة وقالت كم قلت لي
أنتِ دُويهيَّةٌ وزعمتَ ان هذا يسمونه تصغير التعظيم فأنتِ
دُويهيَّةٌ ان . فضحكتُ وقلتُ أو استِ معي

لقد حلَّ ذلك اليوم الذي سمعته يتكلم في الغيب ،
وآه من تلك اللويهيَّة ومن كبريائها وفلسفتها . آه من فتاة
تقول لك فيما تقول : ان أمي ولدت نفسي ونفسي هي ولدتني
قلا ترجُ أن تصيب في طباع أنثى والا كُنت ضالاک ايها
الحبيب . . . قلتُ فاذا بقي من معنى ايها الحبيب اذن ؟
فضحكت من عبوسها . وهي حين تتفلسف تُظلملها
مُحِبُّ من الفكر فتراها مدغامت فيها ولا يبقى لك أمل
الافي وميتس من ابتسامة يامع أحيانا كما تنظر للشمس
من فتق في السحاب يتسرق ثم يُسرع فيلتئم . أتدري
ماذا كان جوابها ؟ قالت خُفنا لهذا الحب من قبل يومنا ؛

وبعد يومنا اذا جاء كان يومَ بغض منك أو مني . قلت
 فمعنى « أيها الحبيب » في فلسفتك أيها البغيض . . . ؟
 قالت كلا كلا لا أدري ولكني أتكلم بلغة النطق ؛ وفي
 ناموس الفهم الانساني لغةٌ غيرها وفي ناموس الأقدار لغةٌ
 غير اللغتين . فانك لتراني ولكني أرى في أخرى والأخرى
 ترى فيها ثالثة . هذا أسعربه ولا أدري كيف أصفه فان
 عبَّرتُ عنه بلغة النطق انقلب كلامي عن جهته فصار من
 كلام الموسوسين والمُرورين والمجانين . أنا أحسن الكلام
 مع السماء وأنت تحسن الفهم عن السماء ، فاجتي اليك هي
 أن تتكلم في روعي وحاجتك الي هي أن أتكلم في قلبك
 . . . أستطيع أن تلبسني جلدك ونخيطه علي . . . فقلت
 . مهلاً مهلاً انك أنت الآن لا تتكلمين ولا التي فيك بل
 تلك الثائمة . . . واذا كان استهلال كلامها سلخ جالدي . . .
 وهنا وضعت يدها على فها وجعل يغتضجها ويتكسر
 على صلابة قابها تكسر قطع البلور الثمين في غير نظام
 ولا مهمل

ولما سكنتُ مما غَشِيها قالت أنت برهَمي ؟ قلت
وهذه شرٌّ من الأولى فهل خطر لك أني أعبد بقرة ؟ قالت
وهذه شرٌّ من الاثنتين فقد انتقمتَ مني بلطف
ولكن ألا تعرف ان الحب في رأي اكثر الناس كزواج
البراهمة ، اذا اقترن الرجلُ منهم بامرأة فقد أعدّها للحرق
ان بقيت بعده وللموت ان بقي بعدها ؟ قلتُ أعرف هذا
في عقد البراهمة وحسبُ فلا تنزُبُ بك الفلسفةُ نزوها فلسنا
في النار ولا في دخانها . قالت وما تقول في نار تعرُفها ؟
ولفظت هذه العبارة بصوت خرج يرتجف كأنه جاذبٌ
قلبها وفرَّ اليَّ فراراً ؛ وأنزلتُ في مقطّعيها نبرةً استفهام
حلو رقيق يمازجه شيء من التوبيخ في منتهى الظرف

فأطرقتُ شيئاً وقلت اسمعي ؛ ما أنتِ محاطةٌ بست
جهات بل بست علامات استفهام ؛ وان فلسفتك هذه
جعلتك ما لا أدري الغزأ في إنسانة أم إنسانة في لغز ؛
وعلى أيّهما فان العمر يذهب في فهمك واحتاجُ بعد الى
عمر جديد في حبك وان تبعثني فلسفتك من قبوري يوماً اذا

سُوِّيتْ بِجَسَدِي الْحَفْرَةَ . لَقَدْ وَضَعْتَ حَسَنُكَ فِي طَرِيقِي
مَوْضِعَ الْبَدْرِ يُرَى وَيَحَبُّ وَلَا تَنَالُهُ يَدٌ وَلَا تَعْلَقُ بِنُورِهِ
ظُلْمَةُ نَفْسٍ ، لَكِنْ كِبْرِيَاءُكَ نَصَبْتَكَ نَصْبَةَ الْجَبَلِ الشَّامِخِ
كَأَنَّهُ مَا خُلِقَ ذَلِكَ الْخَلْقَ الْمُنْتَثِرُ الْوَعْرَ إِلَّا لَتَدُقَّ بِهِ قُلُوبُ
الْمُضْعِدِينَ فِيهِ وَتَهْتَزُّ أَجْرَاسُهَا اهْتَزَازًا عَنِيفًا مُتَّصِلًا فِي
حِبَالِ الْإِنْفَاسِ وَالزَّفَرَاتِ . كَوْنِي مِنْ شَيْءٍ أَوْ مَا شِئْتَ ،
خَلَقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صَدْرِكَ أَوْ مِمَّا يَكْبُرُ فِي صَدْرِي . كَوْنِي
ثَلَاثًا مِنْ النِّسَاءِ كَمَا قُلْتَ أَوْ ثَلَاثَةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَلَكِنْ
لَا تَكُونِي ثَلَاثَةَ آلَامٍ . انْفُجِّي نَفْحَ الْعِطْرِ الَّذِي يُلَمَسُ
بِالرُّوحِ وَاطْهَرِي مَظْهَرَ الضَّوِّ الَّذِي يُلَمَسُ بِالْعَيْنِ وَلَكِنْ
دَعِينِي فِي جَوْكِ وَفِي نُورِكَ . اصْعَدِي إِلَى سَمَائِكَ الْعَالِيَةِ
وَلَكِنْ أَلْبِسِينِي قَبْلَ ذَلِكَ جَنَاحَيْنِ . كَوْنِي مَا أَرَادْتَ
نَفْسُكَ وَلَكِنْ أَشْعِرِي نَفْسَكَ هَذِهِ أَنِي إِنْسَانٌ

« * »

أَيُّ حَبٍّ هَذَا ؟ لَقَدْ امْتَحَنْتُ مِنْهَا بَفْتَاةً أَبْحَثُ عَنْهَا
فِي النِّسَاءِ فَلَا أَجِدُهَا وَأَبْحَثُ عَنْهَا فِي نَفْسِهَا فَلَا أَجِدُهَا ؛

وكل تاريخ هواها كالرحلة في أغفال الأرض ومجاهلها^(١) :
 يأخذ الرحلة رجليه بالمشي على قبر في عرض الصحراء
 ويكون له من الحذر في كل بادرة عقل ؛ ولا يزال
 يلفظه مجمل الى مجمل ، ولا يزال يتتابع في تلك الارض
 التي تقول سالكيها^(٢) حتى يقطع الى معروفها منكراتها
 جميعاً



(١) الاماكن المجهولة والمغفلة (٢) تهاكهم ببعداها ومصاعبها

الرسالة الخامسة

﴿ أيام لبنان ﴾

فَجَرُّ الهوى من ثغرها البسَامِ
مُتَطَايِرُ اللَّمَحَاتِ فوق ظلامي
رَفَتْ عَلَيَّ ظِلَالُهُ وَتَنَفَّسَتْ

بَنَدَى الشَّبابِ على فؤادي الظامي
ذَهَبَتْ هُمُومٌ حَرَّتْ في أسماها

وَأَتَتْ هُمُومٌ ما لهنَّ أَسامي
في حُبِّها وَالْحُبُّ في بِأَسَائِهِ
أَهْنَا لِأَهْلِيهِ من الإِنْعَامِ
حَسَنَاءُ صَوَّرَهَا الهوى في صورة

كَأَدَّتْ تُعِيدُ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ
في مَنْظَرِ الْأَقْصَارِ الْمَحْجُوجِ
وَتُحْسِنُ في لمسِ النسيمِ غرامي

ولكهرباء الحب من لحظاتها
 سيالها المتدافع المترامي
 ينساب في مجرى دمي متلهباً
 فكأنه تيار بحر ضرام
 يا كهرباء الحب رفقا انما
 هذي «الأنابيب» الضعاف عظامي

« * »

ذهب المنام ومن يدكره الهوى
 قرأ فلا يلتقي الدجى ببنام
 يا ليل أنت صحيفة ملء الفضا
 وما بها سطر من الأحلام
 في كل نجم من نجومك بسمة
 وقفت تشير الى الهوى بسلام
 وكان أفقك والنجوم سطوره
 تاريخ ما أسلفت من آياتي

مُتَالَّقُ الْجَنَبَاتِ مَشْبُوبُ الضِيَا
 خَضِلُ النَّدَى صَافِي الشَّمَائِلِ سَامِي
 يَا لَيْلُ أَيْنَ الْفَجْرِ أَيْنَ زَمَامُهُ
 أَيَّامَ يُمَسِّكُهُ الْهَوَى بِزَمَامِ
 أَيَّامِ « لُبْنَان » وَكَانَتْ سَاعَةً
 غَفَرْتُ ذُنُوبَ الدَّهْرِ فِي أَعْوَامِ
 غَفَلَ الزَّمَانُ هُنَاكَ مِنْ غَفَلَاتِهِ
 فَفَرَدْتُ لِلذَّاتِ مِنْ آلَامِي
 وَقَطَعْتُ مِنْ ثُوبِ الشَّبَابِ عَصَابَهُ
 وَرَبَطْتُ مِنْ جُرْحِ الْحَيَاةِ الدَّامِي
 وَمَضَيْتُ أَصْعَدُ ذِرْوَةَ فِي ذِرْوَةِ
 كَالنَّجْمِ مُشْتَمِلًا عَلَيَّ غَمَامِي
 فِي كُلِّ مَنْزِلَةٍ وَكُلِّ ثَنِيَّةٍ
 يَضَعُ الْهَوَى قِرَاءَ يَضِيءُ أَمَامِي
 وَعَلَوْتُ حَتَّى عَنْ أَمَانِي الْحَيَا
 ةِ وَغَبْتُ حَتَّى غَبْتُ عَنْ أَوْهَامِي

وسموتُ في أفقٍ يذوب نسيمُهُ
 شغفًا إذا ما اهتزَّ غصنُ قوامِ
 أفقٍ يُطلُّ على الحياةِ وهمِّها
 إطلالِ مغفرةٍ على الآثامِ
 لبنانُ فنٍّ في الطبيعة قائمٌ
 دقتْ محاسنُهُ على الافهامِ
 متكبرٌ حتى على إكبارها
 متعظمٌ حتى على الإِعظامِ
 قِمَمٌ تَغَطَّى بالسَّماءِ كأنها
 في الكونِ أمثلةٌ على الإِهامِ
 شُمٌّ فَوَارِعٌ علَّمتْ أبناءها
 عند الحوادثِ كيف رَفَعُ الهامِ
 ومدارجُ تنبيكٍ مُنْجَدِّراتُها
 أن الحياةَ مَذَاهِبٌ ومِرامِ
 تركتُ بنيتها أينما حكمتُ بهم
 نفَّذُوا على الأسبابِ كالأحكامِ

وترى هنالك كلَّ شيءٍ ناطقاً
 أن لا يعيش هنا سوى المقدامِ
 جبلٌ تمنع في الطبيعة عزّةً
 ومهابةً كالناب في الضرغام
 يتقلب التاريخ من أبنائه
 في الغرّ بين فوارسٍ وكرام
 فأنور لم يبرح على أرجائه
 من مبسمٍ أو من فرندٍ حُسامِ
 جبلٌ اذا وصفوا الرواسي لم يكن
 أبداً لصدر الارض غيرٍ وسامِ

« * »

يا نفحة الجنّات من تلك الرّبي
 كم ذا يطولُ تلهفي وهيامي
 بيني وبينك بحرٌ دمع يرتمي
 من عين مهجورٍ وبرّ خصامِ

لهفي على ريح الشَّامِ ونظرةٍ
 من أرضها لهوى هنالك نامي
 أرضُ بنوها الصَّيدُ كيف تَواثَبُوا
 عَنَتِ الحياةُ لهم بكل مَرام
 حملوا النُّبوةَ وهي روحُ بلادهم
 ومضوا بوحى العزم والإقدام
 فهُمُ بأي الأرض حلَّ نزيلهم
 قومٌ قضت لهم السما بمقام
 أرضُ كساها الوحيُ جِوًّا عاطرًا
 وبني لها أفقًا من الأنعام
 اللهُ زينَها بكل بديعةٍ
 باحت بأسرار من الإلهام
 فهنا يُريك الحسنُ صفحةَ شاعرٍ
 وهنا يُريك صحيفةَ الرِّسَامِ
 والحسنُ مختلفُ المواطنِ في الوردى
 لكنما حسنُ الطبيعةِ « شامي »

الرسالة السادسة

تقول أيها العزيز : « فصِفْها لي على حَقِّها ^(١) وصفها على هواك بما يُزَخِّفُ الهوى من كَذِبِهِ وانقلها اليّ من مرآتها نقلاً ووافني عنها برسالة كليله من ليالي القمر في الصيف تتنفس كل ساعة منها برائحة الفجر » . آه ما كان لي ولهذا البلاء الجميل ... فان عهدي بهذه النفس أنها مُصَمِّمةٌ حكيمةٌ اذا فزعت تفرع الى ضرس حديد واذا همت أمضت عزيمتها فما يَنْدُ منها شيء الا ضَبَطَتَهُ ^(٢) وأحكمته ؛ وان عهدي بهذا العقل أنه نافذ دَهيٍّ ذو حرب وسِلم في أساليب الحكمة والسياسة . ولكن الانسان يُبتلى ثم يُبتلى ليعرف ان كل ما فيه ان هو الا وديعةُ الغيب فيه ؛ فما شاء الله نفع وان كان سبباً من الضر ، وما شاء الله ضرٌّ وان لم يكن الا نفعاً ؛ والاسباب كالعمر لا يملك الانسان

(١) على حقيقتها (٢) لا يفلت منها الا أمسكتها والضررس الحديد كناية عن العقل والرأي القوي

استمراره لحظةً واحدةً وقد يستمر على ذلك ما يستمر
 ان وصفها لهم جديد وانها الآن في نفسي غير من
 كانت فالكتابة عنها ضَرْبٌ من العَنَتِ كالترجمة من لغة
 الى لغة فلولا كان ذلك والهوى مُتَّفِقٌ ؟ ولكن يا شمس
 السماء مُجَيٍّ من ريقك على هذا القلم حتى ينسج وشيئه
 وزُخْرُفُهُ واجمعي في هذه الضعيفة نورَ الابتسام وماء الدمع
 وأخرجي منهما ما يخرج النباتُ من الضوء والماء زهراً
 وثمرًا وورقًا أخضر .. وخطبًا يابسًا بعْدُ . . .

« * »

أما إنها فِتْنَةٌ خلقت امرأةً فاذا نظرتُ اليك نظرتها
 الفاترة فأنما تقول لقلبك اذا لم تأت اليَّ فانا آتية اليك ؛
 خلقت مقدرةً تقديراً كأن كل شيء فيها وضع قبل خلقه
 في ميزان الجمال ووُزن هناك بأهواء القلوب ومَحَابِئِهَا . وكأنها
 بعد أن تم تكوينها أرسلت الملائكةُ في دمها نقطة عطر
 فهي تَنْفُحُ على القلوب برائحة الجنة . وهي ابدًا تشعر أن في
 دمها شيئًا لا يُوصَفُ ولا يُسمَّى ولكنه يجذب ويفتر فلا

نراها الا على حالة من هذين حتى ليظنها كلُّ من حادثها أنها
تجبه وما بها الا أنها تفتنه

رشيقةٌ جَذَّابةٌ تأخذك أخذ السحر لان عطر قلبها
ينفذُ الى قلبك من الهواء ؛ فاذا تنفَّستَ أمامها فقد عشقتها
وتراها ساكنةً وادعةً أمام عينيك ولكن قلبك يشعر
أنها تهتز فيه وتضطرب فلا يزال قلقاً نافرأً يتملَّمل

أما انوثتها فاسلوبٌ في الجمال على حدة ؛ فاذا لقيتها
لا تلبث أن ترى عينيك تبحثان في عينيها عن سر هذا
الاسلوب البديع فلا تعثر فيهما بالسر ولكن بالحب . واذا
كنت ذكياً فأضافت الى ما فيها من بواعث الهوى إعجابها
بك فقد أحكمت لك العقدة التي لا حلَّ لها

ومهما تكن من رجلٍ باذخٍ فانك بازاها ترى كيف
ينقاد جزء من الطبيعة لجزء من الطبيعة فلا براة لك ولا
تُخرج من حبها ؛ ومهما تكن من جبل شاهٍ فانك تهافتُ
تحت أشعة عينيها كما تتدحرج جبالُ الثلج في القطب اذا

زاحها عما حولها شعاع رقيق من اشعة الشمس تنهد فيه
نسمة ضعيفة

وهي في لونها ذاتُ بياضٍ أسمرٍ مُحمرٍّ وَضِيٍّ يَغْتَرِقُ
العينَ حُسْنًا وكأنَّ ائتلافَ الألوان الثلاثة فيها جملةٌ مركبةٌ
من لغة النور والهواء والحرارة ، معناها الجمال القوي
الصحيح . هيفاء ملتفةٌ لم يَهْبِطْ جسمُها ولم يَرْبُ (١) تملأُ
قلبك كما تملأُ ثوبها . وتمايلُ أعطافُها فلو خلق غصنُ البان
أمرأةً لمشي يَتَهَادَى في مثلِ مشيتها . وتنظر نظرة الغزال
المدعور ألهمَ أنه جميل ظريف فلا يزال مُسْتَوْفِزاً
يَتَوَجَّسُّ (٢) في كل حركة صائداً يطلبه وتنفجر
لعينيك في حركاتها وكلماتها كما يتفجر امام الظمان ينبوعُ
الماء العذب . وما رأيتهَا مرةً الا أحسستُ نفسي تُصورها
تصويراً كأن الشمس والقمر قد صنعاهما في الحسن صنعةً
جديدة . وتَذْتَجِلُ هذه الظبيةُ أحياناً كبرياء الأسد فيكون

(١) لا سمنية فضفاضة البدن ولا هزيلة نحيلة

(٢) يخشى والغزال دائماً كالمدعور

ذلك منها في باب الدلال مخاشنةً بين طبعي وطبعها تَبْتُبُهَا
 في الحب قوةً تبلغ قوةَ الافتراس في أسد جريح
 تريد الهوى وتعرفه وتنفخ في ناره وتذُكي ضرامها
 بما لا يحمد ولا ينطق، ولكن.. ولكن لترى من كل
 ذلك كيف أحترق

تلك هي أيها العزيز؛ من أيّ الجهات اعتبرتها لا ترى
 أوصافها تنتهي الا كما تنتهي أطرافُ الواحة الخضراء في
 رمال كالأقيانوس الجافِ تُفَحِّمُكَ الْمَنَافِ (١) وَتَبْتُ
 لك مصايد الموت في كل جهة ، ولا يخرجك منها الا
 أن يكون عمرك أوسعَ منها ؛ ومع ذلك فلا تخرج الا
 حياً نصفه موت او ميتاً نصفه حياة . ان عاشقها المسكين
 في كل ما يناله من حبها ليمشي الى الجذب بخطوات
 خضر تمدُّ عليه واحدة واحدة ؛ فهنا نبع يروي وهناك
 روضة تنفّس وشمَّ سَرَحَةً تَفِيءُ بظلمها ؛ وما شئت من

متاع أحسنَ ما تنظر ومن رَوْحٍ أَجملَ ما تبتغي ومن نعمة
أبدعَ ما تتحقَّى بك النعمة ؛ ثم تنتهي من الواحة لانك
كنت تندفع ولا تحس ويسارُ بك ولا تدري ؛
وتنتهي بعد الفضاء الجميل الاخضر الى ذلك الفضاء الخفيف
الابيض بياضَ عظام الموتى فضاء الصحراء المهلكة التي
تقول لك أولَ ما تتلقاك : ليس من يحس بك ههنا حيث
سئت فت

كانت، والله قَدَرًا مقدورًا لو علمتُ كيف تنتهي
لاتقيتُ كيف بدأتُ ، واكني جئُها وأنا أقدر ان أراها
كما هي وأدعها كما هي فاذا القدرُ مخبوء فيها واذا هو قد طلع
عليَّ في الحاظها واذا أنا أراها فلا أدعها . وكان طريقي اليها
بين رؤيتها وتركها ، أبدأ وأعود ؛ فلما تخطيت أولها لم
أر لها آخرًا ولما بدأتُ عدلتُ بي الى الناحية التي كنتُ
أجهلها فلم أدر كيف أعود

((*))

وهي شاعرة تغمُرُ أفقًا واسعًا بأشعة خيالها ، ولوان

نجمة سألت الله ان يخلقها امرأة فتزل على الشعراء بوحى السماء وخيال السماء وأسرار السماء لكائناتها . غير أنها لا تحسن عربية الكتابة الفصحى فاذا كتبت قليلاً ما تكتب ^(١) اختبأت في مثل البحر اللجج ففرت الى الساحل ورقصت هناك على رشاش الموج . وهي تالم لذلك النقص فيها وما أظرف ما تراه في سببه اذ تقول : ان المصري والسوري ومن يشبههما قد بلغوا من ضعف القومية التاريخية بحيث يريد اكثرهم الكمال لشخصه لا لتاريخه ، ولنفسه لا لأمة ؛ فينسل أحدهم من تاريخه ويغامر في آداب امة حية كالفرنسية والانجليزية ويستفرغ فيها كل همه فيدرك في خمس سنوات ما لا يأتيه به التاريخ المصري او السوري في خمسين سنة لو بقي في أمته وادعاً يتربح نصبح تاريخها . والشرقي اذا خرج من الشرق أحسن

(١) يستعمل هذا التركيب للندرة والعرب يستعملونه في نفي أصل الشيء وفي القرآن الكريم « فقليلاً ما يؤمنون » اي لا يؤمنون أصلاً وهو اعجاز عجيب لمن يتأمله

أنه ترك وراءه بلاد القبور والمدافن والجثث المحنطة
 واستقبل بلاداً أصبحت الطبيعة فيها أسرع من أهلها في
 العمل للحياة والأحياء فهم يخدمون نواميس الكون
 لتخدمهم على الأرض لا في السماء . وكانت اذا انتهت الى
 مثل هذا قلت لها انك لتتكلفين أن تجعلي للأنهية حدوداً
 اربعة ... بل اربعة ذات قياس ومساحة والافبتي اوربا
 تمثل ما يلي الشرق منها اربعين سنة في جد السياسة
 وهز لها فانك والله لا ترين منهم يومئذ الا الزوج البيض ...
 وكانت تقول ما أعجزني في أجناس الكتب الا كتب
 اللغة العربية ؛ لقد أحضرت شيخاً يدارسني كتاباً منها
 فكانا كتابين ... الذي أراه هو الذي أسمعته والذي
 أسمعته هو الذي أراه . ثم غرق في الضحك وتقول في
 كلام خريف كأنه يضحك ضحكا آخر : فأنا والله في حاجة
 لا لتقان هذه اللغة الى عمامة وعشرين سنة في الأزهر ...

قلت لك إنها شاعرة تملأ سماء من السموات فتكاد
لا ترى فيها من جهات الارض شيئاً^(١) كأننا تركت
المادة الانسانية في أبويها وخرجت من ذلك الحطب
والورق مخرج الزهرة الناعمة ؛ بذية من اللون
وجسماً من العطر ونسيجاً متماسكاً من الشعاع . خرجت
عاطفة مولودة تكبر وتنمو لتبلغ في العواطف سن
شباب القلب ؛ لا يتصل بروحها شيء ، الانبت واخضر ثم
نور وأزهر^(٢) كأن طبيعة الجمال خبأت في قلبها سر
الربيع . وهي الصافية كركة النسيم والناعمة كحامس الماء
والضاحية كطالعة الشمس ؛ فان غضبت بدلت النسيم
قيظاً والماء ظمأً والشمس الطالعة غيماً يلف نهار الحب في
ملء ليل أسود

ولا يستخرج عجبها شيء ، كما يعجبها الكلام المفتن
المشرق المضي بروح الشعر فهو حلاها وجواهرها وما

(١) كناية عن الطباع الحيوانية النفسية

(٢) نور أخرج النوار

لسوق حبها من دنائير غير المعاني الذهبية . فانها لا تباعك
صفقة يد بيد ولكن خفنة قلب على قلب

وما عسى أن أقول في فلسفتها واهتدائها الى موضع
السر من الأشياء ونزولها وراء الحجة الى الأعماق البعيدة
التي تغوص الحجة فيها واستبانة المشكل باللمح وتقليب
المعاني في أصابعها كأنها ملنة ما تحاوله ؛ وأخذها في
سبيل البرهان حين تجادل مأخذاً لا يقام له ، وإظهار
خيالها البديع في معان لا معة كما تتدنى عليها الشمس .
فلو كنا نقول بالرجعة^(١) لقلت إن (أرسطو) قد رجع
بفكره الجبار الى هذه الدنيا ليمارس حياة الأوثة ويتم
امراه كما تم من قبل رجلاً فينظم كمال الجنس في نفسه
على أن فلسفتها هذه قد جعلت من بعض قواها ذلك
الجمود الذي تستعين به على الحب « جود احساس
الكتب . . . » حتى ملأت نفسي بثل البحر ملحاً ومرارة

(١) مذهب يقول به الهنود وغيرهم فيؤمنون ان النفس
رجع الى الدنيا في جسد آخر لتستوفي كمالها

الجمال هبةُ الله فليس لامرأة فيه عمل . ولكن العجيب
أن أكثر ما يكون من عمل المرأة انما يكون في إفساد
هذه الموهبة كأن الجمال غريبٌ حتى عن صاحبه . تفسدها
بالجهل اذا كانت جاهلة وتفسدها بالعلم اذا كانت عالمة
وتفسدها بلا شيء ان كانت هي لا شيء

« * »

على أنها كانت تزعم أنها تبغض الفلسفة وأهلها
وتقول ينبغي أن تتحول الفلسفة الى شعر كالتراب زواله
ليستوي مخضراً فاذا هو لم يَنْبِتْ فاردم به المستنقعاتِ
واملاً منه الحفرَ وافتح فيه القبور ، والفاسفة وان كانت
من ضرورات الحياة والأحياء ولكنها عند بعض الناس
أعجبُ شيءٍ وعند آخرين شيءٌ عجيبٌ وعند الشعراء
لا شيءٌ عجيب أعرفُ العلم والمنطق ولكن الطباع
غير العقول فمن كان في سنّ العقل استطاع أن يحمل في
فلك رأسه السمواتِ السبع والارضَ ومن فيهنّ وذلك
هو الفيلسوفُ في سَمَتِهِ وهَيْبَتِهِ ووقاره كأن فيه مكتبةً

كبيرة أو كأن فيه ثقلاً خاصاً ؛ ومن كان في سنِ
الطبع فلا يعرف الا ما يميلُ اليه طبعه ، فان يكن هناك
منطق وعلم فهما في كيفية إيجاد الميل في نفسه ثم في
استخراج اللذّاذة الروحية لنفسه من هذا الميل ثم في تهئية
الاستمتاع من هذه الروحانية بكل ما فيها لكل ما فيه

هذا هو رأيها ولكن لا تنسَ انه رأيها الفلسفي
وانه لن يكون لها رأياً الا اذا كان لها بدياً^(١) فلسفة قد
جعلت من طباعها « جمود احساس الكتب » ؛ وههنا
المصيبة فانها ان عمّدت الى غيظك اختبأت نفسها في كتبها
وأوراقها ورأت هذه الكتب والأوراق دنيا غير الدنيا لها
أشخاص غير الأشخاص . أما بين الكتب والاوراق فهي
تحمل في رأسها السموات السبع والأرض فكيف تشعر بك
اذا أنت وحدك وقعت من السموات السبع والارض .. ؟
ولكن هل أنت الا أنت وحدك ؟

(١) أي قبل ذلك أو كما يقول الناس (أولاً)

الرسالة السابعة

نالتُ مني رسالتك يا عزيزي وما كنتَ ظالماً ولقد
 ظلمتَ . جاءني سطوركُ جَمَلاً جَمَلاً فانصبَّت على قلبي
 انصباباً فغَشِيَتْهُ من حروفها بموج أسود كالظلم . لك الله
 أن تحسبني هالِكاً وتقول إن رُوحِي محمومة بتلك الفتاة
 واني في حاجة منك الى علاج مُر ؛ الى بضع نصائح من
 الكينا

فأما إني محموم بها فلا وما أبمدت ؛ ولكن هي
 كانت أشبه بالهذيان في الحب ، وان الدهر ليحُمُّ مراراً
 عدّة متى ركبتَه الأقدار الملتهبة فاذا هو حُمَّ جاء من
 هذيانه نابغةً يهذي في رجل أو امرأة . وكان من علامة
 نبوغ تلك الفتاة أن فيها من برد الدنيا وسخونتها فيها
 والله برد شديد ويكفي أنه برد الفلسفة

قالوا جلّت الحقيقة أن تكون البشريةُ محلاً لتلقّيها ؛
 وأقول جلّت مرة أخرى أن تكون المرأة هي هذا الحل ؛

فما للمرأة الجميلة والفلسفة ؟ اللهم لا تبطل بها من النساء
الا كل ذات وجه غَضَنٌ ^(١) لا يضره ولا يضر أحداً ان
تزيد فيه كُرْبَهُ أو عُقْدَةً أو مسئلة حسائية

ولكن ما أجل الحقيقة تُرسل أشعتها وألوانها في
قلب الجميلة فتَمْتَدُّ لها فيه أرضاً من الشعاع ثم تهبط من
السماء الكبرى الى هذه السماء الصغرى جلالاً في جمال
وحقيقة على حقيقة وشعراً على شعر ومعنى يُوحى به الى
من هي تفسير له . تلك حقيقة الجمل الذي لا يُفهم الا
بخال عليه من امرأة ؛ وان من النساء تفسيراً بديعاً لهذه
الحقيقة ، ومنهن تفسير ناقص ، وبعضهن مغالطة في
التفسير ، وبعضهن مسخ ، وبعضهن كالتضريب والشطب
لا يفسر شيئاً ولا يصحح شيئاً ولكن يتحو ويطمس

« * »

سأتيك بها الآن من جهة الشعر وقد وصلت

(١) الذي فيه تكسر وتجمع من الهم والكرب و...
والفبح أيضاً

جَنَاحَهَا بِجَنَاحِي بَعْدَ مَقْدَمِهَا إِلَى مِصْرَ بِأَيَّامٍ وَخَرَجْنَا مُتَتَدِّينَ^(١) ذَاتَ صَبَاحٍ فِي طَرِيقٍ تَبَعَثَتْ فِيهِ الشَّمْسُ عَلَى النَّدَى وَعَلَيْنَا . كَانَتْ هِيَ صَبِيحًا فِي ذَلِكَ الصَّبَحِ وَقَدْ وَافَتْ كَعَادَتِهَا مِتْكَسِرَةً وَلِلْفَتُورِ مَسٌّ فِيهَا ؛ فَتُورِهَا النَّسَائِيُّ^(٢) الْبَدِيعُ الَّذِي يُنْبِئُكَ فِي لُطْفٍ أَيْ لُطْفٍ أَنْ عَوَاطِفُهَا تُبْعِدُكَ عَنْهَا وَلَكِنْ بِشَرَطِ أَنْ لَا تَبْتَغِدَ ؛ فَتُورِ فِي الْجِسْمِ تَظْهِرُهُ الْأَنْوَاثُ الَّتِي نَرَاهَا لِنُظْلَعُ مِنْهُ عَلَى سِرِّ الْأَنْوَاثِ الَّتِي لَا نَرَاهَا . وَفَتُورِ فِي اللَّحْظَاتِ تَدُلُّ بِهِ عَلَى أَنْ فِي قَلْبِهَا مِنْكَ شَيْئًا تُحِبُّ أَنْ لَا يَظْهَرَ لَكَ وَتُحِبُّ كَذَلِكَ أَنْ لَا يُخْفَى عَلَيْكَ

وَمَشِينَا بَيْنَ الْجَمَالِ الْمَنْظُورِ وَبَيْنَ الْجَمَالِ الْمَعْقُولِ وَهِيَ تَجْمَعُهُمَا فِي شَخْصِهَا وَمَعَانِيهَا عَلَى حِينٍ أَنْ الطَّبِيعَةُ لَا تَكْثُرُ رُضْيُكَ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ إِلَّا إِذَا عَرَضَتْ لَكَ أَلْفُ شَيْءٍ

- (١) مُتَتَدِّينَ غَبَّ النَّدَى وَهِيَ كَلِمَةٌ اسْتَعْمَلْنَاهَا قِيَاسًا وَلَا يَوْجَدُ فِي كُتُبِ اللُّغَةِ (٢) يَظُنُّ بَعْضُهُمْ أَنَّ النَّسَائِيَّ غَلَطَ وَصَوَّبَهَا النَّسَوِيُّ وَكَلَاهَا صَحِيحٌ وَالْأَوَّلَى أَفْصَحُ أَحْيَانًا

جميل . ثم فُتْنَا الى روضة على شاطئ النيل يُسافر النظر في
أرجائها وتَمَوْجُ للعَيْنِ كأنها بحر أخضر تهتزُّ عليه هنا
وهناك أمواجٌ ملوّنة من الزهر

وقلتُ فلا كُنْ آدمَ هذه الجنة اليوم . قالت ثم
تخرج منها كما خرج قلت فان الخروج لا يَأْزِفُ
الا عند غروب الشمس « كقانون المجلس البلدي »
فضحككت وحضرتها النفسُ الثالثة^(١) ثم مدت عينها
الذابلتين في شواطئ ذلك البحر الأخضر وقالت ألا
تظن يا آدم الصغير أن إدراك الجمال الطبيعي في الأرض
هو بقیة فينا من نفسية آدم الكبير أدنُ كان في السماء
وقد ورثناها عنه ؛ قلت لا أنظن ظناً بل أنا مُسْتَيَقِّنُ فأننا
طُردنا من الجنة ولكننا استرنا منها قدر ما وسع خيالنا ؛
فإدراك الجمال في أي أنسكاه وبأي طرفه انما هو متاعُ
الروح الانسانية على طريقتها الأولى في عهدها الاول .
إن هذا الجمال لم يُخلَقْ الا للحسِّ والتخیل فهو كلام بين

السما وباطن الانسان . قالت فأنت الساعة تكلمك السماء ؟
قلت وتقول لي قالت يا وئحي ماذا تقول لك السماء ؟
قلت فانها تقول ما لك منصرفاً عني بملك من ملائكتي
ونسيتَ حتى الشمس فلم تنظر اليها . قالت وجوابك ؟
قلت جوابي هو أن بعض الاسرار الالهية يُبحثُ في العلم
عنها وبعضها يكون من الجلال والاشراق والسمو بحيث
يُبحث فيها هي عن العلم ؛ فالسر السكامن في هاتين العينين
وفي هذا التكوين وفي هذه الطلعة هو الذي أبحث فيه عن
علم قلبي . قالت أنت شاعر يمدُّ قلبك شيئاً عجيباً وكثيراً
ما أحاول الابتعاد عن الفاظك . قلت ولمه ؟ أيكوز فيها
أحياناً صوتُ شفة يمسك ؟ فسكتت وجعلت تنكتُ
الأرض . ومضيتُ أقول : ان الجمل يَسْتَرُوحُ الماءُ ^(١)
مَسِيرَةً ميل وان بعض الحيوان يحمل اليه الهواء رائحة
ما ينجشاه او يحبه فكيف لا تحمل اليّ الفاظك عطر
خديك وشفتيك فتستحيل الفاظي كلها قُبَلَات ؟ ان السائل

(١) يشم رائحته خاصة فيه اذ خلق للظما

المسكين حين يدعو لمن يُحسن اليه يقبَلُ يده بالفاظ الدعاء لان كلماته لا ترتفع الى السماء الا بعد ان تمسَّ هذه اليد الكريمة المحسنة من كل لفظة دعاءٍ بقبلة شكر؛ والمحبة حين ينظر في وجه من يهوى نظرات كالالفاظ وحين يتكلم بالفاظ كالنظرات . . . وهنا لمست كتفي وانتهضت وقد أشارت الى زهرة حمراء كوجه المستحي ثم مشت اليها فاقتطفتها ورجعت ؛ فعلمت ان الكلام كان سقطةً مني فتداركته وأردت أن أقلبه عن جهته ولكنها تنهدت ثم قالت ما أحبيتك شخصاً بل شعراً ولا انساناً بل فكراً ، ولولا اسباب القدر التي باعدت ذاتَ بيننا . . . واخذ كلاهما يرقُّ ثم يرقُّ حتى خرج من معانيه كلام لا يُتلقَى الا بالشفاه ، وخيل اليَّ أن نسيم الروضة يرتقي عليها ليتخطف تنهدا فجعلتُ اتخطف هذا النسيم وكأنني لا أتنفسه بل أشربه شرباً

« * »

في تلك الساعة ذكرت هي الشعر وقالت انه يُخرجنا

الآن من حدود العمر الا رضى فان في هذا العمر ساعاتٍ لا تحسبُ منه إما لانها أبدعُ واجملُ فلا يُلائمها ، وإما لانها أقبحُ واسخفُ فلا تلائمه ؛ أفترأها أقبحُ وأسخفُ . . . ؟ قلت يا شاعرتي العزيزة إن اللغة أيضاً تخرج من حدود الأرض أحياناً فهي في مثل هذه الساعة في مثل هذه الروضة في مثل هذه الجميلة لا تُؤدِّي الا معنى الجمال والحب . اما الأقيح والأسخف فلا يدخلان هنا الا بعد أن نخرج نحن ويدخل غيرنا

قالت يا لك من « عقل جميل » كما يُسمِّي الفرنسيون ظرفاءهم . ثم تناولت من المثبنة ^(١) في يدها أنبوب قلمها الرصاصي المصنوع من الذهب وأخرجت دفترًا صغيراً . وغمست سنَّ القلم في ثناياها وفكرت لحظة ثم غمسته ثانية ثم كتبت في طرَّة الصفحة هذه الكلمة « الشعر » . ونظرت اليَّ باسمَّة وقالت خذ هذا القلم واكتب كلمة صغيرة في الشعر لا نقلها الى الفرنسية في مقالة لي

(١) المثبنة كيس تحمله النساء تضع فيه بعض اداة الزينة

آه لو ان الكهرباء اجتذبت القلم من يدها ما كانت
أسرع مني في اختطافه . وجعلتُ أغمره في شفتي مرة
بعد مرة بعد مرة ولا اكتب شيئاً وهي تضحك وتقول
مالك لا تكتب ؟ فاقول هكذا اعتدت في المدرسة
وكنت بليداً

ثم كتبتُ ولكن بعد أن خالط في طعمُ الرصاص
من كثرة ما غمرتُ القلم وكتبتُ وانا اشعر
بأنفاسها وعطرها ومعاني حظها يتحولن في نفسي الى كلمات :

« * »

ما هي العاطفة المبتاجة في نفس الانسان اهتياجاً لا
يُريه الحياة أبداً الا اكبراً او أصغر مما هي ؟

ما هو المعنى الساحر الذي يأتي من القلب والفكر
معاً ثم لا يأتي الا ليحدث شيئاً من الخلق في هذه الطبيعة ؟
ما هو ذلك الأثر الالهي الكامن في بعض النفوس
مُسْتَكِنًا يتوثب بها ويُحاول دائماً ان يعلو الى السماء لانه
غريب في الارض ؟

وما هو الشعر ؟

هذه الاسئلة الأربعة يختلف بعضها عن بعض وينزع كل منها الى مَنزَع ولا جواب عليها بالتعيين والتحديد في عالم الحس لان مَرَدَّها الى النفس والنفس تعرف ولا تنطق ؛ وشعورها إدراك مخبوء فيها وهي نفسها مخبوءة عنا . ولكن العجيب أن كل سؤال من هذه الأربعة هو جواب للثلاثة الباقيات ؛ فالعاطفة هي ذلك المعنى وهي ذلك الاثر وهي الشعر . والشعر هو العاطفة بعينها وهو الاثر وهو المعنى ؛ وهلم جرا

« * »

سُبْحَانَكَ يَا مَنْ لَا يُقَالُ لغيره سبحانه . خلقت الانسان سؤالاً عن نفسه وخلقت نفسه سؤالاً عنه وخلقت الاثنين سؤالاً عنك . وما دام هذا الانسان لا يُحيط به الا المجهول فلا يحيط به من كل جهة الا سؤال من الاسئلة ؛ ولا عجب إذن ان يكون له من بعض المسائل جوابٌ عن بعضها

هذه هي الطريقة الالهية في دقائق الأمور ، تُجيب
الانسان الضعيفَ عن سؤال بسؤال آخر
ولقد اُكثروا في تعريف الشعر وجاءوا فيه بكل ألوان
التول . ولكن كثرة الأجوبة جعلته كأنه لا جواب عليه .
بالغوا في تقريبه الى الروح فأجروا في حده كل عناصر
الجمال والفضيلة ودلوا بالخيال على حقيقته اذ رأوا انه لا يدل
على حقيقته الا الروح وحدها وهي غامضة فهو غامض
وتفسيره في مئة تفسير

الشعر وراء النفس والنفس وراء الطبيعة والطبيعة من
ورائها الغيب ؛ فلو جمع ما قيل في الشعر لرأيت يصلح في
اكثر معانيه أن ينال في النفس ثم لرأيت مفهومًا من جهتنا
وغير مفهوم من جهته . وما الشعر الا أول المعاني المبهمة
والدرجة الأولى من سلم السماء الذاهبة الى عرش الله ؛
وهو كذلك أول ما في الانسان من الانسانية

في هذا الكون مادة عامة يسمح الكون فيها وتنبعث
من قوة الله واراדתه وهي دائمة التركيب والتحليل ايجاداً

وفناء ؛ وما أرى الشعر الا تأثير هذه المادة في بعض النفوس العالمة الكبيرة التي تصلح أن يسبح خيال الكون فيها

بهذه المادة تمتزج نفس الشاعر بكل ما تراه ؛ ومن هذا الامتزاج يتكون الشعر . فاذا أردت أن تتحقق ذلك فانظر الى نفس الشاعر العظيم تمتزج بالجمال الرائع في نفس الجميلة ، وبالحب في نفس الحبيبة ، وبالطبيعة في المعنى الطبيعي ؛ وانظر اليها حين تتصل بأسباب اللذات والآلام ؛ حين تُثيرها اللحظة والابتسامة ، ويهيجها الصمد والاعراض ، ويحزنها الحزن ويسرها السار ؛ حين تخترق بالفكر حجاب هذه الانسانية وتثبُ بالعاطفة فوق الطباق العالما وتستمدُ من الشعلة الأزلية لونا من ذلك الضرام الذي استعل به في أصل الخلقة كل كوكب يتلهب

« * »

ما أشقى نفس الشاعر ؛ فانها لسموها تجهل ما هي من هذا العالم فلا تزال تمتزج في أرضنا بكل ما يحزنها ويسرها

لتعرف ما هي ؛ ولن يكون الشعر العالي أبداً الا
التقاء بين نفس سامية وحقيقة سامية . ومن ثمَّ كان
الشاعر العظيم يُحب ويُبغض ويضحك ويبكي ويرضى
ويغضب ؛ ولا يُحسُّ من كل ذلك وما إليه الا أن السماء
تحكم من داخله على الارض

وعلةُ شقائه هي نفسها علةُ سروره بشعره وان نثرَ
هذا الشعر من عينيهِ بكاءٌ ودموعاً ، وان النَجْرَ به أحزاناً
والأما قاتلة

كل النوابع لا يُرضيهم الا أن يرتفعوا فان من كان
له جناحان للطيران لا يُسر الا اذا طار ؛ وما جناحا الطائر
الا كتابان من الله يملكه في احدهما على الشرق وفي
الآخر على الغرب ؛ يَئِدُّ أن الشاعر لا يُرضيه أن يرتفع
عن الارض وحدها فان خياله لا يفع الا ساجداً عند
عرش الله ؛ وذلك سبب آخر من أسباب شقائه في
الدنيا ، فايُّما شرَّ مسَّ كبرياء روحه وأمسك من جناحيها

رَأَيْتَ أَثْرَهُ فِي نَفْسِهِ الرِّقِيقَةَ وَكَأَنَّما صَدَمَهُ الصَّدْمَةُ تَرْمِي
بِهِ مِنْ فَوْقِ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ فِي سَقَطَةٍ وَاحِدَةٍ
يَا لِلْعَجَائِبِ إِنْ سُرُورَ الشَّاعِرِ الْمُلْهِمِ سُرُورُ نَفْسِهِ
وَحَدَّهَا وَلَكِنْ حَزَنُهُ حَزَنُ الْعَالَمِ كُلِّهِ

« * »

قِيلَ فِي أَحَدِ الْقَدَّيْسِينَ إِنَّهُ مَا وَجَدَ السَّبِيلَ إِلَى الْكَمَالِ
الْإِنْسَانِي الْأَعْلَى وَلَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَكْمَلَ حَتَّى كَانَتْ لَهُ نَفْسُ
شَاعِرٍ عَظِيمٍ فِي جِسْمٍ فَقِيرٍ بِأَسْفَلِ مَحْزُونٍ ، فَضَرَبَ اللَّهُ بِتِلْكَ
النَّفْسِ عَلَى هَذَا الْجِسْمِ وَبِهَذَا الْجِسْمِ عَلَى تِلْكَ النَّفْسِ
وَاسْتِضَاءَ مِنْهُمَا الْقَمَرُ الْإِنْسَانِي فِي لَيْلٍ حَالِكٍ مِنْ سَوَادِ
أَحْزَانِهِ وَهَمُومِهِ

فَوَاهِماً لَكَ يَا شَعْرَ الشُّعْرَاءِ ؛ أَنْتَ النِّقْصُ كُلُّهُ مَعَ
لِذَاتِ الدُّنْيَا وَأَنْتَ الْكَمَالُ كُلُّهُ مَعَ آلَامِهَا . « انْتَهَى »

« * »

وَاسْتَوْعَبَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ يَا عَزِيزِي فِي دَفْتَرِهَا الْجَمِيلِ

عشر صفحات . فعَدَّتْهَا واحدةً واحدةً ونظرت اليَّ
أُظرفَ ما رأيَتها ثم شكرتني وقالت : آه ماذا قالت ؟
لقد كنتُ أكتب وهي تُديرُ فكرها في اختراع بديع
لمكافأتي

فكرتُ أنت أيها الصديق . أحسبك تسمع الآن
صوتَ النقدِ اللؤلؤيِّ الثمين ؛ صوت عشر قبُلات
كلاّ كلاّ لقد كذب عليك الحسن وكذب عليك
القمر . قالت لم يبق الا عشر دقائق
وانفتحت ضاحكةً ونهضت لا تَلَوِي

« * »

وَمِلْ شُعاعُ هذا السيفِ قتلُ
وَمِلْ جمالِ هذا الحسنِ ذُلُ
ولولا سَطْوَةُ الأقدارِ فيما
يُرب الناسُ كُف الناسُ مَلُوا

فان كُثُرُوا يَقْلُوا كي يَعُودُوا
كِثَاراً ؛ ثم ان كُثُرُوا يَقْلُوا

مَسَائِلُ ما لها حَلٌّ ولكن
اذا نُسِيتْ في النسيان حَلُّ

وسأُنى يا عزيزي سأُنى



الرسالة الثامنة

وادي هواكِ كَانَ مَطْلَعَ شَمْسِهِ
يُلْقِي عَلَى يَاسِي شُعَاعَ أُمَانِي
وَكَأَنَّ هَذَا الْبَدْرَ فِي ظِلِّهِ
يَدُ رَاحِمٍ مَسَحَتْ عَلَى أَحْزَانِي
وَكَأَنَّ أَنْجُمَ أَفْقِهِ فِي لَيْلِيَا
ذِكْرِي وَعُودِكِ لُحْنٌ فِي نِسْيَانِي
يَا ظِيمةَ الْوَادِي الَّذِي نَبَتَ الْهُوَى
بَيْنَ الزَّهْرِ وَالرَّيْحَانِ
وَادِيكَ مِنْ طَوْلِ التَّدَالِي قَدْ بَدَأَ
سَبَبُ التَّدْوُدِ بِهِ عَلَى الْأَغْصَانِ
وَكَأَنَّ طَيْبَ نَسِيمِهِ قَدْ مَسَّ مِنْ
شَفْتَيْكَ مَوْضِعَ قُبْلَةٍ وَأَتَانِي
هُوَ جَنَّةُ كُلِّ النِّعَمِ بِأَرْضِهَا
إِلَّا رِضَاكَ ؛ فَذَاكَ مِنْ نِيرَانِي

دانٍ وما يدنو ؛ بعيدٌ ما نأى
يا شَدَّ ما يُضَيُّ البعيدُ الداني

« * »

أَنَا مَنْ عَلِمْتُ فَقِي كَأَنَّ مَهْزَهُ
فِي الرَّوْعِ مَسْنُونُ الْغَرَارِ يَمَانِي
كُلُّ الْحَوَادِثِ حُمُرُهُنَّ وَسُودُهَا
فِي صَفْحَةِ الْأَيَّامِ مِنْ أَلْوَانِي
نَفْسِي مِنَ الْعَمَلِ الْعُلَى وَسَجِيَّتِي
تَأْبَى عَلَيَّ مَدَلَّةَ الْإِنْسَانِ
وَلَقَدْ أَرَاعُ إِذَا لِحَاطِكَ لَامَسَتْ
قَلْبِي كَأَنِّي فِي هَوَاكِ اثْنَانِ

« * »

أَلْحَسَنُ أَلْوَانٌ يُمَارِجُ بَعْضُهَا
بَعْضًا لِتَصْوِيرِ الْهَوَى الْفَتَّانِ
وَأَرَى الْجَوَى وَالسَّحَرَ وَالْإِيمَانَ قَدْ
مُزِجَتْ فَمِنْهَا هَذِهِ الْعَيْنَانِ

وآه لو رأيت عينيها أيها الصديق تغزّ لان غزال
السحر خيوطاً خيوطاً تلتصّعُ واحداً من شعاع الحرير في
واحد من شعاع الشمس . آه لو يتبيّن لك مكتومها في
بعض نظراتها الساجية الطويلة التي تغفلُ فيها عن كل حذر
وترسل فيها كل خواطر الحب . وتمدّها اليك وكأنها تقول
خذ هذه النظرة وانظري أنت بها لتطّلع على ما في قلبي .
ثم تُرخيها بفتورٍ ليّ كأنما تُصارحك أنها سئمتُ مقاومة
فكرها وتريد ان تميل الى صدرك ولو بلحظة من عينيها ...
كل شيء فيها من نتائج فكرها الا تلك النظرات فانها
وحدها نتائج قلبها

تذكر عليّ أيها العزيز وصفي اياها بالفلسفة ونعتها
بالذكاء النادر والشعر العجيب وتقول « ان هذا من سحرها
فيك وانها لو بلغت مهالاً مما وصفت أو دونه لتوكدت
بينك وبينها علائق من تحت النفس ومن فوق القلب
ولكنك تصفها بما لا يتصوّر في وهم ولا يحس في ظن الا
وهمك انت وظنك انت لانك انت »

فوالله ما كان أمرها على ما رَجَحْتَ^(١) وانها لا تبلغ
ذاتِ لسان وأبرعُ ذاتِ فكر وأروعُ ذاتِ نفس ؛ ولو
كنّا سِلْبِيَّ أبوة^(٢) ما شهدتُ لها بأكثرَ من هذا
حرفاً ، ولو كان دمي من أعدائها ما نقصتها من هذا حرفاً ؛
وعلم الله ما أُبْغِضُ فيها الا هذه التي أشهدُ لها
ولو أن الله مكنها من لغة كناية الكريم لغصَّ منها في
هذا الشرق العربي كلُّ كاتب وكاتبة غصةً لا تُساغ ولا
تتنفس

واني لأكتب اليك رسائي هذه والقلبُ يَنْفُضُ
في أضعافها^(٣) ، ما لوقراته أوردَ عليك من أضواء المعاني
في جمالها وحبها وأوصافها ما يملأُ نهراً بين صبحه ومغربه
يبدأه بشمس ومختمة بقمر

« * »

لقد كنتُ اذا جاش بي حبُّها وثار منه ثأره فحاولت

(١) أي ظننت بالغيب (٢) أخوين من أب واحد

(٣) بين سطورها وحواشيها

أَنْ تَرَبِّطَ عَلَى قَلْبِي وَتُثَبِّتَ هَذَا الْفَوَادَ الْقَلِقَ ؛ جَاءَتْ بِكَلَامٍ
نَضْرٍ تَنْبِتُ مِنْهُ السَّلَوةُ فِي الْحُبِّ الْفَقْرَ الَّذِي لَا يُذْبِتُ شَيْئًا ؛
وَجَعَلَتْ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعُشِّ الَّذِي بَنَاهُ الشَّيْطَانُ لِنَفْسِهِ
فِي الْقَلْبِ وَعَشَّشَ فِيهِ ؛ فَلَوْ أَنَّ كُلَّ حَبِيبَةٍ مِثْلُهَا وَكُلَّ مُحِبٍّ
مِثْلِي لَكَانَ الْحُبُّ تَغْيِيرًا فِي الْإِنْسَانِيَةِ وَلَمَّا احتَاجَ النَّاسُ إِلَى
قَوَانِينٍ وَهَلُوكَ وَلَكِنْ إِلَى حَبِيبَاتٍ وَإِلَى حُبِّ .

إِنَّ الرِّذِيلَةَ وَاحِدَةٌ وَيَتَعَدَّدُ أَهْلُهَا فَهِيَ كَثْرًا أَلَوْفًا
وَمَلَائِينَ فَهِيَ وَاحِدَةٌ فِي الْمَعْنَى إِذْ يَتَلَوُّ كُلٌّ مِنْهُمْ تِلَاوَةً صَاحِبِهِ
وَيَقْنَأُسُ بِهِ فَكَأَنَّهُمْ صَوْرٌ مَتَكَرِّرَةٌ لَانْهَم فِي الرِّتْبَةِ
الْمُنْحَطَّةِ كَالذَّبَاتِ تُخْرِجُ الْحَبَّةَ مِنْهُ الْف حَبَّةً مِثْلَهَا لَا يَمْتَنَزُ
وَاحِدَةٌ مِنْ وَاحِدَةٍ ؛ وَلَكِنْ كُلٌّ مِنْ قَامَ بِفَضِيلَةٍ فَهُوَ فَضِيلَةٌ
قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا ، فَهِيَ قَلَّ الْفَضْلَاءُ فَهِيَ كَثِيرُونَ لَانْهَم فِي الرِّتْبَةِ
الْعُلْيَا وَلَانْهَم وَحْدَهُم النَّاسُ . فَلَوْ صَحَّ الْحُبُّ وَأَضَاءَهُ أَهْلُهُ
وَصَبَرُوا عَلَى مَا يَحِزُّ فِي السَّدُورِ مِنْهُ وَتَوَجَّرُوا الْعِلَاجَ
الْمُرَّ ^(١) إِلَى سَاعَةِ الشِّفَاءِ لَكَانَ كُلُّ مُتَحَابِّينَ عَالَمًا قَائِمًا

(١) اساغوا يقار أو جرت له الدواء إذا اكرهته على شربه

من اثنين لإنشاء عالم لا يُمدُّ من صفات الفضائل وأنواعها .

كانت تقول لي ، ان القلوب الضعيفة هي التي تصدأ في فكرة واحدة تُلحُّ عليها حتى تنأَّ كل صدأً ثم تتفتَّت ؛ فاذا حَدَّثَتْ عليها الحادثةُ انكسرت ولم تَقُمْ لها ، وبقيت زمناً طويلاً في الهموم حتى تتعب الحوادث والأقذار المختلفة في أيام تتصرَّم بعد أيام الى أن تجمع من حُطام القلب قلباً متحطماً ؛

ولكن القلوب القوية العارمة ذات الصدور الجريئة الواسعة تكوِّنُها القوى المختلفة من العمل والفكر وعدم المبالاة على هيئة تجعلها مَرِنَةً في صلابة فهي تلتوي ولا تنكسر ، وما أسرع ما ترجع كما كانت اذا لوثها الخيبة أو نَجَمَتْ لها قاصمةٌ من الحوادث التي هي مَضَارِقُ القلوب لا تضربُ الا عليها ولا تحطم الا فيها

أقول لك « عدم المبالاة » فافهم عني فاني أريد أن تحفظ هذه الكلمة وتعيها من بَوَادِي هذا الحب الى تواليه

الى أعقابه ^(١) . ان عدم المبالاة يكون في بعض الاحيان
وفي بعض الأمور هو كلُّ ما تكلفنا به الطاقةُ البشرية من
المبالاة ...

ثم تقول : انما أنتَ مني في باب من أبواب الفكر
فاياك لا تتسلطُ عليك حاسة من حواسك فان لهذه الحواس
ضراوة السباع وكَلَبَها ^(٢) ؛ والعاطفة تجعل الانسان
أشكَلَ بالملائكة والخالصة تجعله أقربَ للشياطين ؛
والحب كالخمر كلاهما نشوة وكلاهما دواء فلا تُجاوز حدَّ
الطب فيما ترى ولا حدَّ الشعر فيما تفهم ، والا كنتَ
كالمُدمن لا يكفيه الا ملء جوفه حرَّة وظمأ ومرصاً
وجنوناً . واذا هو ملأه توهمٌ أنه يسعُ بحراً من الخمر ولا
يزال يطمع في الانتشاء ولا يزال يُسرف على نفسه حتى
يذهب عتاه وينكفيء وما به قدرة على شيء ولا على أن
يتوهم شيئاً . اجعل الحبَّ تعذُّلاً ودعَ عكازَه في ناحية .
وميز بين ما يجب أن يبقى خيالاً وما يجوز أن يكون واقعاً

(١) من أوله الى تاليه الى آخره (٢) شدة الحيوانية فيها

فان أردت أن تُخرج من كل صورة في خيالك صورة من
الواقع أشقيت نفسك واستفرغت كل همك وقواك في
باطل وعبت ليس مثلهما باطل ولا عبث . دع المعاني في
ألفاظها إن لم نؤانك الأسباب وعَلَّ الأقدار على خلقها
أعمالاً فانك إن داريتها ولم تجئك بالمسرة التي تربدها
جأتك بغيرها وخرج منها على العلات شيء ما يكون منه
أمرٌ ما وكن في قوة عواطفك وإحكامها وضبطها
كالمسارع الجبار الذي لا يوضع جنبه^(١) فانه كما تعلم نرك
بكل جهة من جهاته أنواعاً من أقوى القوة مُشابة في
أجسام من أعنف العُنف ؛ فصدره الذي لا يُطْفَظُ وظهره
الذي لا يُضَغَطُ وأطرافه الى لا تهن ولا تَكِل ، وكل
لوح فيه انما هو رجل نام الخلقه وثيق التركيب لان كل
ما فيه قوة بالغة في قوة بالغة ، ولأن الرجل لم يجتمع
كذلك الامن المكاره والغمرات التي خاضها وثبت عليها
حتى كأنما خرج بها من وزن رجل الى وزن جبل

ثم تقول ؛ دع الدماغ يحلم نائماً أو مُنْتَبِهاً ، ولكن
 متى انعدَلَ الليلُ راجعاً الى مآبِهِ واستدار النصفُ المضيءُ
 من الكرة فلا تجعلُ حلمَ الرأسِ الذي هو أداةُ الخيالِ
 سبباً في عذابِ الحواسِ التي هي أدواتُ الواقعِ . وانقطع
 من نفسك أسبابُ المَطْمَعَةِ الخياليةِ تجددُ كل شيءٍ قاراً في
 موضعه لا ينحرف ولا يضطرب ولا يتماهل ؛ وتذهب
 أحلامُ النومِ في النومِ وتأتي حقائقُ اليقظة مع اليقظة وكما
 في انتظارها فلا يَفْجَأُنا منها شيءٌ . انك ربما تأتي في أحلامك
 ما لا يُسَوِّغُهُ عذرٌ ، وترى وتسع ما لا وجود له ، وتجده
 مُزَعً من أهواريس فيها مُنْع ، وتموجُ بك العوالمُ
 كلها وأنت ساكن في نومك مُسْتَقْبِلٌ حتى على الحركة
 الضعيفة . وحسبك بعضُ هذا في الدلالة على أن الدماغ
 لا يَسْكُنُ الى نِزَوَاتِهِ عاقل لانه يصنعُ المستحيلات كما
 هو مصنعُ الممكنات

« * »

آه يا عزيزي لو رأيت كيف تختلط المعاني بأنفاس

شفقتها وكيف تُقبَلُ عليك ألفاظها وفيها من اللطف
واللين والرفة وألوان النفس أكثر مما في خدي عذراء سافرة
بين عشاقها لا يفارقه الحياء من الإحاط ولا تفارقه
الأحاط . إنها لتُمتدَّ داء الصدر من الوسوس والشهوات
إذا هي كلمتك بتلك اللغة القلبية التي تحقق حواسك
محققاً أن كنت رجلاً كريم النفس ؛ وإذا هي استسلمت
بكلماتها إليك ولكن في حماية ضميرك . تسمعك صوت
ضعفها ملتجئاً إلى قوتك وكأنها تقول لك إن نصف
كلامي هو هذا والنصف الآخر هو ثقتي بشرفك

في المرأة الجميلة أشياء كثيرة تقتل الرجل قتلاً
وتخلجه عن كل ما في دنياه كما تخلجه المنية عن الدنيا ؛
وليس فيها شيء واحد ينقذه منها إذا أحبها ، بل تأتيه
الفتنة من كل ما يعلن وما يضم ومن كل ما يرى وما
يسمع ومن كل ما يريد وما لا يريد ؛ وتأنيه كالريح لو جهده
جهده ما أمسك من مجراها ولا أرسل . ولكن في الرجل
شيئاً ينقذ المرأة منه وإن هلك بحبها وإن هدمت عينها

من حافاتِه وجوانبه. فيه الرُّجُولَةُ اذا كان شهماً، وفيه الضمير
اذا كان شريفاً ، وفيه الدَّمُ اذا كان كريماً . فوالذي نفسي
بيده لا تَعُوذُ المرأةُ بشيءٍ من ذلك ساعة تُجَنُّ عواطفه
وَيَنْفِرُ طائرُ حلمه من صدره إلا عاذتُ والله بمعاذٍ يَحْمِيها
وَيَعَصِمُها ويمدُّ على طهارتها جناحَ مَلَكٍ من الملائكة

الرجولةُ والضميرُ والدَّمُ الكريم : ثلاثة اذا اجتمعن
في عاشق هلاك بثلاث : بتسليط الحبيبة عليه وهو الهلاك
الأصغر ؛ ثم فتنته بها فتنة لا تهدأ وهو الهلاك الأوسط ؛
ثم انتقادها منه وهو الهلاك الأكبر ... ألا إن شرفَ
الهلاك خير من ندالة الحياة



الرسالة التاسعة

﴿القلب الكريم المنالم﴾

إن رسائي اليك أيها العزيز لَمُنْتَزَعٌ مِنِّي دواعيَ هذا
الصدر المحزون ^(١) فإنها كَفَيْضَةِ الْمَلَّانِ ^(٢) ولكني أراها
لا تذهبُ بهمَّ أستريح اليه ، الا رجعت بهمَّ التوري
عليه ؛ وقد يكون بعضُ العزَّاء عن المصيبة تَفَنُّناً من
المصيبة نفسها ؛ كدَمْعَةٍ من يَرْتِي لك من النكبة يَجِيئُكَ
بها تعزيةً ولها على نفسك الأيَّة غَمَزٌ مؤلم قد يكون
أشدَّ من ابتسامة العدو الذي يشمت بك

أكتب اليك في أحزاني اضطراباً أيها الصديق
فانت الجسم الثاني لروحي وقد هدم ذلك الحب صورتي
الأولى فسكنتُ منك لصورتي الثانية . وما أعجب رحمة
الله اذ تحيلُ كل همٍّ في هذا الانسان الضعيف الى قوة

(١) أسباب الضجر ونحوها (٢) المَلَّان يفيض فيخف ما به

تبعثه على التماس العطف والرفقة من كل النواحي الانسانية ؛
كأن في النفس بجانب كل شيطان مَلَكاً ان لم يستطع
تحويل الشر الى خير أخرج منه نَزْعَةً من نَزَعَاتِ الخير
واهاً لهذا القلب الذي أحمله فانما هو عقلٌ فيلسوف

خُلِقَ على شكل القلوب ؛ فهو يأتيني من كل شيء بشيء
غيره حتى تلك التي أُحبها جاني منها بهذه التي أبغضها وبقي
مع ذلك يتفلسف في حبها . . . ولكنه قلبٌ جليل سامي
النزعة قارئٌ كالصبر مجتمعٌ كالإيمان ؛ يقول لكل حاسة
أو عاطفة أرادت أن تتَهَضَّبَ فيَّ أو تستبدل : ياسرحة
الوادي لا يزال هناك جبلٌ لا ينحني لعاصفتك

قلب لا أدري أوهبني الله له أم وهبه لي فهو مشارٌ
الألم ومهبط الرحمة جميعاً . ولقد ورد في أثر من الآثار
إن العبد اذا دعا لانسان قد اشتدَّ بلاؤه فقال اللهم ارحمه ؛
يقول الله كيف أرحمه من شيء به أرحمه . وكيف يرحمني
الله من هذا القلب وقد رحمني به في ذات نفسي ؟

إنما علة البلاء من ناحيتنا نحن ، ثم من هذه الجهة الفانية

جهةِ الجسم الذي يَسْتَيَقِنُ انه يعيش لموت وهو مع ذلك
يقبل المقدمات وحدها ويحاول دائماً أن يَفِرَّ من نتائجها
كأن النتيجة ليست في المقدمة والآخرة ليست في الاولى؛
أما تلك الناحية الخالدة ناحية الروح فهي كما قيل في شجرة
الصندل: تعطرَّ الفأس التي تضربها وتُخَطَّمُ فيها

هذا القلب هو سر الجمال الانساني لأن فيه بَرَكَه
النفس وزينتها وسكناها: فالبركة تنبت من الخلق الطيب
والزينة تخرج من الفكر الجميل والسكن يثبت بالايان
واليقين؛ وما جمال النفس الانسانية الا خلق وفكرة
وفضيلة مؤمنة

« * »

ما زالت منذ وعيتُ كأنما أُفْرِغُ في قلبي هذا قلوب
الناس بتوَجُّعي لهم وحناني عليهم، وكأنما أعيش في هذه
الارض عيش من وضع رجلاً في الدنيا ورجلاً في الآخرة؛
أحفظ الله في خاتمه لانني أحفظ في نفسي الرحمة لهم وان
كان فيهم من يشبه في التَلَفُّفِ على دَوَاهِيهِ باباً مقفلاً

على مغارة مظلمة في ليل دامس . . وأتقى طائلة قلوبهم^(١)
 وألبسهم على تفصيلهم قصاراً أو طوالاً كما خرجوا من شقي
 الملقص المجتمعين من الليل والنهار تحت مسبار الشمس ؛
 وأصدرهم من نفسي مصدراً واحداً لأنى أعلم أن ميزان الله
 الذي يشيل ويرجح بالخفيف والثقيل ليس في يدي فلا
 استخف ولا أستثقل ، وأعرف أن الفضيلة ليست شيئاً
 في نفسها وإنما هي بالاعتبار فلا أدري ان كانت عند الله
 في فلان الذي يحقر الناس أو فلان الذي يحقره الناس .
 وليس من طبعي أن اتصفح على الخلق^(٢) فإن من وضع
 نفسه هذا الموضع هلك بالناس ولا يحْيُونَ به وتَعَقَّدُوا في
 صدره كما يتعقد الماء العذب بالغصص المؤلمة ، ورموه
 بذنوبهم من حيث لا يحص عنهم شيئاً^(٣) . وقد خلقهم
 من علمهم كيف يجيئون وكيف يذهبون ؛ وما تقذف
 بطون الأمهات في هذه الارض الا توارى كُتِبَتْ في

(١) كناية عن الحسد ونحوه (٢) تصفح على الناس التمس
 عيوبهم وفتش عنها (٣) محص الذنب بالتوبة محاه

الازل كما قدّر الله ولما قضاه فمن استقام فعلى الخطّ الذي امتدّ له ومن زاعغ فللدائرة التي انحرف به محيطها المائل من طرفيه إن سفل وإن علا

لقد أقت من نفسي لهذا الخلق جبلاً وإن هذا الجبل ليمتدحرج عليه الصخر الصلب ويلصق به الحصى المسنون وينغرز فيه الشوك الدامي وتنبت منه الفروع الثمرة وترسو بين أطباقه العروق الضاربة ؛ ولكنه على ذلك جبل وهو بذلك أتم روعة ورهبة . ولكل شيء مما عدت معنى في نفسه ، ولكلها مجتمعة وحدها معنى آخر وجميعها مبغثرة يتخطى المعنيتين في الجبل معنى ثالث

فما أضيق بالناس ولا أتبّرّم^(١) ولى ابدأ مع الضعفاء والأقوياء سفح ظليل مخضّر وقمة عالية^(٢) متمرّدة ؛ واني على ما وصفت لأرى في أعماق هذا الطود الراسي بركانا يتزلزل به كلما اضطرمّ جامحه ؛ ذائبا في الاغوار

(١) اتضجر وبرم بالشيء (بكسر الراء) وتبرّم (٢) السفح

من معانيه اسفل الجبل

البعيدة تُمْسِكُهُ الارض امساك العزيمة وَكَشَدُّ عَلَيْهِ شدة
الصبر علي أنه كَلَجٌ من النار ؛ فترى الطُّود الشامخ قائماً
على الارض كأنه أرض مستقلة وفي جوفه ما يَحْطِمُهُ
مما يَمُور ويضطرب (١)

وكانني إذ لا احاسب الناس أحاسب نفسي بكل
ذنوبهم اليّ فأفجرُ عروق دي عليهم ؛ وكأن ذلك الكمال
الانساني الذي لا يزال بعيداً عني يحاول أن يقتلني من
اساسي لأثب اليه في افاصى علوه

ان النملة من النمل لتخاف على قرّيتها من قدّم الطفل
الرضيع ما تخاف نحن على كرة الارض من أكبر نجوم
السماء متى خشينا أن يتنفس عليها فيرسلها زفرة في صدر
الأبد . وكم بين قرية النمل وبين كرة الارض ؛ وأين وطأة
الرضيع من صدمة النجم ؛ ولكن كل شيء فانما هو باعتباره
في نفسه وباعتباره لنفسه ؛ ألا وإن الزلزلة التي يُضْرَبُ
بها ذلك الجبل القائم من نفسي انما هي رِقَّةُ الحب

« * »

وان تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ مَا تَرَى أَنَّ هَذَا الْقَلْبَ الْإِنْسَانِي
لَا يُصْنَعُ هَشِيمَةً^(١) فِي جَنْبِي صَاحِبِهِ يَأْخُذُ الْإِنْسَانَ مِنْهُ
وَيَعَوْنُ كَيْفَ شَاءُوا إِلَّا إِذَا أَنْبَتَ اللَّهُ صَاحِبَهُ الْمُسْكِينَ مِنْ
نَبْعَةٍ بَاسِقَةٍ فِي مَغْرَسٍ طَيِّبٍ^(٢) وَأَخْرَجَهُ فِي صَيْغَةٍ كَرِيمَةٍ
وَأَوْدَعَ فِي أَعْصَابِهِ مِيرَاثًا سَامِيًّا مِنْ الدَّمِ . وَلَقَدْ تَجَدَّدَ هَذَا
الرَّجُلُ الْكَرِيمَ مَلَأَ ذِكَاثَهُ دَهَاءً وَنُكْرًا^(٣) وَتَفَادَى فِي
أَعْضُلِ الْأُمُورِ يَنْتَقِعُ فِي الْحَوَادِثِ فِكْرُهُ كَمَا يَنْتَقِعُ الشَّعْبَانُ
نَابَهُ الْمُسْمُومَ ، وَقَدْ تَجَدَّدَ فِي بَدَنِهِ شَدِيدَ الْفَحْلَةِ مَعْصُوبًا
عَصَبًا كَأَنَّهُ مِنْ عَضَلَاتِهِ فِي لَفَائِفِ الْحَدِيدِ^(٤) ؛ وَلَكِنَّكَ
تَجَدَّدَ قَلْبُهُ شَيْئًا غَيْرَ هَذَا كُلِّهِ ، لَا يُسْرِعُ إِلَّا فِي هَدْمِهِ وَلَا
يَتْرَكَ يَدُورَ كَمَا يَدُورُ غَيْرُهُ عَلَى الْخَطُوطِ وَالْأَضْلَاعِ الطَّوِيلَةِ

(١) مَهْشُومًا مَحْطًا وَفُلَانٌ هَشِيمَةُ النَّاسِ وَهَشِيمَةُ كَرَمٍ يَأْخُذُهُ
النَّاسُ كَيْفَ يَشَاؤُنَ لَا نَظْبَاعَهُ عَلَى الْكَرَمِ وَالسَّهُولَةِ (٢) الْمُرَادُ
بِكُلِّ ذَلِكَ كَرَمُ الْأَصْلِ (٣) أَيُّ سِيَاسَةٍ وَمَكْرًا (٤) الْفَحْلَةُ
هَيْئَةُ الْفَحُولَةِ وَقَوْتَهَا فِي الرَّجُلِ

من زوايا الحياة بل ينفذ به الى المموم من اقطارها على استقامة ، فما أسرع ما يتهدم وتقصّف سنه بعضا على بعض (١) وربما كان في الاربعين فلا توى إلا ان العمر يخيط في ثوب همه بأربعين إبرة

هذا القلب رأيتني كلما كبرت صغرت الدنيا في عيني وكما تقدمت دانيت أطرافها العليا فأصبحت أشعر حقا أن هذا العمر انما هو سلم الى السماء لا الى غيرها ؛ ومن هذا القلب اعتادت بعض سفن الاقدار أن تجد فيه حلقة ثابتة متينة تشد اليها حبالها اذا هي أرست على شاطئ الدهر بأحمالها . فلباس يتناولون منها خفافا وثقالا ولكن الحلقة المعذبة لا عمل لها الا أن تهتز وترج من الالم والشدة والعنف

وفي هذا القلب أعرف موضع كل شيء الا نفسي فما أدري أهو من الضعة بحيث صارت فوق أن تنزل فيه أم هو من السمو بحيث صار نفسا وحدها ؛ ولكنه على (١) تمر أيامه مسرعة

الحالين أشقائي بهذه النفس وطوح بي وبها في مهّاي
الاحزان الى قرار بعيد

« * »

في قلب كل إنسان معنى من الأزل لانه كان ذرّة في
يد الله ، بَيَدَ أَنْ هَذِهِ الذَّرَّةُ تُنْحَقُ فِي بَعْضِ النَّاسِ أَنْوَاعًا
مِنَ الْحَقِّ ، فَتَصِيبُ الرَّجُلَ وَانْهَ لِعَظِيمِ جَلِيلٍ وَلِسْكَنْهِ فِي
مِيزَانِ اللَّهِ لَا يَعْدِلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ حَسَنَةٍ مِنْ رَجُلٍ
حَقِيرٍ ؛ وَتَرْبُو فِي بَعْضِ النَّاسِ وَتَتَنَفَّخُ فَإِذَا هِيَ فِي وَزْنِ
الْجِبِلِّ الرَّاسِخِ بِأَعْضَادِهِ ^(١) الْمَتْرَامِي بَنَوَاحِيهِ ؛ فِيمَا قَلْبِي
الْمُسْكِنِ مَا أَنْتَ مِنْهُمَا ؛ لَقَدْ تَعَذَّبْتُ بِكَ طَوِيلًا وَتَقَلَّدْتُ
مِنْكَ بَلِيَّتِي فَمَا تَغْمَرُ بِعِلْمِكَ وَنَزَعَاتِكَ إِلَّا فِي صَمِيمِ الرُّوحِ
غَمْرًا كَوُخْزِ الْإِبْر ، وَلَا أَضْرِبُ عُرُوقِي الَّتِي تَسْتَقِي مِنْكَ
إِلَّا عَلَى أَلْمٍ تَأْتِينِي بِهِ إِذْ كُنْتُ لَا تَرْمِينِي إِلَّا بِشَرٍّ مَا تَجِدُ مِنْ
هَمُومِ النَّاسِ ؛ وَإِذَا تَرَى أَنَّ دَرَسَ الشَّرِّ وَالْآلَامِ إِنَّمَا هُوَ عُنْصَرُ
الْفَلَسَفَةِ الْأَسْمَى وَإِنَّمَا هُوَ الْفَضِيلَةُ الْمُنْحَلَّةُ لِمَنْ يَرِيدُ أَنْ يَعْلَمَ

ويرى كيف تتألف أجزاء الفضيلة في باطنها . فأنت
تَمْتَشِطُ^(١) الحزنَ من كل شيء وتأتيني به لا تحزن وأتألم
فألمس بالحزن والالم مصراعي باب السماء . وأنت تبسط
على رُواق المعاني المظلمة من الآلام والاحزان لارى في
ظلماتها أشعة روجي المضيئة بالايان والرضا

رضيت يا قلبي المسكين أن تجتمع من حطامي المتناثرة
وان تكون سَوِيًّا تامًّا وأكون أنا الجسم الحيواني أشلاءً
وبقايا^(٢) ؛ فاني رأيتُ شرَّ أهل الدنيا ذلك الذي هو أهنأهم
بمتاعها حتى كأنه في شهواته ولذاته لم يجتمع الا من حطام
قلبه المتبدد . الشهوات والذات تبني عالماً والآلامُ
والاحزان تبني عالماً آخر وهما يتجاوران كما يلتصق حائط
الليل بحائط النهار ؛ وانت يا قلبي المتألم لا تشرفُ على العالم
الأول الا ما يشرف النظر العالى من البعيد البعيد لانك
طَوْدٌ باذخ رسخت جذوره في العالم الثانى

ان الابرة الممغنطة^(٣) التي تهدي السفن باتجاهها هي

(١) تختطف (٢) الأشلاء الاجزاء المقطعة (٣) البوصلة

القلب الذى تحمل فيه السفينة روح الارض ؛ والقلب الانسانى هو كتملك الابرة غير انه يحمل روح السماء . ولولا حاسة الاتجاه الالهى فيه لتمزقت علينا جهات الارض ^(١) فى انفسنا فضللنا فيها وارتبكنا فى فتوقها الواسعة حتى لايهتدي إنسان الى الجهة الانسانية . ولكننا نتعافل عن هذه الحاسة فيه وترى اكثر الناس لا يقبلون بانفسهم الا على جهة أجسامهم ويَطْوِي احد هم الدهر الفسيح من عمره وما ارتفع قليلا ولا كثيرا بل يكون كالطير فى قفصه يتخبط بين أرض وسماء ، وما بين سمائه وارضه الا علو ذراع ... وان أشد ما كانت الحياة واشد ما هى كائنة على من لا يجد لذة قلبه فيها ، وأصعب ما تكون الانسانية على من يعظم بحيوانيته وحسب ^(٢) ، فتراه وكأن مئة حمار ركبته منه فى حمار واحد ولكنه حمار عظيم ...

وما رأيت قلبى يلتبس لذة من بعد إيمانه الا فى

(١) كناية عن الشهوات الحيوانية (٢) أى فقط ، وقد عم استعمال هذه الكلمة وكنا أول من استخرجها وأذاعها

ثلاث : الفكر الانساني الذى يهبط فى أدمغة الفلاسفة
والشعراء من أعلى السموات أو ينبع من أغوار النفس ؛
والفكر الطبيعى الذى يملأ السماء والارض نورا وألوانا
وجمالا ؛ والفكر الروحي الذى يتسلأ لآ خيالاً فى عيني
الحبيبة الجميلة .



الرسالة العاشرة

لقد وصفتها لك ايها العزيز وملأتُ رسائلني منها ؛
غير أني والله ما أدري أوصفتُها أم وصفتُ بها ، وكتبتُ
منها أم كتبتُ عنها ، فانما ذلك مَطْلَبٌ دونه أن تجعل
وصفَ الجَمْرِ يلذع لَذْعَ الجمر ، ومهما أكتب فانها باقية
في نفسي لا تنقصُ على قدر ما تريد . . . إن فيها شيئين هما
الفكرُ والجمال وفيَّ شيئان هما الخيال والحب ؛ وهذه
الأربعة تُنشِئُها في نفسى خَلَقًا بديعًا لم أره لامرأة قط .
ففيها وحدها زيادة عن النساء لان فيها وحدها نفسى
أما سمعتَ بذلك الأعرابي الذي قيل له ما بلغَ من
حبك لفلانة ؛ فقال والله إني لأرى الشمسَ على حائطها
أحسنَ منها على حيطان جيرانها قد والله صدقَ
وبرَّتْ يمينه فان في كلماته الشعرية لا ثرا من عينيه إذ يرى
الشمس على حائطها كالشمس على البلّور الصافي لا على
الحجر والمدَر ؛ فهناك أشعةٌ أخرى من تلك التي وراء الحائط
تنفذ الى قلب هذا المسكين فاذا هي سَطَعَتْ خياله في نور

الشمس أضافت الى النور ألواناً مختلفة من ذلك المعنى الجميل
الحيّ فلا تكون الشمس في عينيه أحسن مما هي وقتئذ
ونو أنها طلعت على حائط من اللؤلؤ

ليس الجمال ما يعلم الكاتب أو يدرسه الفيلسوف ولا
هو مذهبٌ من مذاهب التلفيق في الجمل والألفاظ ولا
هو كما صنع علماء الرياضيات الذين جعلوا الفلك كله بألوانه
وجماله وما فيه من غموض إلا بد مسألةً حسابية
والارض بما انبسط عليها من جمال الطبيعة مسألة
هندسية كأن الازل كله خطوطٌ وزوايا وأرقام؛
وتركوا جانباً حركة الفكر الأعظم القائم بالارادة الازلية؛
وهي التي تطالع العقل من كل شيء بمعنى والخيال بمعنى
آخر ثم تكون هي في حقيقتها المجهولة معنى ثالثاً .
ولكنك مع ذلك واجدٌ في الارض من يتسكّع ويحمل
الشمعة ليفتّش في ضوئها على النجم العظيم

« * »

لو أني سُئِلْتُ تسميةً لعلم الجمال لسميته « علم تجديد

وكما رأيت في تلك الحقائق الساحرة التي كانت تفيض بمعانيها
على الجميلة فتكسبها غرابة الجمال وتمثلها لعيني في ثلاثة
ألوان : لون من وجهها ولون من دمها ولون من قلبي .
سأُنثر لك الجميلة وأسرار جمالها وتأثير جمالها نثراً أُلْفني
والله قبل أن أولفَه ؛ وما صعد إلى فكري وانحدر من
قلمي إلا بعد أن وفدت عليه الجمرات الحمر فغلى في
القلب وتبخر واندفع وطار إليك في كلام كالندى على
الورق الأخضر

((*))

إن في نفس هذا الانسان أعماقاً بعيدة تنحدر
أغوارها من مهوى إلى مهوى إلى ما لا نعلم لأن النفس
ما برحت جزءاً من الأزل كبعض النور من النور ،
ينفصل عنه وهو مُستقر فيه

وقد نثر الله في أعماق الفضاء هذه المصابيح المتقدة
التي اهتدى في ضوئها الفكرُ الانساني إلى شيء من
الادراك الاسمي ؛ من ذلك النور الذي يشتعل ويتوهج

في أقطار السموات كلها . وكما ترى في أعماق الفضاء ترى
في أغوار النفس ، فلا بدَّ لهذه مما لا بدَّ منه لتلك من معاني
النور الالهى ؛ فالسكوكب يُضيء في أعماق الفضاء والوجهُ
الجميل يضيء في أعماق النفس

ألم ترَ الى المحب الذي أدنَّفه الحب كيف يشعر أنه
متصل بالنور الأزلى من الحسن الذى يعشقه ؛ وكيف
يرى في أطواء نفسه أخفى الوسائس وأدقَّها كأنها مكشوفة
لعينه على الضوء ؛ وكيف يظلُّ أبداً في حبه كأنما يبحثُ
في الأرض عما ليس في الأرض . ويحاولُ أن يجدَ في قلبه
مالا يُخلَق في القلب ، وكأنه وحده الذى يعلم من نفسه
أن فوق كل طبقة طبقةً أعلى وتحت كل عمق عمقاً أسفلاً ،
فلا يَقْنَعُ بشيءٍ لا من عالمها ولا من سافلها ؛ وانظر كيف
يجعله حبه العظيم يرى العالم كله صغيراً حقيراً ؛ وإذا
اتفقت له ساعة من حبيبته رآها عجيبةً كأنها ليست من
الحياة أو ليست الا الحياة ؛ فهل وَسَّعَتْ نفسه من الحب
شيئاً لا سبيل لأن يُقاسَ معنى العالم به ؛ أم صارت

أعماقها تطاولُ أعماق الفضاء ؛ فهو بالحُب كائنٌ فيما حوله وما حوله كائن فيه ؟

« * »

لا أرى سرَّ الجمال إلا أنه شيء حقيقي من تلك القوة السماوية التي نسميها الجاذبية ؛ فكأن الله حين يُبدع الجميل يُرسل في دمه مع الذرة الانسانية ذرة من مادة الكواكب هي سرُّ عشقه وجاذبيته ، وهي بعينها معنى تلك القوة التي لا يزال الجميل يُخضعُ بها كما يُخضعُ الفلكُ المدار . ويتسلط على عاشقه كما تتسلط الأقدار ، ويثبت في الدم الانساني مع مادة الدم مادة من النار

وما أساليب الدلال أو ما نراه دلالاً في الجميل المعشوق إلا اضطراب تلك الذرة من سكونها ؛ فانها متى تحركت للجاذبية جعلت الجميل يتلأل من كل جهاته وانبعثت في كل ناحية منه نورا فوضعت لكل شيء فيه معنى من المعاني الخيالية إذ هي معنى كل شيء فيه

ولو أنك سألت عاشقاً أن يُصادم من يحب ويتسع

لهجرها ونَبَذَها وَتَجَافَى عَنْ هَوَاهَا لَكَانَتْ عَاقِبَةُ ذَلِكَ فِي
نَفْسِهِ وَيَقِينُهُ مَا يَعْلَمُ مِنَ الْعَاقِبَةِ فِي مَصَادِمَةِ الْأَرْضِ الْكَوْكَبِ
مِنَ الْكَوَاكِبِ ، إِذِ تَهْتَطَّمُ وَلَا يُغْنِي شَيْئًا فِي تَعْطِيلِ قُوَّةِ
الْجَذْبِ الْمُنْصَبَةِ مِنْ قَمَرِهِ الْجَمِيلِ عَلَى كُرَّةِ قَلْبِهِ الضَّعِيفَةِ
وَكَمَا نَجِدُ لِلْكَوَاكِبِ فِي نِظَامِ السَّمَاءِ نَعْرَفُ نَحْوًا
مِنْ ذَلِكَ لِكَوَاكِبِ الْجَمَالِ فِي نِظَامِ النَّفْسِ ، فَلَيْسَ كُلُّ
ظَرِيفٍ جَمِيلٍ يَجْذِبُ حَسَنُهُ فِي كُلِّ دَائِرَةٍ عَلَى مَا شَاءَ وَشَاءَ
الْهَوَى ، وَالْأَفْسَدُ الْأَرْضُ وَأَصْبَحَ الْجِنْسَانُ فِيهَا كَهَجْرِي
الطَّاحُونَ لَا عَمَلَ إِلَّا عَلَى الْأَنْ يَطْحَنَ عَلَى الْأَسْفَلِ
بَلْ إِنْ لِكُلِّ جَمِيلٍ فَلَاكَ لَا تَعْدُوهُ قُوَّةُ جَذْبِهِ فَإِذَا هِيَ
تَخَطَّتْهُ إِلَى فَلَاكِ غَيْرِهِ بَطْلَ عَمَلِهَا أَوْ عَمَلَتْ عَلَى ضَعْفٍ أَوْ
وَقَعَتْ ثُمَّ مَوْقِعَ صَوْتِ التَّنْبِلَةِ ، يَخْرُجُ مِنْهَا وَلَيْسَ فِيهِ
شَيْءٌ مِنْهَا . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ سَلَّطَ عَلَى هَذِهِ الْأَرْوَاحِ السَّمَاوِيَّةِ
مَوَادَّ مُخْتَلِفَةً مِنْ ثَقَلِ الْأَرْضِ لَا تَبْرَحُ تُدَافِعُ تِلْكَ الْمَادَّةَ
مِنْ جَازِيَةِ السَّمَاءِ فَإِمَّا أَبْطَلَتْهَا وَإِمَّا كَسَرَتْ مِنْ حَدِّتِهَا
وَإِمَّا أَضْعَفَتْهَا وَإِمَّا طَمَسَتْ عَلَيْهَا ؛ مَا لَمْ تَكُنِ النَّفْسَانِ

العاشقة والمعشوقة من فلك واحد في القدر الجاري عليهما
فلو أن أرق من غمز الحب على قلبه من الشعراء
الذين يجعلون الكلمة الواحدة كلاماً طويلاً ، يحدثك
يوماً عن تلك الجميلة التي كلف بها واختبئته بحبها^(١) فأرسلته
على وجهه في كل مذهب من مذاهب الهوى ؛ ثم يتفتح
لك في صفتها بكل ما تخيل حسه وأحس خياله فيفرغها
في القالب الذي لم يخلق الله فيه امرأة قط ، ويصبها
لعينيك ممثلة من النور السماوي المحض تضيء كل قطرة
منه وجه ملك من الملائكة : ثم يجري كلامه فيها شعراً
خالداً مطرداً كنهز الكون في رياض الجنة حافتاه من
ذهب ومجراه على الدر والياقوت : ثم يتفق لك بعد أن
تراها وتجلس إليها وتطأ راحها ولست من فلكها الذي
تعمل فيه جاذبيتها . إذن لرأيتك قد غار من أوصافها في بحر
من الكذب وتعلق في الحديث عن جمالها بخيوط من الباطل
ونزل من الحقيقة التي كان يذكرها لك منزلة المفلس يظلم

متسكعاً فارغاً يُتْبِعُ نفسه هواها وَيَتَمَنَّى الامانيَّ ولا حقيقة . ولرأيتُه كالْعَنْكَبُوتِ تَقْضِي الأيام الطويلة في نصب أشراكها وحبائلها لأجل ظَنِّية في عينها ثم لا تكون طبيعتها الا ذُبابة . وتردُّ عليه سواد أمره وبياضه كذباً وزوراً وتتهم ذوقه وتهجن طبعه وتتقي عليه أن يكون قد تَخَبَّطَه مَسٌّ من الشيطان ؛ وأنت على ذلك مستيقن أنك تكلمه فيها بأصح لفظ وأوضح معنى وأصدق نصيحة وإنك تُلقَى في اذنه براهين المنطق وحجج الفلاسفة وتصحح له خطاه في رائحة الزهرة بالزهرة نفسها تقول له ها هي ذه في رباها ونسبمها فأمن ما زعمت لها ؛ على انه هو في كل ذلك لا يراك الا كالأقطع الذي يُقَدَّرُ قياس الباع الطويل ببقايا ذراعيه ، والمقعد الذي يضبط قياس الخطوة الفسيحة بدرجليه ، والأعمى الذي يُفَارِضُ بين لونين ، ويكذب في رأيه ذا العينين ، ويراك مجنوناً فاسد العقل أو سخيفاً فاسد الذوق أو احمق فاسد الرأي : وما بك ولا به بأس غير انك تنظر مُدْبِراً وينظر مُقْبِلاً ، وتهزأ بتيار البحر

لان قدميك في الشاطئ ويرهبه هو لانه مندفع فيه
منخام القلب من فورانه وهديره . وأنت تروي فيما
وصفت له بلسانك عن عينك عن هذه المرأة ، وهو
يروي فيما صور لك بالسند الطويل : بلسانه عن عينه عن
خياله عن آماله عن قلبه عن روحه عن القدر المحتوم عن
هذه الحبيبة . وأنت في نفسك كأنما تنظر من الأرض الى
النجم فلا تراه بعلم ولا يقين ، وهو في نفسه انما ينظر من
فللك النجم الى النجم ذاته فاذا الكوكب ماهو . واذا
فضائه واسع من النار وجو عميق من المغناطيس ومظهر
من القدرة العظمى جماله في هيئته وهيئته في قوته وقوته
في جماله فهو شيء واحد بعضه من بعض

« * »

واذا رحم الله انساناً من هذا الحب ومن التعلق
بالجمال كدر طينته وأغلاظ على نفسه بمواد ثقيلة من هموم
الحياة وأكدار العيش ، او افراط عليه بآمال النفس وأطماع
الحاسة فيشغله بكل ذلك او بعضه ويحوطه منه مثل

أَكْيَاسُ الرَّمْلِ الَّتِي يَتَحَصَّنُ وَرَاءَهَا الْمُقَاتِلَةُ فَلَا تُنْفِذُهَا
الطَّائِرَاتُ الْحُمْرُ^(١) بَلْ تَنْطَفِئُ فِيهَا، وَيَجْعَلُ لَهُ مِنْ دُونَ
الْعَيُونِ الذَّابِلَةَ وَالْحَاضِظَ صَدْرًا مُصَفَّحًا بِمَا يَتَسَاوَرُ فِي دَاخِلِهِ
مِنْ جَوَانِبِ نَفْسِهِ وَمَا يَتَصَدَّعُ مِنْ أَرْكَانِ قَلْبِهِ بَيْنَ الْكَمَدِ
وَالْهَمِّ أَوِ الْإِمْلِ وَالطَّمَعِ أَوِ الْجُهْدِ وَالتَّعَبِ أَوِ الثِّقَلِ وَالْغِلْظَةِ أَوْ
غَيْرِهَا مِنْ هَزَازِ الْعَيْشِ وَدَوَاهِيهِ، فَتَذْهَبُ سَطْوَةٌ
الْجَمَالِ فِي سَطْوَةِ الْمَادَةِ، وَتُخَضِّعُ الْإِنْسَانَ قُوَّةً بِإِفْلَاتِهِ
مِنْ قُوَّةٍ أُخْرَى، وَيُهْدَمُ مِنْ أَعْلَاهُ لِيُشَدَّ بِنَاوُهُ مِنْ أَسْفَلِهِ
وَمَا مِنْ أَحَدٍ فِي الْأَرْضِ يَسْتَقِيمُ طَبْعُهُ عَلَى الْجَمْعِ
بَيْنَ هَمِّ الْحُبِّ وَهَمِّ الْحَيَاةِ فَإِنْ قَامَ بِوَاحِدٍ زَاغَ مِنَ الْآخَرِ لَا
يُبَالِي بِهِ إِذَا هُمَا حَقِيقَتَانِ مُتَدَافِعَتَانِ كَتِيَّارِي الْكَهْرَبَاءِ، لَوْ
أُمْكِنَ شَيْءٌ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ لِمَا أُمْكِنَ أَنْ يَطْرُدَا فِي سَبِيلِ
وَاحِدٍ أَطْرَادَهُمَا فِي السِّلَاسِ كَيْنِ. فَإِنْ لَمْ تَكُنْ مَحَامِلُ هَذَا
الْجَسَدِ^(٢) خَفِيفَةً عَلَى النَّفْسِ مِنْ جِهَاتِ الْفِكْرِ وَالْهَمِّ
وَالْإِنْصِبَغِ الذَّوْقِ فَالْتَبَسَتْ أَلْوَانُهُ وَخَالَطَ بَعْضُهَا بَعْضًا

(١) الرصاص ونحوه (٢) اغراضه المادية الحيوانية التي تحملها

وضعفت موهبة التمييز بين المعاني المضئئة وصار الانسان همًّا كافيًا لنفسه وعادت النفس همًّا كافيًا لصاحبها فليس بينهما على ذلك موضع لما ليس منهما . وتحول مادة ذلك الهم بغلظتها وجفائها بين السرّ المعشوق في الجمال والسرّ العاشق في الروح فلا يدرك منهما شيء شديداً

فهذا الجمال إن شئت قدرة لا قوة فيها ، وإن شئت قوة لا قدرة لها ؛ ولو أن الله جعله مجموعاً من القوة والقدرة معاً لا بطل سنن الطبيعة الانسانية ولصار لكل انسان كونٌ وحده في القلب الذي يرف ليخفق على قلبه ؛ ووطنٌ على حياله في الجسم الذي يحن لينضم الى جسمه ؛ ودينٌ على حدة يهبط الوحي فيه نظرات من عينين الى عينين ؛ وقانونٌ مستقل لا تكون مواده الا قبليات من شفتين على شفتين . واعلم ان اشق المخلوقات هم اولئك التعساء الذين يشذون في تاريخ الناس احياناً وينفردون دونهم بجنون الحب كما حدثوا عن (مجنون ليلى) (١) إذ

(١) هو مجنون بني عامر الشهير واسمه قيس رحمه الله

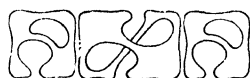
يتسلط عليهم الجمالُ بضرب ممتزج من القوة والقدرة
يَغمرُ الطاقةَ الانسانية ، ثم تجيء أقدار غريبة بين الرحمة
والقسوة فتجذب الحب الى الحب ولكنّها تدفع الحب
عن الحبيب ، فلا يزال الجمال يسوقهم سوقاً عنيفاً من ناره
الى باب جنته ثم يردّهم عن باب الجنة الى النار حتى يصبح
الواحد منهم بين العناصر والنواميس المنتظمة في هذا
الكون الانساني كانه عنصرٌ مجنون او ناموسٌ مختلٌ

«*»

إن هذا الانسان وعاء من الأوعية لا يملأه
الا الأفكار والنزعات ومتى احتلّ الفكر وتمدد .
ثم ضرب فتمكّن ، ثم غار بجذوره وانشعب بفروعه
صبغ الأشياء كلها في عيني صاحبه بألوان منه حتى كأنه لا
ينبعث في اشعة النظر الا ليلبس كل ما تنظره العين فلا
يرى المرء فيما يرى الا صوراً من فكره كما تنبعث
أخيلاً السيام^(١) في انوارها على حائطها فاذا هو تاريخ

وحكاية وعمل وحياة^١ واذا هوهي على أنه حائط . ولم يخلق الله فيما أعرف غير الحب فكراً يتمكن من الانسان ويضرب^٢ الضربات الثقيلة فيستطير في قلبه استطاراة الصّدع الشادخ في لوح الزجاج ، يشقه على مدّ ما تتصل اليه حركته ويشامه^٣ على غير قاعدة من هنا وههنا ويدعاه فلولاً تَشْطِي^(١) وما هذا الحب الا فكر^٤ الجمال وأثر عمله في النفس ، إذ كان الجمال الفائن لا يُخلق على ذلك الأسلوب الذى هو عليه الا لِيَسْتَحْوزَ على التخيّل والحس معاً ، فهو نوع من جوّر الطبيعة على الانسان يجي من اتصال أحسن ماضى في شخص بأحسن ما كمن في شخص آخر ، وهو كذلك نوع من استثارة هذه الطبيعة لكل ما في أعماق النفس الانسانية ببعض ما في أعماقها هي . فالعاشق مُقْتَلٌ^(٢) بأسلحة طبيعية منها كل نظرة من حبيبه وكل كلمة وكل حركة وكل مامسه أو اتصل به منه . وذلك لأن قوة طبيعية عجيبة تنفّسها رهبة الكون وتحصرها بين نفسه

ونفس حبيبتة لتجعل منهما طريق سلكها وإيجابها ؛ هذه
القوة هي الفكر ؛ هي ذلك الحب ؛ هي السكرباء المتألفة
من نفسين . ومثل ذلك بعينه في الضرب على قلب الانسان
ما يملك هذا القلب من هموم الدنيا وشِدَات مصائبها . كلاً
الفكرين قتل من الطبيعة غير أنها في أحدهما باسمه وفي
الآخر عابسة . تقتل الانسان بما يحب كما تقتله بما يكره
وهما طريقتان لا تسلك غيرهما اذا أرادت أن تنفذ بقدر
من الأقدار الماحقة الى باطن النفس لتترك هذا الانسان
المعذب مُحسّ بنغمز القوى الخفية على فؤاده



الرسالة الحادية عشرة

تقول أيها الصديق : « ألا زدني ثم زدني فإن ليلك
الحزين قد تفجّر لك بصبح من تلك الشمس ، وإن قلمك
ليجمع أشعة النجوم ويصور منها ذلك القمر ، وإنك لأنك
المحب الذي يخرج من جنونه العقل الكامل . وإن كانت
تلك الحبيبة قد اختلجت نفسها ^(١) من يدك فما ذلك إلا
أنها ملك مدّ اليك جناحه وأمكنك منه ثم انفلت ليدع
في يدك الريشة السماوية التي تصوّره بها »

كذلك كانت تقول هي : « أنا لا أخشى غضبك فإن
غضبك علي لا يكون إلا السحابة المطرزة بخيوط البرق
تهبط في ألوانها مذهبة وتجلجل بأجراسها من بعيد لأنها
تحمل اليك ملك الوحي الذي لا ينزل عادة إلا في جو
من البرق والرعد »

« * »

ما كثرت أمراض التأويل في شيء أكثرها في تعرف

(١) انتزعت نفسها كناية عن الهجر

حقيقة الجمال ؛ على أن هذه الحقيقة لا تُستخرج إلا من
الدم ؛ فلو فتّشت عليها السماء والارض فلسفةً لجئتَ فيها
بملء السماء والارض كلاماً كذبا

الجمال في حقيقته التي لا تختلفُ انما هو معنى من
المعاني الحبيبة يعلّقُ بالنفس فيُحدثُ فكراً متمكنات تطاوعُ
له هذه النفسُ العاشقة حتى ينطبع في أعصابها فيستولي
على الانسان كله بجزء من عقله ؛ ومن ثمَّ يتقيّد المحب بقيد
لا فيكاك له إذ لا يجد ما ينزعه من عقله او ينزع عقله
منه إلا ان يموت او يُجنّ ، وهو من ذلك المعنى مُحْتَبَسٌ
في قُفْلٍ لو ضغَطت عليه السموات والارض لما تَسَيَّ ولا
انكسر ، وليس الا الحبيبة وحدها هي فتحة وإغلاقه

بهذا يكون الجمال على مقدار ما يُحسِنُ الانسان أن
يفهم منه ، ثم على مقدار ما يُؤثّر من هذا الفهم ، ثم على
مقدار ما يَثْبُتُ من هذا التأثير . وتلك هي درجاته
الثلاث :

فجمالٌ تستحسنه ، وآخر تعشقه ، وجمالٌ تجنُّ به جنونا

والأول تجوُّدُ به الطبيعةُ في أشياء كثيرة بل هو الأصل في الخلق ولـكـنـا لا نـتـنبـه منه الا لما نجد فيه رَوْحاً على القلب ورقّةً للنفس وترفيهاً لهما ؛ وهذا الجمال خاضع للانسان ومن ثمَّ فلا سلطان له الا بعض الميل والرغبة في النفس ، ومنه كلُّ مناظر الطبيعة

والثاني تعلمو به الطبيعة عن هذه الطبقة وتُنزله منزلة أعلـاقـها وذخائـرها النفيسة وتتسلط به على بعض النظام الانساني كما تتسلط بهذا النظام على بعضه فيحبُّ الانسان ويسـلو ، ويمرضُ بالحب ثم يصنعُ بيده دواء مرضه ويشربُ منه السلوان والعافية إذ هو بإزاء الجمال الذي يتسلط من ناحيةٍ ويخضع من ناحية تقابلها

والثالث لا يجده من يجده الا مرة واحدة كما أنه لا يموت الا مرة واحدة ، وهو من خوارق الطبيعة التي كلُّ نظامها أن العقل لا يعرف لها نظاماً ؛ وما هو الا أن يصوّب الانسان رأسه فاذا هو عند جنون الحب واذا هو بجنونه فوق العقل والمعقول

فلمرأة في عين محبها المفتون أجمل من مسح يده الله
على وجهها من النساء فتركت الأثر الإلهي يتسلط في سحر
عينيهما ، وطبعت المعنى الناري يتلهب في شعاع خديها ،
وأودعت روح الجنة أمانة بين شفقتيها ؛ ووصلت بين
الرحمة والنفوس بذلك النور المتلألئ في ثغرها ؛ وبين
النقمة والقلوب بتلك النار المستعرة من هجرها ،
وأضافت الى النواميس النافذة في السكون فتور عينيهما
وتنهذات صدرها

ويراها المحب فما يحسب إلا أن قطعة من السماء قد
صارت ثوبا لجسمها ، وأن قدراً من الأقدار قد نشأ على
الأرض وُسِّيَ باسمها ؛ وإذا نظر اليها علم بدلالة وجهها
أنها من القمر ، وإذا نظرت هي اليه أعلمته بدلالة لحظها
أنها من القدر

وتسأل فيحل سلام الدنيا كلها في قلبه ، وتغاضيه
فيقع في حرب هذه الحياة وتقع الحياة في حربها ، وإذا
ضافت الجميلة به ساعة واحدة لم يبق له بالعمر استطاعة ،

واذا كان الهَرَمُ بالسنين الطويلة هَرِمَ في هجرها بالدقيقة
والساعة

ويرى لو أن الجمال نفسه خُلِقَ امرأةً لكانها ، ولو
جادل احدٌ في المحاسن لجمعتها المحاسنُ بُرْهَانُهَا ، فهي تُقْبَلُ
بوجهها الفتان كما تُقْبَلُ السعادة بالأمل الواسع ، وتُخْتَالُ
بمعانيها النسائية كما تهبُّ روائح الازهار في النسيم ؛ رَفَافَةٌ
على الحب كأنها خُلِقَتْ في جنة الحب رِيحَانَةٌ ، مُسْكِرَةٌ
للعاشقين كأن نهر الحمى في الجنة جعل فَمَهَا لهذا العاشق
حَانَةً ، صَافِيَةٌ يَتَرَقَّرُ في حسنهما ماء دَلَالِهَا ، وتُشْرِقُ
بالقمر الأزهر من وجهها سماء جمالها ، ولا تُشَبِّهُ الانفسها
كما لا يُشَبِّهها الا ما تُبْدِي المرأة من خيالها

وَيَغْلُو فيفسرُ النظرة منها تفسيرَ الفقيه المتكلم للآية ،
ويقفُ عند الابتسامة وقوفَ السابق اذا فاز عند الغاية ،
وينظر اليها في ثوبها ولكن كما ينظر القائد الى مجد وطنه في الراية ،
ويسمع صمتها كأنه كلامٌ بين نفسه وبينها ، ويعي كلامها فلا
تدرى أأنطقت به أم أنطقت به عينيها ؛ فهي بجملة ليس

فيها من الحسن الا وَحْيٌ وَتَنْزِيلٌ ، وهو بجملته ليس فيه
من الحب الا تفسيرٌ وتأويلٌ ، ثم هي وحدها القاعدةُ
العامّةُ في الجمال وهو وحدهُ البرهانُ والدليل

وتراه ينظر اليها ولكنه من سحر جمالها كأنه يتَوَهَّمُها ،
ويعْرِفُها ولكنه من سَطْوَةِ جلالها كأنه لا يفهمُها ، ثم تَعْلُو
فما يُشْرِقُ حسنُها عليه الا كالمعنى الازليّ من جانب في
الغَيْبِ ، ثم تَعْظُمُ فلا يُدْرِكُ ما فيها من الحقيقة السماوية الا
على طريقة أهل الارض في إدراك الحقائق العُظْمَى
بالإيمان والرَّيْبِ

« * »

تلك هي الحبيبةُ الجميلةُ لا تعرف ان كان الجمال في
شخصها أو في الجزء المتّصل منك بشخصها ، أو في الذي
هو متّصلٌ بك من شخصها . فهي جميلة من ناحيتك ومن
ناحيتها ومما بينهما ، وهذا هو الذي يجعلها فوق الجمال
الانساني بطبقتين لا تسمو امرأة الى واحدة منهما ؛
ويجعلك ترى ما فيها من الإبهام جمالاً لا تفسير له وما فيها

من التفسير جمالاً مُبهِمًا ؛ فكأنها في كل ذلك دائرة مرسومة
من الفكر لا يَهْدِيكَ البحث الى موضع طَرَفِيهَا . وهي
محيطَةٌ بروحك من ثلاث جهات فلم يبق لك الا الجهة
التي تتصل روحك منها بيد الله . وهذا هو موضع التَّأَلُّيهِ
في الجمال المعشوق ، إذ لا يَدْعُكَ الحبُّ معه الا بين شيئين
اثنين : الحبيبةِ والخالقِ

ألم تَرَ الى شعراء الدنيا وهم أنبياءُ الجمال الذين
لا تتصل ملائكتُهُ بغيرهم ولا يفهمُ غيرُهم ما يفهمون منها ؛
كيف يُشَبِّهون الحسن الرائع بكل ما في الخليقة من مظاهر
الرَّوْعَةِ ، فيتناولون من الافاق والسحب والبروق والرعود
ومن الشمس والقمر والنجوم والأفلاك ، ومن الخلدِ
والجنة والنار ؛ ويأخذون من الجبال والبحار والانهار ومن
الرياض والأزهار ثم من الطير والوحش ثم من المعادن
وأفلاذِ الأرض ، ومن كل ما خَتَمَتْ عليه يدُ الله برَّوْعَةٍ
أو طبعت عليه برهبة ؛ ويجمعون ذلك ثم يُفِيضُونَهُ في
أوصاف الجميلة وجمالها حتى كأنها ذلك السرُّ الذي قام به
(رسائل الاحزان)

حسنُ الخليفة وحتى كأن الله لم يخلقها الا ليكون كلُّ شيءٍ فيها تفسيراً لشيءٍ مافي آيةٍ من آياته . وما ذلك بمبالغة من الشعراء ولكن أرواحهم الجميلة قد أُحيطَ بها من هذا الجمال النسائي فأينما أَحْسُوا رأوا له صلةً بإحساسهم وضرب في افئدتهم عِرْقٌ منه فانقَدَحَ له شعاعٌ يطير الى الفكر لانه بعضُ القوة الموجهة اليه من الروح المفكر

إن الجميلات إنما هُنَّ كواكب الارض يدُرْنَ في أفلاك القلوب ؛ ولست ترى فلديكياً يرصدُ نجومَ السماء الا ولعينيهِ مِنْظَارٌ تَكْبَرُ فيه الاشياء ^(١) أضغافاً الى أضغافها فيدنو بالبعيد ويَجْهَرُ بالخفي . وعاشقُ الجميلة حين يهيم بها ويرصدُ منها نجمَ خياله في فلك أمانيه لا يَلْبَثُ أن يرى الجمال قد جَسَمَ فيه الحسَّ وبَسَطَ له ضوءَ الفكر ، فاذا عينه في تكبير نجمة الارض كذلك المنظار بعينه في تكبير نجمة السماء ، واذا ملئ العين حبيبُها

فيا كبدي مما ألاقى من الهوى

(١) اصطلاحوا على تسميته بالمرقب وهو التلسكوب

الرسالة الثانية عشرة

وهنا مَغَاصُ الدُّرَّةِ في أُجَجِ الحبِّ فَأُلْقِ على نَفْسِكَ
 قَبْلَ أَنْ تَقْرَأَ هذه الرسالة معنى من رُقَّةِ قلبي حتى تُؤاثِقَنِي
 على أَنِّهَا لَا تَخْرُجُ من نَفْسِي إِلَّا كَمَا أُرِيدُ أَنْ تَتَلَقَّاهَا فَلَا
 أَتَبَسَّطُ وَلَا أَتَسَرَّحُ بِكَلَامِي هَذَا إِلَّا فِي مَكَانٍ مِنْ نَفْسِكَ
 فِي مَوْضِعٍ مِنْ شَاطِئِ النَّيْلِ نَدِيٍّ ^(١) فَلَانِ الْيُونَانِي
 وَهُوَ رَجُلٌ فِي رُقَّةِ الْمَرْأَةِ يَنْهَضُ فِي خِدْمَةِ الْمَحْبِبِينَ بَقِنٍ مِنْ
 الذُّوقِ امْتَزَجٍ فِيهِ مَا تَقْتَضِيهِ جُرْءَةُ الْعَاشِقِ بِمَا يَخْتَلِجُ إِلَيْهِ
 حَيَاءُ الْمَعْشُوقِ ؛ فَتَرَى مِنْ رُقَّةِ نَدِيٍّ طَرَاذَا أَخْضَرَ
 مُفَوَّقًا ^(٢) عَلَى ثَوْبِ الْمَاءِ وَفِيهِ حَبْكٌ بَدِيعٌ مِنْ أَغْصَانِ الشَّجَرِ
 يَلُوحُ طَرَائِقُ طَرَائِقَ وَحُبَّكَ حُبَّكَ ^(٣) كَهَذَا الْإِنْكَاشِ
 الَّذِي تَرَاهُ طَرَاذَا لِأَثْوَابِ الْغَانِيَاتِ . وَتَجِدُ فِي أَطْرَافِ
 النَّدِيِّ أَشْجَارًا مَتَعَانِقَةً كُلُّ لَفِيفٍ مِنْهَا يَبْنِي بَيْتًا أَخْضَرَ

(١) وَضَعْنَاهَا لِلْمَكَانِ الَّذِي يَسْمُونَهُ (الْقَهْوَةَ) وَهِيَ أَحْسَنُ
 مَا يَوْدِي مَعْنَاهَا وَلَيْسَ أَثْقَلُ مِنْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ (مَشْرَبُ الْقَهْوَةِ)

(٢) مَنْقُوشٌ

(٣) الْحَبْكُ جَمْعُ حَبَاكَ وَالْمَحْبُوكُ الثَّوْبُ الَّذِي فِيهِ هَذَا

ستأثره من الأغصان المتدلية وجدرانها من الفروع المعروشة
وكانما زخرفَ وطُليَ وفُضِّضَ وذُهِبَ بألوان الظل والماء
والسماء وما يتسحبُ فيها

وترى الناس يستكفون^(١) حول هذه البيوت
الخضراء، ولكنك اذا احتجرت في عريشٍ منها وكنت
منفرداً أشعرك بكل المعاني أنك وحدك فلا تصلح
للجلوس فيه؛ وتساقطت عليك ظلاله أرواحاً غنيمة
تطردك طرداً ونالتك من كل ظل ثقله^(٢) لا تُحتمل كأنما
تُناجيك أن هذه الاشجار التي تشبه الضلوع ما غرست
الالقاء وكبد... وأن هذا البيت هو بيت الحب لا
يتكئ^(٣) الا عاشقين. وهديني قدماي يوماً الى ذلك
الندي بعد أن ضربت ساعة في بياض تلك الأرض
وسوادها^(٤) فملت اليه أريج فيه من الأعياء والحر فاذا
هو يهبط على نفسي بمعانيه واذا أنا من الطرب كبعض

(١) يستديرون (٢) كثقله الطعام حين يثقل على المعدة

(٣) يحتوي (٤) طامرها وغامرها

شجره أميل وأصفر وأتغنى . وأدردت عيني فأبصرتُ
 في سَرَارَةِ المِكان (١) شَجَرَاتٍ يَدْعُونِي فَقَعْتُ اليهن وما
 هناك أحدٌ غيري وغير الطير ؛ فاذا غَرَسْتُ قد تَسَطَّحَ وَآخِرُ
 قد تَفَنَّنَ (٢) وثالثٌ على ساقه كما تُقيم الخيمةَ وتَسْدِلُ
 عليها حجاباً من هنا وحجاباً من هناك . واذا رَأَيْتُهُ من
 نَفْحِ الحب وبقايا التهنيد والتشاكى ما يَكْذِبُنِي الحِسُّ فيها
 أبداً فاستخفَّتْني الأَشْواقُ وجعلت قلبي المتلهف يَنْتَفِضُ في .
 علائقه كما يَنْزُو الفارس في السرج والجواد يُخَبُّ به ويعدو

« * »

ثم تَكْوَرُ النهارُ على الليل والليلُ على النهار (٣) حتى
 أتت ساعةٌ مَوْعِدِهَا بعد أن تقدمتها حاشيةٌ عريضةٌ من
 المواعيد المكذوبة والمعاذير الملفقة والكلام الذي لا تحلُّ
 معانيه في الفاظه أبداً لأنه لغةٌ شفتيها
 وكنا نمشي وقد انتفخ النهار (٤) وبدأت الهاجرةُ

(١) وسطه وسرته (٢) تفرع . والمتسطح الممتد على الارض،

(٣) يمحق احدهما الآخر (٤) قبل الظهر بساعة فذلك انتفاخ النهار

ترتجلُ « معانيها الذهبية » في مدح الظل والماء والذسيم ؛
 وقلقَ بنا ظَهْرُ الطريقِ لامرٍ ما فقالتْ وأبصرت الندي :
 نجومز الى تلك الواحة . وتحفَى بها المكانُ حين جاءته كان
 أرواحَ الاشجار تعرفها ، فهبَّ الذسيم الراكد يجري
 وجعلت الاشجارُ يصفقُ بعضها لبعض حتى خيّل اليَّ أن
 هذه ملكة الطبيعة دخلت الى قصرها

ومشيتُ الى تلك العريشة بعينها فلما احتوتنا قلت
 هذا مجلس السلام ^(١) في هذا البيت . قالت وما باعثُ هذه
 الكلمة ؟ قلت ان كل شيء فيك ليتكلم من غير ان يضطرب به
 صوت ولقد يكون من بعض خواطري وخواطرك ما أسمع
 منه في قلبي صوتاً كصلصلة الدرع حين يقع عليها السيف
 وانك لاتدرين كيف أفهمك ؟ قالت فكيف ؟ قلت اني أفهمك
 سعادةً أخشى منها وأخافها فان السعادة ان لم تتحقق لا
 تضر الا في الحب فشرُّ أنواع السعادة فيه تلك التي لاتتحقق .
 قالت فاذن أنت تخافني ؟ قلت ولكن ذلك ليس معناه اني

(١) هو ما يسمونه قاعة الاستقبال

أخافك بل معناه أني أرجوك

قالت وعلى هذا يكون لقولك اني أرجوك معنى آخر ؟ قلت بل معانٍ عِدَّةٌ منها أني .. قالت وماذا أفهم من أني ؟ قلت أليس فيها ياء المتكلم ؟ فقالت وأي شيء في ياء المتكلم ؟ قلت بربك لا تتعنتي أليس فيها المتكلم نفسه ... ؟ فضحكت وقالت ولكن ما معنى انك ترجوني ؟ قلت : إن النبات لا ينبت الا حيث يجد عناصرَ غذائه ، وروحي قد وجدت في جمالك كل عناصر الحب فنبتت فيها نبتةٌ جديدة أخاف ان لا تنعهد بها فتذوي ؛ ومن هذا الخوف أرجوك ..

وقلبي يخشى منك على ما فيه منك فان لكل شخص ظلاً ولكن هواءك نقل ظلك الى قلبي كما تنقله آلة التصوير ؛ فان غضبت وتحولت مزق ظلك هذا القلب ليغضب ويتحول ومن خوفي هذا أرجوك ..

وكل شيء في عالم الموت يموت ويُنسَى فاذا أنت نسيتني فهذا موتي عندك ، وكل من يحب الحياة يخاف الموت

فمن هذا الخوف أرجوك...
وكلما تاتي هذه تخاف أن تحملها مَحْمِلَ الجرأة عليك
فهي كذلك من الخوف أرجوك...

قلت أفليس في الحب الا الخوف ؟ قلت فيه الرجاء
ولكنه هو الخوفُ بعينه. وللعرب خرافة جميلة في سُلْحَفَاة
يسمونها « بِنْتَ طَبَق » فيزعمون أنها تبيض تسعاً وتسعين
بيضة كلها سلاحفُ وكلها بناتها وكلها من جنسها ؛ ثم
تبيض بيضة واحدة تَنْقُفُ عَنْ حَيَّةٍ تأكل التسعة
والتسعين كلها... قالت آه. قلت وآه فلو كان لي في حبك
تسعة وتسعون رجاءاً مائة الا واحداً ثم خوفٌ واحدٌ لمحايها
كلها. فاسترسلت في إِطْرَاقَةٍ جميلة. ثم قالت : لقد جئتُ
معي بالنسخة الانجليزية ، من ديوان « عمر الخيام » ؛ إن
هذا الشاعر - ونظرت الي باسمه - حبيبٌ الى قلبي وهو
منى كالسعادة ان لم أطمع في نيلها لم أياس من قربها ولا من
الفكر فيها. كل قصيدة من قصائده تُنشِئُ فيَّ حباً
جديداً فني قلبي له أنواع كثيرة من الحب لا أدري ما هي

ولا ما الفرقُ بين نوع منها ونوع منها ولكن كلها حب
كلها حب . وهو نجم بعيد عني غير اني أراه ساطعاً وأعلم
أن في قلبي دماً يحنُّ اليه وفي هذا الدم ينغمس شعاعه
الآتي من السماء ؛ هو حيث يكون وحيث يكن فهو في قلبي
قلت واذن فلا ينبغي (للخيَّام) أن يُسلَّطَ الخوفُ
على رجائه . . ؟ فتلاً لأثرها ضحكا وقالت « الخيام » انما
هو هذا الكتاب في هذا الجلد المذهب . قلت فأنا أستنزل

روحه اليها فان في هذه القوة فلا بد له من ان يجيء
ثم أطرقتُ وجعلتُ الملح ابتسامها حين أدومُ عيني^(١)
يَمَنَةً وَيَسْرَةً ثم انتبهتُ ورميتها بنظرة ارتاعت لها روعا
ظاهراً وقلت إن روح الخيام تجيشُ في منذ الساعة وهو
يسألك هل تحبينه ؟ قالت بلى ؛ ولكن على سائلنا أن نسأله ،
فماذا يرى هو في ؟ قلت ان كل ما احتساه من الخمر فكان
لذته في الدنيا يراه الآن قد خُلق جسماً جميلاً رائع الجمال
فهو يسكر منه ولكن سكر أهل الجنة في الجنة . قالت

(١) أدبرها وأقلبها

أفلم ينس الخمر بعد؟ قال « الخيام » . . . وهل الكتاب الذي في يدك الا اسطر من شعاع الكؤوس . قالت والحبيبة الذي يذكرها فيه ؟ . فقال الخيام لو كانت مثلك لما ساغ لي ان اذكر معها الكأس، ولكني كنت أستجمع بها مناظر الجمال فان الطبيعة تزين لعين الشاعر اذا رأت معه امرأة جميلة كأنها تغار . قالت إذن كان يريد الطبيعة لا الحبيبة . قال الخيام - بل أردت ان يكون موضع تأملي جميلا بالجمال وحبيباً بالحب وتوخيّت ان تكون فيه كل عناصر الهوى . ان المسجد لا يُبْنَى في أي الامكنة بل يُختار له المكان الذي فيه عنصر الصلاح والمنفعة ، والمسجد نبات مغروس في تربة خاصة تجمع عناصر الصلاة والتسبيح والتهليل ، والخيام نبات مغروس كذلك ولكن في الورود والرياحين والالحاظ وشعاع الخمر

قالت وهل يتقبل الخيام مني اذا سألته ابياتاً جديدة قال الخيام - لقد جئت بي الى الارض فان لم تُسوِّغيني طباع اهل الارض في الحب والهوى والحنين لا استطيع

شيئا وان كان في وسعي ان اجعل كل شجرة في هذا
المكان تُنشد قصيدة خضراء بلغتها لا بلغتك

قالت بل اريد لغتنا فاني لا افهم منطق الشجر
قال الخيام — فهاتي الديوان ، ثم جعل يَزْمِزِمُ زمزمة
العجم^(١) وقلب غلاف الديوان وكتب :

صُبَّ كَأْسًا عَلَى الثَّرَى فَتَرَاهُ
عَادَ قَلْبًا يَطِيرُ فِيهِ احْتِرَاقُ

يَتَلَوَّى بِهَا وَيَهْتَرُ مِنْهَا
إِنَّهُ كَانَ أَكْبَدًا تَشْتَاقُ

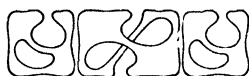
وَيَنَحُّ مَنْ أَسْكُرَتْ إِذَا تُسْكِرُ الْكَأُ
سُ وَيَاوِيحُهُمْ إِذَا مَا أَفَاقُوا

تَنْسُجُ النُّورَ وَالشَّعَاعَ خَيْوطًا
كُلُّ خَيْطٍ لِلَّهِ مِنْهُ وَثَاقُ

وَتُرِينِي السَّمَاءَ فِي سَعَةِ الصَّدِّ
رِ وَصَدْرِي بِشَمْسِهَا^(٢) آفَاقُ

(١) صوت همهمتهم وهم يزمزمون عند الشعر وغيره
(٢) تشبه الحجر بالشمس

أَحْتَسِبُهَا كَالْفَجْرِ يُعْقَبُ لَيْلًا
 أَوْ كَلِيلٍ لِلْفَجْرِ فِيهِ انْبِثَاقُ
 هَاتِيهَا فَهِيَ فِي فَمِي قِبَلَاتٌ
 وَاصْطِدَامُ الْكَؤُوسِ مِنْهَا عِنَاقُ
 وَقُرْآتُ الْآيَاتِ وَأَنَا أَتُوجِرُ كَأَن فِي الْكَرْسِيِّ
 زَلْزَلَةٌ أَوْ كَأَن فِي رَوْحِي يَضْطَرِبُ وَيَتَقَلْقَلُ؛ فَمَا انْتَهَيْتُ إِلَى
 « الْقِبَلَاتِ وَالْعِنَاقِ » حَتَّى انْقَلَبَ الْكَرْسِيُّ بِي فَاصْطَدَمْتُ
 بِهَا وَلَمْ أَقْعُ وَلَكِنْ . . . آه وَلَكِنْ وَقَعَ فِي عَلَى خَدَّهَا
 وَجَعَلْنَا (الْخِيَّامِ) كَأْسِينَ فِي يَدَيْهِ فَقَرَعَ كَأْسًا بِكَأْسٍ
 لِيَسْمَعَ مِنْهُمَا فِي صَوْتِ الْقُبْلَةِ رَنَّةٌ مُسْكِرَةٌ . . .



الرسالة الثالثة عشرة

تلك ساعةٌ لا تَطْلُعُ عليّ ذكرها الا طلوعَ الفجر
 في نور وألوان ونسيم وندى ؛ فاذا أُطْرِقَتْ فيها وتمثلَتْها
 رأيت ذلك الفجر يمتدُّ ويضطرم واذا الشمسُ قد بزغتُ
 منه تُطَوِّحُ بشعاعها من بعيد تحيةً للأرض وأهلها ؛ ثم أُمعِنُ
 فيها فترتفع وينسأحُ ^(١) ضوءها واذا بتلك الفاتنة قد
 طلعت لي من الشمس ؛ واذا نحن على تلك الطريق ، واذا
 المكانُ والزمانُ والسحر والجمال ؛ واذا نورٌ وجهها قد نبع
 فيه الضوء الأحمر من لون الحياء ؛ واذا هي واقفةٌ وعلى
 خدّها القبلةُ الاولى

لمست روعي روحها ؛ ذلك هو معنى القبلة . ولاكنها
 وقفت ذابلة يُعرَفُ فيها الحزنُ ، وكان في صدرها التنهد
 وكان في لحظها معناه ؛ أما لون التنهد فبقى على خدّها
 يا لله ما كانت الا تمثالا يريني منها صورة الاطمئنان

(١) ينبسط شعاعها

الخالئف، وما كنتُ بأزائها الا تمثالا آخر يريها منى صورة
البراءة المتَّهمة . وكنتُ أقول لها منذ هُنيهة إن الحب هو
الخوف ؛ فعلمت أن من الخوف اشياء لا شيئاً واحداً كلها
من نكد الحب : الخوفُ نفسه ثم رجاءُ ذهابه ثم خشيةُ
قدومه ثم خوفٌ ليس فيك ولكنه في النفس التي تحبها ؛
والانسان حين يرجو الاقدار يشعر بها بعيدة عنه ولكنه
حين يخافها يراها قد خالطته وكأنما تعتلجُ في جنبه وتعرُّكه
بكل أنقالها . ليس ما يُخيفنا هو ما نخشاه في الحقيقة . انما
هو قوة خفيّةٌ في الغيب تعترى القلب فتتناول منفذ
الحياة منه فتُرسل فيه ما تُرسل من الآلام الحكيمة كما
توى اللافظة من أنثى الطير حين تزقُ فرخها وعنقه المرنُ
الغصُّ ينتفضُ في منقارها ؛ وهو يكاد يختنق من طريقة
إطعامه الحياة ؛ وكذلك نتناول من السماء حكمة الآلم

« * »

ولما تصرَّمت تلك الوَهلة^(١) التي اعترتها مرَّقتُ بشفتي

(١) انكشفت الحيرة

ذلك الصمت الذي كان يغرز أنفاسي في قلبي كأن في كل نفس
إبرة نافذة وأردت الكلام فجعلت أجمعهم في عذري^(١)
وأرسل ما يحضرني من نفس الشفتين المتهمتين بالذنب ...
وهي غافلة أو متغافلة لا تأذن لكلامي أن يمر بها . ثم نظرت
فاذا في أجفانها دمة تترقق وتهم أن تنحدر . وكأنما لم
أكن عرفت ظرفها ومزاحها وميلها الى النادرة وأنه لا
يسري الهم شيء عندها كالكمة الشاعرة وأن الجبل من
جبال غيظها وغضبها تنسفه جملة مفرقة من الضحك ،
وأسمعني طبعي الجريء الذي أنكرته من يومئذ فامع
لعيني معنى جميل في دمعها فأمسكت يدها وقلت : ان
عذري اليك في اضطراب الكرسي بي وما تعدت نية
وهذه يدي لك بأن حكمك في نافذ اذا لم تنشر الصحف
اليوم أو غدا :

« حدثت زلزلة خفيفة لم تلحق ضرراً بأحد ... »
فتدافعت تتبسم وغمر وجهها معنى رقيق كالنور

(١) أعتذر من غير تصريح

الذي يسطع من خلال سحابة كانت مجتمعة ثم تَسَايَرَتْ
تَجْرُثُ سَوَادَهَا . واستتبعتُ فقلت : ذلك عهدي وأنا
مُرْتَهَنٌ بكلامي مأخوذ بأقوالي فهذا توقيعي عليها وأسرت
فقبلتُ يدها الجميلة . وحلتْ هذه الجرْءَةُ عقدة صمتها
فقلت : والعذر ذنب آخر ؟ قلت : فاذا كان ذنباً فان منه
عذراً ثانياً ولكنها أسرت فاختلجتْ يدها
وما تماسكُ ضحكاً

« * »

القبلةُ الاولى هي تلك النظرات الطويلة الحائرة في
أعين المحبين وقد ضاقت بالصمت والابهام وكثرة ما تردد
بين معنى يسأل ومعنى يُجيب ؛ فأنحدرت الى الشفاه لتخلقَ
حركةً وتتمثلَ صوتاً وتستنعلنَ للحب بكل معانيها .
فالعواطف المشبوبة والنظرات المتكلمة والابتسامات المترجم
تأخذ كلها في تأليف تاريخ الحب زمناً يقصر أو يطول .
ومتى بدأت في تدوين هذا التاريخ كانت الكلمةُ الاولى
هي القبلة الاولى

واللغات تعجز أحياناً بما نُحْمَلُهَا فلا تُحَسِّنُ التعبيرَ إذا
 كانت العاطفةُ قويةً مُهْتَاجَةً وقد نَشِبَتْ في عاطفةٍ أُخْرَى
 مثلها . فإذا ضاقت الروح بهذا العِيِّ عَمَدَتْ إلى لغتها الأولى
 فأرسلت العاطفة لونا في الوجه إذا كانت حياءً أو خوفاً ؛
 ورعدةً في الجسم إذا كانت فزعاً أو محملاً ؛ ودمعاً في العين
 ان كانت حزناً أو قهراً ؛ وضحكا وابتساما ان كانت إعجاباً
 وطرباً . فإذا كانت العاطفة وجداً ولوعةً وقد استفاضت
 بين روحيين ؛ دنت أحدهما من الأخرى فستَّها بشفقتها
 فيكون هذا اللمسُ بأداة النطق هو ابلغُ النطق
 إنماتحمةُ الفكر ردُّ كلمة بكلمة ؛ وتحية النفس هزَّ
 يد بيد ؛ وتحية القلب لمسُ شَفَةِ بِشَفِهِ



الرسالة الرابعة عشرة

كَمْ أَسْأَلُ الدُّرَّ عَنْ مَعْنَاكَ بِاسْمَةٍ
وَالْوَرْدَ عَنْ لَفْظَةٍ قَدْ أَطْبَقَتْ فَكِ
لَا الدُّرُّ يَدْرِي وَلَا فِي الْوَرْدِ نِي خَبَرٌ
أَدْوِيهِ عَنْ شَفَتَيْكَ أَوْ ثَنَائِكَ
يَا نَجْمَةً أَنَا فِي أَفْلَاكِهَا قَمَرٌ
مَنْ جَذَبَهَا لِي قَدْ أَضَلَّتْ أَفْلَاكِ
النَّارُ بِالنَّارِ لَا تُطْفَأُ إِذَا اتَّصَلَتْ
فَكَيْفَ أَصْنَعُ فِي قَلْبِي لِيَنْسَاكَ؟

أَهْ أَيْهَا الْعَزِيزُ إِنِّ صَدْرِي لِيَنْشَقُّ لِهَذِهِ الْأُيُوتِ وَإِنْ
لَهَا لَعَمَزٌ عَلَى فُؤَادِي لَا يَسْكُنُ وَإِنِّي لَا رَتَمَ بِهَا كَأَنَّ
فِي كُلِّ بَيْتٍ مِنْهَا نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِ الْحُمَّى . هِيَ الْحَاضِرَةُ أَوَّلُ
الْقَاءِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا سَاعَةٌ كَانَتْ تَنْزِعُ الْفَاضِلَ مِنْ قَلْبِي فَالْتَوَى
عَلَيْهِ لَا تَنْزِعْهُ مِنَ الْفَاضِلِ ؛ وَكُنْتُ مُسَاهِمًا عَنِ الْقَدَرِ وَعَيْنِ
الْقَدَرِ ذَاكِيَةً عَلَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ وَلَا أَدْرِي

لقيمَتِهَا وما أريد الهوى ولا تَعَمَّده قلبي ولا أحسب
أن فيها أموراً استؤمل ما لها ^(١)؛ وكنت أظن أن المستحيل
قسمان : ما يستحيل وقوعه فلا تُفْضِي اليه وما يمكن وقوعه
فتُهمله فلا يُفْضِي اليك . ولكن حين توجد المعجزة تبطل
الحيلة ومتى استَطرَدَكَ ^(٢) القَدَرُ الذى لا مَفَرَّ منه أقبل
بك على ما كنتَ منه تَفِرُّ

ان لهذا العقل جَمَحَاتٍ تَرُدُّه أحياناً الى طبيعته الاولى
من الطفولة التى غَشِيَتْهَا الايامُ والليالى والافكارُ والحواس
فيرجع الرجل طفلاً صغيراً لا يدري كيف يُمَيِّزُ ؛ ولقد
يكون وما يُشَبِّه رأيه رأيي ولا يَتَمَلَّقُ بصوابه صواب وان
عقله لكالنجم من أيِّ أقطاره اقْتَحَمْتَهُ عيناك رأيتَه نارا
وشعاعاً . غير أنه متى بلغ تلك السَّوْرَةَ فَجَمَعَ عقله أُسرعت
منه الفَيَأةُ ^(٣) الى حالته الاولى فانتهبت الطفولة فيه فعاد
كالطفل . فاذا جَاءَ الحبُّ فى عين امرأة رأيتَه لا يبالي الا
ما عرف فى عهده الاول من تَحَنُّنٍ للمرأة عليه وانعطافها

^(١) أي تنتج نتائجها ^(٢) ساقك أمامه ^(٣) الفَيَأة الرجوع

له ؛ وَرَجَعَ الى « عصره النسائي » فترى الدنيا بما وَسِعَتْ
لا تعدل في عينه الصدرَ الجميل الذي يترامى عليه ، وتموت
المطامع فيه وترجع كلها الى محصول واحد من ذلك الفم
الذي يحبُّه ، وتعود لغة الحياة عنده كلغتها الاولى في إشارة
أو كلمة أو ابتسامة أو قُبلة

ان الطفولة تَكْبَرُ فينا ولا ندرى ؛ ودع الناس
يسمون حماقة الانسان بما شاؤوا فهي انتباه الطفولة
فيه ومُحَاجَزَتُهَا في ساعة من الساعات التي يَجْمَعُ فيها العقل
بين ذات نفسه وبين صفاتِ نفسه

« * »

لا يريد الهمُّ منك اكثر من أن تريده فيأني ؛ وحتى
لو زَوَيْتَ جلدة وجهك ^(١) حكايةً وتمثيلاً لطلع مما بين
عينيك فهو مقيم في أعصاب كل انسان ؛ لا يبرح الانسان
يؤدِّي اليه شيئاً ويحمل منه شيئاً يُؤدِّيهِ ، بل هو نصفُ
مكروبات الدم الانساني . . . ولذلك قالوا : إن القلب

(١) قبضتها كما يفعل العابس

المبتهج يقتل من المكروبات أكثر مما يقتل أقوى
المطهرات . وهم الحب هم على حدة لانه لا يكون فيك بل
يتصل بك من أعصاب أخرى ودم آخر . وما أحسب أن
ألاحظ المرأة الجميلة يكون فيها ذلك الفتور وذلك التكرس
الابما تحمل من الاشعة المسمومة ؛ تلك الاشعة التي متى
وقعت في الدم الذي يقبلها ويتأثر لها طبعته في كل ذرة منه
صورة من صور تلك المرأة

هذا هم الحب ولكن مجيئه هم آخر لانه يتهمكم
بالناس فلا يأتهم بكنهه وحقيقته الا في أسلوب الحظ
والسعادة ثم لا يأتى الا اتفاقا ومصادفة في ساعة ترتجف
كانها وقعت الى هذا الزمن خطأ . أو كأنها تحس بما
فيها من الجور والقتل ، أو كأنها خلقت مرتجفة متزلزلة
ليتأتى لها أن تزحزح الطبيعة الانسانية وتطيش بها حتى
في جبابرة العقول الذين رسخت طباعهم بجمال من الاخلاق
الراسية تمنعها أن تميد أو تنزحزح . السرور والحب كلاهما
يأتى اتفاقا ؛ ولعلك لا تجد في كل ماعرفوا به السعادة أصح

ولا أوفى من أن تقول إن السعادة هي نفس هذا الاتفاق
حين يتفق السرور أو الحب

((*))

والجناح الكبير إنما خلق كبيرا ليأكل الأجنحة
الصغيرة . ولما لقيتها كانت ألحظها تقول لي بفصاحة
أوضح من نور الصباح : أنت فريسي ؛ وكانت ترفرف
على فأتدسّم منها هواءاً يذهلني كما تذهل العصافير الصغيرة
للجارج المنقضّ عليها . وتحولتُ أسرع مما أرادت بي
وكنتُ ذا عزيمة قوية مضية كالنهار الذي يتغذى من دم
الشمس فما أسرع مافتح هذا القمرُ بابَ سماءه وطلع على
من سحره بمثل ما يطلع قرُ الأرض على الأرض فيُبدي لها
من نهارها ذلك الصباح الرطب المريض الذي تتخايكُ
فيه الظلالُ والنّسماتُ حتى يأذن الله فتُنجي آية الليل
الأَسود وتطوى آية القمر الأبيض

كنتُ كذلك البطل الذي أكدى مرةً في قتال خصمه
ورجع كما يرجع الجبان فعيّروه فقال والله ما كنتُ جباناً

ولكنى زاولتُ أمراً مُؤَجَّلاً^(١). وتالله ما كنتُ ضعيفاً
ولكنى دافعتُ قدراً معجَّلاً لا يُدْفَعُ

« * »

وحاولتُ أيها العزيزُ ان اكتب اليك وانا في هذا
الموت فصنفتُ كلماتٍ ثم خشيتُ أن أرتادَ أحداً
لسري حفظته فيها وتركتها بين أوراقى ؛ وكان قلبى
يحدثنى أنه يَسْتَرُوحُ من هذه الصحيفة رائحة صفحات
كثيرة سأكتبها ؛ وقلتُ إنه حب أبيض لا ينبغي الا
أن يكون منسياً او سراً مُضمَراً او على الاقل شيئاً غير
ظاهر . أما الآن فانى مرسل اليك ما كتبت ؛ ولتجدنَّ
هذه الاسطر وما فيها الا قلبٌ يتمزق ونفسٌ مُضْغَضَةٌ
وكأنما هي من بكاء أعصابى المتألِّمة . واذا رأيتَ بلداً سال بها
السَّيْلُ أو مدينةً جاشَ بها البحر فاعلم ان لهما ثالثاً في معنى
الخراب وهو العاشق الذي يَغْمُرُهُ الدمع . وها هي الرسالة :
(١) اكدى أى أخفق ويريد البطل انه لا حيلة له في أن
يفرغ من عمر لم تفرغ مدته

أكتب اليك وأنا في حال هي من شدة الوضوح قد
صارت في شدة الغموض وأية حال تظنها؟ سيذهب بك
الظن الى الموت فهو أخفى ما ظهر من اسرار الانسانية،
ولكن هناك موتاً لا ينقل من الدنيا الى الآخرة بل من
نصف الدنيا الى نصفها الآخر وهو في أسرار
الانسانية عكس ذلك لانه أظهر ما أخفى، وهو الحب
علامة هذا الموت الصغير أن يقع كل شيء منك في غير
موقعه حتى لوجاءك اليقين لا نقب شكاً ولولمست الحقيقة
لاستحالت شُبْهة، ثم تجد في أسباب الحياة ما يجد المريض
في أصناف الطعام لان العلة المستقرة فيه تجعل في كل شيء له
علة منها. وترى كل ما أنت ناظره يُوسّوسُ في نفسك بلغةٍ
ما ولمعنى ما حتى لا يترامى أمرُّك الا الى الوسواس
والباطيل كأن جماعة من الشياطين ارتجت في صدرك فلا
يهدأ أبداً. وتحسب الأرض قد نبئت بك وثقلت عليها
كأنها لا تستطيع أن تحملك أنت واعتقادك الجديد . . . وما
اعتقادك هذا الا انك ترى الناس جميعاً قد تغيروا فلا

تصيب بينهم موضعاً تكون نفسك فيه هي نفسك الا
 ذلك الموضع الذي يضم من تهواها ؛ أما سائر الامكنة
 واما سائر الناس فانت منهم في رأي نفسك كالمُصَحَّف
 في بيت الزنديق المُلحد، يُظلم في كل شئ في الوضع
 وفي الاستعمال وفي الاعتقاد وحتى في النظر اليه . . .
 وتستحيل فيهم بشخصك الواحد الى اثنين معهما خيال
 شخص ثالث . . . فلا ترى الا أن نصفك يتحرّزُ للنصف
 الآخر في كل ما تراه . وهذا النصف الآخر يكون في
 بلائه كالطائر الذي وقع من الجو بسهم فلما أحسَّ الارضَ
 جعل يهيمُ ويُدارِكُ الضربَ بجناحيه ويكبدُ ويعنفُ
 على نفسه ولكنه لا يطير ؛ وكما اراد أن يثب الى السماء
 وجد آلتها فيه مختلة ترُجفُ وتضطرب ولكنها لا تعملو ؛
 وقصر جناحه فلصق بالارض وجاءه الموتُ من كل مكان
 وما هو بميت

تُبغِضُ العيشَ وتُبغِضُ الحياةَ وتُبغِضُ الناسَ ؛ تبغض
 ثلاث مرات لانك أحبيت مرة واحدة ، وهذا كله اذا

كانت من تحبها لا تدري بهواك أو كانت تدري ولكنها
لا تستطيع أو كانت تستطيع ولكن ... آه يا عزيزي لا بد
في لغة الحب من « لكن » إذا كانت المرأة تعرف لغة الحب
يا ويلتنا لقد انتهت إلى أنني أخاطبك كأنك انت
المبتلى ... فلعلك عاذري فان هذه طبيعة النفس الحزينة
تريد ان تكون مصائبها في سواها ولو على ورقة ... لم
يبق مني الا جزء قليل من شخصيتي القديمة اما اكثرها
فضاع ضياعه أو أصبحت لا أملكه . ولكن هذا الجزء
الباقى يُفْسِح لي مذهب النفس فارانى كأنما أستقبل
السموات وأحويها في صدري ، وارى بعيني مجموعي
الانساني كله واضحا يتسألى ، وأشعر أنى عقل من هذه
العقول التي تُشرف على الدنيا وتعمل في نظامها
ولا أثقل على نفسى من الناس فان ظلالهم تهبط على
قلبي المتألم بأشباح ممسوخة وأراهم على وتيرة واحدة في
ثقل الروح وسواد الظل ؛ ولا ذنب لهم غير ان ولياً من
اصفياء الله خرج يتوضأ يوماً وقد اقبل الناس على وضوءهم

فَكَشَفَ اللَّهُ عَنْهُ حِجَابَ الْحَيَوَانِيَةِ فَنَظَرَ فَإِذَا لِكُلِّ رَجُلٍ وَجَهُ وَلِكُلِّ وَجْهٍ سَخْنَةٌ حَيَوَانٌ وَلِكُلِّ حَيَوَانٍ مَعْنًى وَإِذَا شَهَوَاتُ أَنْفُسِهِمْ قَدْ مَسَخَتْهُمْ مَسَخًا وَفَاءَتْ ظِلَالُهَا عَلَى وَجُوهِهِمْ بِجُلُودِ الْحَمِيرِ وَالْبِغَالِ وَالْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ وَمَادِبٍّ وَدَرَجٍ . فَاللَّهُمَّ غَوِّائِكَ لَا هَلْ الْنَفُوسُ (١) .

وهذا الحب حاسة في الروح فهو ولا ريب يستثقل كل ما يُنافِرُهُ من الطبائع ، طبائع هؤلاء الذين يَتَرَفَّقُونَ للعيش (٢) بأيديهم وأرجلهم وأبدانهم وقلوبهم وأنفسهم فيُثِيرُونَ في كل سبيل غُبَارَ الْحَيَوَانِيَةِ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ رُوحَانِيٍّ فَلَا يَكُونُونَ عَلَيْهِ إِلَّا أَلْمَاءَ وَمَضْضًا وَشِدَّةً مِنَ الشَّدَةِ ؛ وَكَثِيرًا مَا يُخَيَّلُ إِلَيَّ فَيَمْنٌ حَوْلِي مِمَّنْ أَخَالَطَهُمْ اضْطِرَارًا أَنَّهُمْ ثَعَالِبٌ أَطْلَعَ عَلَيْهِمْ بَرَاثِمَةَ الْأَسَدِ الضَّارِي .

ان عواطفى تغلي وتستفز في مثل المرجل من إرادتى العنيفة المصبوبة من فولاذ الكبرياء ولست أخشى في هذا الحب إلا انفجار هذه الإرادة التى هي وعاء النفس

(١) أي أغث (٢) يعملون للعيش والكسب

فإنها ان تنفجر ذهبت قطعاً مُبَعَثَةً على كل كسر منها
كسر منى . فهل تنفجر يوماً ؟

ما أشدَّ هذه الأيام الحادَّة . إنها كسَلٌ نُصِبتْ لى
درجائها من سيوف مسنونة ؛ فى كل يوم جرح ينفجر
بالدم ولـكل يوم عذاب وتقطيع فى الجرح نفسه ؛ لراحة
فى الصعود ولا فى الوقوف ولا فى النزول ، وكلَّ يوم
يقول لى حبها تعلق بيديك الممزعتين على حد هذا السيف
وضع قدميك الممزقتين على حد ذاك السيف ؛ واصعد



الرسالة الخامسة عشرة

إن كل ماسطرتُ في هذه الرسائل قد انعقد همُّه
وسواده فكان عَجَاجَةً نائرة من حرب الهوى ؛ ليس تحتها
في حَوْمَةِ القلب إلا ألم كضربة سيف أو طعنة رمح أو
كَيْةٍ برصاصة ملتهبة حمراء . احتلَّتْ نفسى ^(١) عما كانت
فيه من الغيظ والموجدة ودافعتها وغالبتها حتى وقفتُ بها على
صِراط النسيان ولسكنى في ذلك إنما كنتُ كناقش الشوكة
بالشوكة ^(٢) يعالج وَخْزَةً واحدة بوخزات كثيرة ويكشف
عن حُمة العقرب النباتية بِحُمة مثلها ؛ وما زلتُ أنُكْتُ
بسنِّ هذا القلم في صميم هذا القلب حتى فاض في صفحات
هذا الكتاب

قَبْضَةٌ من هذه الاوراق جعلت بينى وبين تلك
الحبيبة ما تجعل قبضة من التراب بين الحى والميت . إذ تَنْزُرُ
يَدُ الموت من ذراتها عوالمَ أبديةً بينك وبين من تحبُّ
أو من كنت تحب

(١) أي حولتها (٢) يقولها العامة ناكش الشوكة

حسوتُ كَأْسَ الحُبِّ فدارتُ في دمي وانحدرتُ الى قلبي
وصعدتُ الى رَأْسِي وهذه الرسائل هي الحقيقةُ التي كانت
في خمرها قَطَرَتْ من القلمِ كلاماً ومعاني . ومنذ اليوم
سأضعُ العقلَ بيني وبين تلك الكَأْسِ فلا أراها الا جنونا
ملوناً ومرصناً مُزَخْرَفاً ثم لا أراها الا حُلماً خمرِياً زاهياً
إن حَسُنَ بالنائم أن يَسْتَغْرِقَ فيه لا يحسنُ بالمتيقظ أن يُلَمَّ
به ؛ ثم لا أعرفها الا شيئاً يجب اطرأحه إن لم تدعهُ لآلئه
إثم فلتدعهُ لآلئه ذم

اضطربت النار فأكل بعضها بعضاً وهذه الرسائل
هي صوتُ الماء الذي صُبَّ عليها لِيُطْفِئَهَا فزفرتُ به
الزفرةَ الأخيرة ؛ ومات الهوى لما أُصِيبَتْ مقاتله

« * »

تلك مسألة امتحنتني الحياة بها فما كان أجهلني إذ
ركبتُ فيها الشبهةَ أَصْرَفُهَا بعنان الحيرة فمضتُ تتخبطني .
إن عجباني المجنون أخرج لي من الحقيقة الصغيرة على الارض
خيالاً في قَدَرِ السماء يتلألأ في عين الشمس على أجنحة

الملائكة . وكذلك الجهل في الانسان يُخرج له من كل مسألة
سهلة الحل مسألة لا تُحل أبداً فلا يبرحُ الفكر يضرب فيها
مُقبلاً ومُدبراً ولا ينفذ اليها الا من الجهات المستحيلة التي
لا يخرج الصوابُ لامن واحدة منها ولا منها كلها
والخطأ ههنا من لاشيء وليكن اسمه بعد ذلك ما يُسمى .
سمه مسألة فارغة أو مشكلة دقيقة أو رذيلة جميلة أو حباً أو
امراً . . . او ماشئت ؛ هو على كل ذلك خطأ من لاشيء

« * »

إنَّ مَسَّ استقلال دولة من الدول العظمى قد يكون
أحياناً أيسر وأهون من مَسَّ استقلال نفس من
النفوس الكبيرة

وفي الدم الكريم قانونٌ أذلي يرثه المرء من سلسلة
طويلة من أجداد كرام ؛ فاذا انتهك هذا القانون الالهى
وخاضت في ذلك الدم مهانةٌ أو مخزاة ، انتفض أولئك
الأموات العظماء فيه واضطربوا كما موج البحر في البحر ،

وتحولت فَطَرَاتُ الدم العريق الى لَمَحْ بَاصِرٍ ^(١) كَأَنَّ كل
قطرة منه تَفُورُ على حَدِّ سيفٍ مُجَرَّدٍ من غَمَدِهِ ؛ وامتلات
عروقُ الحى أصواتاً داويةً كصلصلة السلاح فى المعركة ؛
وترى ذلك الدمَ الكريمَ يَتَرَفَّقُ ثُمَّ يَتَعَقَّدُ ثم يَلْتَفُّ على
الجُرثومة التى دَلَّستَه فينفجر بها انفجَارُ البركان لا يَدْعُ
الصخر صَخْرًا ولا الحديد حديدًا ولا التراب ترابًا بل يُذَيِّبُهَا
كَلِّهَا فى حَمِيمٍ ^(٢) واحد يَجْمَعُ صُورَهَا النافعةَ المختلفةَ فى
صورة بغیضةٍ مُهْلِكَةٍ تُدَمِّرُ كلَّ شَيْءٍ
كَذَلِكَ حُكْمُ قَانُونِ الدم ؛ وَكَذَلِكَ حَكْمُ هَذَا

القانونُ فَقَضَى فى دَمِي وَدَمِهَا

أَيُّهَا الْجَمِيلُ الَّذِي يَحْسِبُ كُلَّ شَيْءٍ مَوْطِئًا قَدَمِيهِ . ان
ذَلَّ لَكَ الْحَيَّ بِدَمَوْعِهِ لَمْ يَذَلَّ لَكَ الْأَمْوَاتُ الْعِظَاءُ الَّذِينَ
اسْتَوْدَعُوا لَأَيَّ كَبْرِيَائِهِمُ الْكَرِيمَةِ فى الْأَصْدَافِ مِنْ عِظَامِهِ
تَحْتَ الْأَمْوَاجِ الْجَيَّاشَةِ مِنْ دَمِهِ الْحَرِّ ، وَمَنْ لَمْ تُعِزَّهُ نَفْسُهُ
فَلَا يَصْلُحُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ رَجُلًا لَا يَصْلُحُ . . .

(١) النظر بتحديد كما يفعل العدو المبغض (٢) اصله الماء الحار

خاتمة الكتاب

اجتمعت في هذه الرسائل عواطف الحب تتساقط
معانيها دون حوادثها على نسق الشعر والفكرة لا على
سرد التاريخ والرواية ، إذ لم يكن الغرض منها حكاية
نفسين بل صفة نفس صريحة لنفس مُعَقَّدة فلما
صممتُ ألفتها وهياأتها للطبع أدتُ الرأي فيما أرضاه منها
وما لا أرضاه وما زلتُ بها على ما يختلط فيها من الحب
والبغض حتى خرجتُ كما يخرج الماء الصافي من الماء السكر
وجاءت كما ترى نقيّةً بيضاء ليلها كسهارها

« * »

ان ساعة من ساعات هذا الضعف الانساني الذي
نسميه (الحب) تُنشئ للقلب تاريخاً طويلاً من العذاب إن
لم تكن آلامه هي لذاته بعينها فهي أسباب لذاته ؛ ومن
ثم يشتبه الأمر على المحبين اذا استقروا فيهم فورد الغضب
من أحبوا . فلا تجد في البغضاء عندهم أبغض من طريقة
إظهارها حتى إن نيران قلوبهم لتخاق منها الشياطين ؛ ولقد

كان في هذه الرسائل كلام يَدْوِي كَهَزِيْرٌ^(١) السحابة الحمراء
تنطلق من الرصاص في معركة حامية لَتُمْطَرُ مطر الموت
والألم والوجع، فلم تُثْبِتْ منه إلا كما ترى من ضبابة البخار
فوق المَرَجَلِ الذي يَعْلِي، ومن ألوان البرق تَلْمَحُ من
صواعقها لَمَحًا

ألا كم في هذا الحب من العجائب المتنافضة حتى إن
فضيلة الصبر في العاشق هي نفسها رذيلة الغضب فيه،
كلما طال صبره طال غضبه، وتراه يُبْغِضُ بأقوى ما في
نفسه فلا يكون ذلك إلا إخفاءً لضعف ما في قلبه، وإذا
تَرَامَى في أطراف الأرض اينأى عن حبيبته رأيته من أيِّ
عِطْفِيَةٍ التَفَتَ^(٢) لا يجد إلا خيال حبيبته، ومهما تَطَرَّحَ
قلبه في مَطَارِحِ السُّلُوانِ فلن يكون إلا كمقرب الساعة
تَعْمَلُ كل قواها في إبعاده عن « الثانية عشرة » ليرجع
دائمًا بنفس هذه القُوى الى الثانية عشرة نفسها

والعاشق هو وحده المخلوق الغريب الذي ترى

(١) الهزير صوت الريح تصفر به (٢) من أي جانبيه التفت

الاحلام في عينيه وهو يقظان يعقل ويعي . فليست الحبيبة في عينه امرأة كغيرها من الناس ، وانما تُخرجها له جملة من الصفات الغريبة التي فيها لتقابل جملة أخرى من الصفات الغريبة التي فيه ؛ ومتى كان الأمر غريباً نادراً من طرفه في النظر والاعتقاد لم يبق فيه موضع يكرر الحكيم عليه بأنه من الاشياء المألوفة التي جرت بها العادة . وتلك هي معضلة الحب التي جعلت من بعض النساء الضعيفات هزلاً أدوع من الجدة ومن بعض الرجال الأقوياء جدّاً أسخف من الهزل ؛ معضلة لا تحل أبداً ما دامت بين الحبيب ومحبه إذ لا تجيء ولا تكون ولا تستمر الا كما تجيء وتكون وتستمر ؛ وانما مثاها كذلك الانكاس الذي لا يستوي له بحال من الأحوال أن يظهر الكتابة على المرأة المقلوبة أبداً

«*»

كل معنى انساني في الحبيب يكون دائماً وراءه معنى غير انساني في وهم الحب ؛ فالمعشوق مجتمع من إنسانيتين

مَتَبَايِنَتَيْنِ وهذا هو كل السر في انفراده عند من يهواه
مادام يهواه

وأظهرنى صديقى على رسم صاحبتة التى يصفها فى هذه
الرسائل أوصافاً كَثُغُورِ الحسان لا تَفْتَرُّ الا عن أوَّلُوها فما
رأيتها فى الجلال خارجةً من الجنة ولا سابحة مع الملائكة ،
إن هي الا واحدةٌ من خمسين من كل مئة فى النساء (١)
ولكنى أشهد أن عينيها كأنهما غير إنسانيتين ، لو كانتا
فى أَسَدٍ ضَارٍ لادتمى عليه العاشق من تلقاء نفسه ليفترسه .
فيهما يَدْنَةٌ صريحة على أن هذه المرأة الشاذة إن أحببت لم
يعرف أحد غيرهما كيف أظهر حبها ، فربما آذنت منها
الفرة أو الإعراض أو البغض مَلَاكَةً فما فوقها ومع ذلك
يكون هذا هو حبها الذى اشْتَلَيْتْ بكتمانها أكثر مما
ابتليت به

وإذا كانت القدرة الأُزلية تصطنى من نوابغ العقل
والشعور من تُكْأَشِفُهُمْ بيمض أسرار التعبير فى مَلَكُوتِ

(١) الخمسون نصف المئة . . . وأعتذر الى صديقي

السموات والأرض ؛ جاعلةً وسيلتها الى ذلك ملكاً أو
 شيطاناً أو امرأة كأحدهما... فتلك التي رأيتها امرأة كأحدهما
 ولكن لا تدعك أسرار عينيها تعرف أيهما هي ؟

« * »

ليس ببعيد أن تكون هذه القلوبُ الانسانيةُ ينظر
 بعضها في بعض أحياناً على شمع الروح كما يترأى الوجهُ
 للوجه في سراج العين ، ومن ثمَّ يكون اختلافُ كل
 عاشق مع الناس أجمعين في تقدير الجمال الذي يعشقه
 واعتباره إذ لا يُقدَّر بعينه ولا بعقله ولكن بقلبه . ولقد
 حاورتُ الصديق يوماً في جمال صاحبتِه تلك فقال إنني أرى
 ما لا ترى فان قلبي ينظر في قلبها كما تنظر أنت في وجهها ؛
 ومتى جادت محباً في هواه صارت الحبيبةُ في جدالكما
 كالفلسفة تراها عند أهلها إيضاحاً لشيء مُعقَّد فاذا تناولها
 غيرُ أهلها انقلبت تعقيداً لشيء واضح وإن المرأة
 الجميلة في رأيي هي تلك التي أرفعُ روعي إليها إذ لستُ
 أفهمُ من معنى الحب الا أن الروح اهتدت الى شيء من

سرّ الانسانية في إنسان جميل قد استطاع بجماله أن يهديها
الى هذا السر

ولما يبس ما بينه وبينها واجّ في غضبه منها سألته
رأيه في « إيضاح المعقّد . . . » ^(١) فقال أيتها الرجل ! اذا
مدحت امرأة جميلة فلا تقل ما أجمها بل قل ما أجمّل الشرّ

« * »

أَهْ مِنْ الدُّنْيَا وَمِنْ قَدَرٍ عَلَى الدُّنْيَا حَكَمٌ
الْبُغْضُ شَيْءٌ مُؤَلِّمٌ وَالْحُبُّ شَيْءٌ كَالْأَلَمِ

تنبيه

هذا الذى أصدرناه من « رسائل الاحزان » انما هو نصف
كتاب الحب . وبقي نصفه الآخر الذى يحتوى رسائله اليها
ورسائلها اليه وسنخرجه ان شاء الله كتابا على حدة ان أذنت
هي في نشر رسائلها . فان لم تأذن دلويناه وبقي النهار مشرقا على
نصف الأرض والليل مظلماً على نصفها الثانى

(١) أي حبيبته التى شبهها بالفلسفة

خطأ وصوابه

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
١٤	١٥	وغير	غير
٢٥	١	بسر	وسر
٣٩	١٠	رهج ^ة	رهج ^ة
٨٦	١٤	الحل	الحل
١٢٥	١٤	على النجم	عن النجم
١٤٠	٢	عليها السماء	عنها السماء

ولعله فائنا ما لا يفوت القراء مما يذبه على نفسه

طبع هذا الكتاب من الصفحة ١١٣ في

المطبعة السلفية - ومكتبتها

في شارع حيرت رقم ٤٠ بمصر

السَّحَابُ الْأَحْمَرُ

﴿ تكملة على ﴾

رسائل الأئحزان

في فلسفة الجمال والحب

بقلم
مصطفى صادق الرافعي

حقوق الطبع محفوظة

المطبعة السلفية - بمصر

سنة ١٣٤٣ هـ - ١٩٢٤ م

مؤلفات صاحب الكتاب

تاريخ آداب العرب الجزء الأول في تاريخ اللغة ودرايتها

« « « (الثاني) في إعجاز القرآن

« « « (الثالث) في تاريخ الخطابة

والأمثال والشعر «تحت الطبع»

ديوان الرافعي — ثلاثة أجزاء

« النظرات

كتاب المساكين

حديث القمر

رسائل الأحرار (في فلسفة الجمال والحب)

النشيد المصري الوطني وتاريخه في «الطبعة الثانية»

نشيد سعد باشا زغلول وتاريخه



مقدمة

لما كتبتُ « رسائل الأحران » ، في فلسفة الجمال والحب « كنت في تديره والرأي فيه كمن يُورِّخ عهداً من شبابه بعد أن رَقَّتْ سِنُهُ ^(١) وذهب يقينه من الدنيا ولم يبق الا ظنه ، فهو يكتب والكلام يحنُّ لَدَيْهِ ، والقلم يئنُّ في يديه ، وكل وصف جاء به من الشباب قال رحمة الله عليه . . . وكنت أعلق بأطراف اللغة التي فرَّتْ من الحياة معانيها ، وذهب نورها وظلاؤها في أيامها ولياليها ، فكان قلبي هو الذي يكتبها ولكن قلبي هو الذي يُملِيها .

لغة الأحلام التي تعبُرُ عن الحقائق على نحو ما وقعت

(١) شاخ وهرم ومتى بلغ الانسان هذه السن كانت لذات الدنيا كلها ظنوننا في نفسه ، وبعد عن يقينها وحقائقها بعده عن شبابه وقواه

يوماً لا على نحو ماتقع كل يوم ، فهي تترجم للحياة في زمن
من العمر تاريخ هذه الحياة نفسها في زمن آخر ، وتُرجع
الانسان كله لبقيته الباقية ، وتأتي في الكلام لغير جدال ،
كما تأتي الأجوبةُ المقاطعة على أسئلتها

وهي لغةُ الماضي التي تحملُ ماحمَلتَ عليها لانها صافية
كالق منزهةٌ عن الرّيب كالواقع ؛ فاذا وصفتَ بها الخير
كانت كالمرآة المجلّوة أشرق فيها وجه جميل فملاً صفاءها
جمالاً وفتنة ؛ واذا صورتَ بها الشر كانت كالمرآة ووجه
الزنجي يملأها سوادا وليكنه لا يطمس على شعاع
وتضيف الى سواده لمعان نورها مادام فيها

« * »

كتبته بلغة الأحلام ؛ والأحلامُ هذه انما هي بعضُ
مامات منا أو مامات لنا ؛ فان استحال رجوعنا في هذا
العمر عوداً على الماضي فهي رجوعُ الماضي اليّنا ؛ ومن ثمَّ
كان في لغتها شيء ظاهر من روعة الخلق وكانت له

مَعَانٍ كَأَنَّهَا رَاجِعَةٌ مِنْ سَفَرٍ بَعِيدٍ إِلَى شَوْقٍ طَالٍ بِهِ الصَّبْرُ .
 كَتَبْتُ كِتَابَةً قَالَ الْغَافِلُونَ إِنِّي اتَّكَلَّفْتُ لَهَا خَيَالاً
 وَرَوَايَةً ، وَقَالَ الْعَاشِقُونَ إِنَّهَا كَلَامٌ قُلُوبِهِمْ ، وَقَالَ الَّذِينَ
 يَفْهَمُونَ الْكَلَامَ إِنَّهُ هُوَ فِي كَلَامِهِ . وَلَقَدْ كُنْتُ مِنْ نَفْسِي
 يَوْمَئِذٍ كَمَنْ لَوْ ضَرَبَهُ الْحُبُّ بِقَشَةٍ لَجَرَحَهُ جَرْحاً يَذْمَى ^(١)
 وَكُنْتُ أَكْتُبُ عَنْ سَاحِرَةٍ تَبَسُّمُ حَتَّى لَتَظُنُّ أَنَّهَا لَمْ
 تُؤْتِ وَجْهًا تَعْبَسُ بِهِ ثُمَّ تَكُونُ مَعَ ذَلِكَ شَرًّا مَا هِيَ كَائِنَةٌ
 مِنْ حَيْثُ لَا تَظُنُّ أَنَّتِ بِهَا إِلَّا الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَأَهْدَى .
 وَكُنْتُ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ شَاعِراً وَحُبُّ الشَّاعِرِ لَا يَخْلُو مِنَ
 الْوِزْنِ وَكُنْتُ مُتَفَلِّسًا وَهِيَّاتٍ إِنْ أَصَبْتُ الْحُبَّ
 أَيُّهَا الْفِيلَسُوفُ إِلَّا فِي امْرَأَةٍ مَعْقُودَةٍ يُؤَلِّفُهَا اللَّهُ تَأْلِيفًا مِنْ
 الْعُسْرِ بَيْنَ فَهْمِكَ وَمَعَانِيهَا ، فَلَا جَرَمَ كَانَ الْكِتَابُ فِي نَوْعٍ
 مِنَ الْحُبِّ الْمُتَأَلِّمِ لَا يَكُونُ مِثْلَهُ إِلَّا بَيْنَ اثْنَيْنِ مَسَحَ اللَّهُ يَدَهُ
 عَلَى وَجْهِ أَحَدِهِمَا ثُمَّ مَسَحَ يَدَهُ عَلَى قَلْبِ الْآخَرِ ثُمَّ تَوَاعَا بِأَعْدُ

فَمَا لَبِثَ أَنْ أَشْرَقَ الْإِثْرُ الْإِلَهِيُّ عَلَى الْإِثْرِ، وَوَقَعَ الْقَضَاءُ
فِي الْحُبِّ عَلَى الْقَدَرِ

أَلَا إِنَّ كُلَّ بَابٍ يُفْتَحُ وَيُغْلَقُ بِمِفْتَاحٍ وَاحِدٍ هُوَ يُغْلِقُهُ
وَهُوَ يَفْتَحُهُ الْإِبَابَ الْقُلُوبَ الْإِنْسَانِيَّةَ فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِفْتَاحَيْنِ
أَحَدُهُمَا يُغْلِقُهُ ثُمَّ لَا يَغْلِقُهُ سِوَاهُ وَهُوَ مِفْتَاحُ اللَّذَاتِ ،
وَالْآخَرُ يَفْتَحُهُ ثُمَّ لَا يَفْتَحُهُ غَيْرُهُ وَهُوَ الْإِلْمُ

((*))

كُنْتُ أَسْتَوْحِي « الرِّسَائِلَ » مِنْ تِلْكَ النَّفْسِ الَّتِي
طَارَتْ بِي طَيْرَتَهَا الْبَطْيَاءُ وَقُوْعُهَا فَإِنِّي لَأَسْتَعْرِ بِهَا
فَكْرًا ^(١) وَأَشْتَعِلُ مِنْهَا خِيَالًا ، وَكُنْتُ أَرَى الْفُصُولَ
تَخْلُصُ فِي يَدِي حِينَ أَكْتُبُهَا كَمَا تَخْلُصُ سَبَائِكُ الذَّهَبِ
بِعُنَاصِرِهَا لَا بِالصَّنَاعَةِ ، وَكَانَ هَذَا الْقَلَمُ كَالْحَدِيدِ إِذَا أُحْمِيَ
عَلَيْهِ ، لَيْسَتْ يَدُ مُسْتَهْمِنٍ مِنْ أَيْدِي الْمَعَانِي الْأَوْضَعِ فِيهَا بِسْمَةِ
النَّارِ ، ثُمَّ جَاءَ الْكِتَابُ وَمَا أَكَادُ أَصْدَقُ أَنْ الزَّمَنُ مَرَّ بِهِ

(١) يَسْتَعْرِ أَيُّ يَلْتَهَبُ كَأَنَّهُ كَلَامُ شَمْلَةٍ فَيَكْرُ

وتم قبل أن يُتمَّ القمر دَوْرَةَ شهر واحد^(١) ، فنبهني ذلك الى أن أستوفي الكلامَ في الحب استمداداً من أرواح أخرى فوضعتُ هذا « السحاب الأحمر »^(٢)

وقد استوحيتهُ من أرواح فيها الحبيبُ والبغيضُ والصديق والمظلومُ والظالمُ لنفسه ومَن عقله قلبه ومن حبه منفعته وفيها أضعفُ ما عرفتُ من العقول وأقواها ، فمن هذه السماء تَوَكَّفْتُ هذا السحاب^(٣) ؛ وإني لأشهدُ أني في بعض فصوله كنتُ أُحامي عن الحب أن ينتقص^(٤) فأدير الكلامَ على ذلك فيلتوي ثم أراه لا ينتقاد ولا يُتَابِعُ الا على خلاف ما أريد ، فأذا أخذتُ في المذهب الذي يعنّ لي اتفاقاً وعَرَضاً^(٥) تحدّرَ الكلامَ تحدّرَ الدمع من حيث لا يملك أحد أن يُفِيضَه أَوْ يَكْفَهْ لانه عند أسبابه الباطنة .

(١) كتبت رسائل الأحران في نيف وعشرين يوماً وكتب حديث القمر في أربعين وكتب هذا السحاب في شهرين وهي الكتب الثلاثة التي جملناها للجمال والحب وكلها مستوحاة (٢) تعرف سبب هذه التسمية في الفصل الاول (٣) التوكف الاستمطار (٤) اي يعاب ويثلب (٥) عن يعن اذا مرض

وفي فصل « الشيخ على » خاصةً كانت روح هذا الرجل الطبيعي كأنها هي التي تكتب وكان مريداً على طبعه ومُخلِّقه^(١) فما ملكتُ معه محاماةً ولا دَفْعاً . وفي فصل « الشيخ محمد عبده » كنت أشعر كاني مُمرِّق في صَعْدَاءٍ مَطْلَبُهَا طويل بعيد^(٢) فلا أخطو خطوةً إلا مُدافِعاً جاذبية الأرض وشاعراً بأنني أحمل نفسي حملاً ؛ وكنت كالذي يطأ على أضراس الجبل الصخري وأسنانه مُتَمِّدَةً حَذِراً أن يَزِلَّ فيسقط سقوط اللقمة الممضوغة ... ولا ينفعه في الصخر وشموخه وتعالیه أنه كان في عريض السَّهْل عداءً لا يُلْحَق

« * »

من الحب رحمةٌ مُهداةٌ فاذا كنتَ مع الله كانت كل أفكارك صورياً روحانيةً ؛ فأنت كالمَلَك هو في الأرض

(١) المريد هو من عتاد وطناً ولا يقال إلا في الاخلاق والطباع اما في غيرها

فأرد (٢) الصعداء الطريق العالية يصعد فيها أو الغاية البعيدة يصعد إليها

ما هو في السماء ؛ ومن الحب نَقْمَةٌ مُسَلِّطَةٌ فإذا كنت مع الشيطان كانت كل أفكارك صوراً حيوانية فانت كهذا المُنَجَّبِ الطيَّاش^(١) الذي لو نظر في كل مرآي الدنيا ما رأى في جميعها غير وجه القرد لانه القرد

والناس في هذا الحب أصناف : فواحد يجاهد زلاتٍ قد وقعت وهو الحب الآثم ، وآخر يجاهد شهواتٍ تَهْمُ أن تقع وهو الحب الممتحن ، وثالث أمِنَ هذه وهذه وإنما يجاهد خَطَرَاتِ الفكر وهو الحب لِيُحِبَّ فقط ، ورابع كالقراءة والصديق عجز الناس أن يجدوا في لغاتهم لفظاً يلبس هذه العاطفة فيهم فألحقوها بأدنى الأشياء اليها في المعنى وهو الحب . وعلى الثالث وحده بنيتُ « رسائل الأحران » وعلى بعض الرأي في الباقيات كَسَرْتُ هذا الكتاب

« * »

مَنْ لِلْمَحَبِّ وَمَنْ يُعِينُهُ وَالْحُبُّ أَهْنَاهُ حَزِينُهُ
أَنَا مَا عَرَفْتُ سِوَى قَسَا وَتِه فَقُولُوا كَيْفَ لِيْنُهُ

(١) النبيح الوجه الخفيف العنل

إِنْ يُقْضَ دَيْنُ ذَوِي الْهَوَىٰ فَأَنَا الَّذِي بَقِيَتْ دِيُونُهُ
 قَلْبِي هُوَ الذَّهَبُ الْكَرِيمُ فَلَا يُفَارِقُهُ رَيْنُهُ
 قَلْبِي هُوَ الْأَلْمَاسُ يُعْ رَفُّ مِنْ أَشْعَتِهِ ثَمِينُهُ
 قَلْبِي يُحِبُّ وَإِنَّمَا أَخْلَاقُهُ فِيهِ وَدِينُهُ

« * »

يَا مَنْ يُحِبُّ حَبِيبَهُ وَبِظَنِّهِ أَمْسَى يُرَيْنُهُ
 وَتَعَفُّ مِنْهُ ظَوَاهِرُهُ لَكِنَّهُ نَجَسٌ يَقِينُهُ
 كَالْقَبْرِ غَطَّتْهُ الزُّهْرُ وَتَحْتَهُ عَفْنٌ دَفِينُهُ
 مَاذَا يَكُونُ هَوَاكَ لَوْ كُلُّ الَّذِي تَهْوَى يَكُونُهُ
 دَعُ فِي ظَنُونِكَ مَوْضِعًا أَنْ الْحَبِيبَ لَهُ ظَنُونُهُ
 وَخِذِ الْجَمِيلَ الْكَيَّ تَزِي نَ الْحَسَنَ فِيهِ بِمَا يَزِينُهُ
 إِنْ تَنْقَلَبَ لِحْصَ الْعَفَا فِ لِمَنْ تَحِبُّ فَمَنْ أَمِينُهُ؟
 مَالِدَةُ الْقَلْبِ الْمَدَامُ لَا يَطْوُلُ بِهِ حَنِينُهُ
 مَالِدَةُ الْعَقْلِ الْمُحِبِّ وَلَمْ يُجَنِّنْهُ جَنُونُهُ
 الْحُبُّ سَجْدَةٌ عَابِدٍ مَا أَرْضَهُ إِلَّا جَبِينُهُ

الْحُبُّ أَفْقٌ طَاهِرٌ مَا إِنْ يُدَنِّسُهُ خَوْنُهُ
أُفُقُ الْمَلَائِكِ نَفْسُهُ فِي الْبَدَنِ كَانَ لَهُ أَعْيُنُهُ (١)

« * »

وَيَلِي عَلَى مُتَدَلِّلٍ مَا تَنْقُضِي عَنِي فَنُونَهُ
كَيْفَ السُّلُوفِ فِي فَوْأٍ دَى لَا تُفَارِقُنِي عِيُونُهُ
مصطفى صادق الرافعي

كلمة

كانت دُرَّتَان متجاورتين في حلية على صدر حسناء ؛
 وكلتاها يتيمة إلا من أختها ^(١) ، تَمُجُّ ذلك الشعاع النادر
 الذى جاءه الحسن من كونه ضوءاً لم يُولد من شمس ولا
 من قر ولكن من ظلمات البحر . فتناجَتَا يوماً وكانت
 الجميلة قد استوفت كل زينتها وحملت الدرّتين على صدرها
 كأنهما عَيْنَا قلبها الثمين ؛ فقالت احداها للأخرى وهي
 تشير الى هذه الفتاة : انظري انظري ما أحسن لؤلؤتنا ...
 صارت اللؤلؤة في هذا المنطق الشعري هي امرأة
 الأعماق المظلمة وعادت المرأة الحسناء لؤلؤة الأعماق السموية
 المضئية ؛ فلا شيء يريد أن يكون كما هو في نفسه إذ لا يزال
 موضع الفصل من حكمة الله خفيّاً لا يرى بل يُتَوَهَّم ، ولا
 يُسْتَيَقَن بل يُظَن ، وكان خفاء هذه الحكمة في سماواتها
 إيجادا للخيال في الانسان حتى لا يظلّ أبداً في حيوانيته ؛

(١) أي لا يشبهها في الدر إلا أختها

ولكن هذا الخيال نفسه كثيرا ما أضاف الى الانسان حيوانية أخرى

ولو كُشِفَ لك عن الحقيقة لرأيتَ أقبحَ ما في كل شيء أن لا يبرح أبدا محبوسا في حقيقة لا يُجاوِزها ، ومن ثمَّ خَفَّفَ الله عن الانسان فأودع فيه قوة التخيل يستريح اليها من الحقائق ، فاذا ضجر أهل الخيال من الخيال لم يُصلحهم الا الحب فهو وحده ناموس التطور للقوة المتخيلة ولن تجد في الاشياء العجيبة أعجب منه حتى كأنه أمٌ تَلِدُ . فالمرأة هي تلد الانسان ولكن حبها يلد النابغة

« * »

وليس يقع التعجب من الأمر لأنه عجيب في نفسه بل لانه متصل من الانسان برُوعه^(١) أو بعقله أو بهواه أو ببطامعه ، فان دَهَشَ الرُوعُ أو تحيَّرَ العقل أو اشتبهى الهوى أو تمكن المَطْمَعُ من النفس ؛ فهذه هي الألوان الأربعة التي تصور منها الطبيعة الانسانية كل معاني التعجب .

(١) الروح الحاضر والقلب

والذى هو أعجبُ من جميعها أن الطبيعة لا تحتاج الى جميعها
فى تصوير شيء الا واحدا هو تصوير الحب الصحيح فى
قلب انسان

فهذا الحب ليس حقيقة واحدة عجيبة بل هو أربع
حقائق داخل بعضها بعضاً فلا يتميزون منها من لون منها.
وما حقيقة الحب الصحيح الا امتزاج نفسين بكل ما فيهما
من الحقائق حتى قال بعضهم : لا يصح الحب بين اثنين الا
إذا أمكن لأحدهما أن يقول للآخر يا أنا ^(١) ؛ ومن هذه
الناحية كان البغض بين الحبيبين — حين يقع — أعنفُ
ما فى الخصومة إذ هو تقاؤلُ روحين على تحليل أجزاءهما
المتزجة ؛ واكبر خصيمين فى عالم النفس مُتَحَابَّان تَبَاغَضَا
والحب العجيب جنسٌ من النساء عجيب خُلقن
جواسيس على القلوب يدخلن فيها ويخرجن منها ، ولما
تجسست الواحدة منهن الا لتفضح للدنيا أسرارَ روح

(١) يريد اتحادهما فى الليل والهوى والحياة والخضوع كأنهما تبادلا نفسيهما
فنفس كل منهما انتقلت فى الآخر

عظيمة ؛ وهذا الجنس تُهيئهُ الطبيعة تهيئة المادة السحرية
وتولد المرأة منه مرتين ، فاذا هي انحدرت الى الدنيا طفلةً
جعلت تأخذ في دمها الجذاب من شعاع الشمس يتوهج
ومن نور القمر يتندى (١) ، وذهبت تنمو في ظاهرها نمواً
وفي باطنها نمواً غيره حتى اذا بلغت مبلغها وانبعثت ملء
شبابها آن لها أن تولد الثانية فولدت في قلب رجل
والعجيب انها في الولادة الأولى يكون أول وجودها
هو أول وجودها ؛ أما في الثانية فذلك أول فنائها لان
المرأة متى حلت من قلب الرجل محلاً جعل يُفنيها معنى في
معنى حتى تفرغ فلا يبقى منها الا ذكرى زمن مضى ...
وكل امرأة من هذا الجنس هي مُعجزة عقلية مادامت
مخبوءة في الشعاع السماوي من جمالها وما دام هذا الشعاع
يفعل فعله الذي عرفه الناس أوضح ما عرفوه في أديانهم
وعقائدهم وفيما أنزلوه منزلة الأديان والعقائد
وآية مُصداق هذا الإعجاز (٢) في المرأة الساحرة

(١) يترطب والتوهج توقد النار ونحوها

(٢) أي برهانه تقول مصداق الامر كذا وآية مصداقه كذا

المحبوبة ذلك النوع من الحب أنه يَدْنَا يكون محبها رَزِينِ
الطبع وازن الرأي ^(١) كالجبل الراسخ الوَطْأَة ، إذا هو من
سخافة رأيه في بعض أهواء الحب ونزعاته كأنه جبلٌ
يطير بألف جناح وقد ملأ الخوافقَ بين السماء والأرض
أوهاماً سحرية

وهنا مُعْضِلَةُ الحب التي لاحيلة في فهمها ولا في تقريبها
إلى الفهم ، وهي تُثَبِّتُ أن العاشق يُعْطَى في ناحية خياله قِبَلَ
الناس جميعاً ولـسـكـنـه يُدْتَـقَصُ من ناحية عقله مع حبيبته
وحدها فهما سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ^(٢)

ولا يُشَبِّهه تلك المعجزة إلا أن ترى إنساناً يقوم على
ساحل البحر المِلْح فيلقى فيه رَطْلاً مُسْكِراً ثم يتذوق البحر
فاذا هو في مذاقه وفي رأيه وفي حكمه شرابٌ سَائِغٌ كأنما
ألقى الرجل فيه وزنَ كرة الأرض من هذا الطعم اللذيذ
الحلو ... ومع ذلك فهو عاقل فيما عدا ذلك

الفصل الأول

القمر الطالع

في يدي الآن هذا القلم الذي اكتب به وهو سن
قائمة في نصاب^(١) من الزجاج أحمر صافٍ يشف عن
داخله ؛ فاذا طاف به النور أشع فيه^(٢) وانصبغ بلونه
فرمى على إصبعي ظلاً مجروحاً^(٣) يريك الجلد كأنما جرحه
من فوقه لا من تحته

فاذا راوحت يدي^(٤) وقلبتة أنا ملي رأيت له بريقاً
يستطير فيه كأنه شعلة من اللهب حبستها معجزة في
عود من الثلج

فاذا استعرضته بين العين وبين الضوء الساطع رأيت
منه ياقوتة حمراء قد افترق فيها نبع كالقمر الحلو يتنفس على
قلبي الحزين بابتسامات تأتي الي وفيها ألوان شفاهها الوردية
فاني لجالس ذات مرة في جوف الليل أكتب على

(١) السن الريشة والنصاب اليد التي تمسكها (٢) أظهر شامعه فيه
(٣) استمر له الجرح لانه أحمر يترقق كالدم (٤) داورته وقلبتة

ضوء الكهرباء إذ طارت فيه نظرة من نظراتي وكان
 بأزاء الشعيلة ^(١) فرأيت في خلاله من انعكاس الضوء
 شمسية صغيرة لم أرقط أحسن منها حسناً كأنها سبيكة
 تحترق وتتناثر ضباباً من بخار الذهب ؛ فمدت النظر
 فاذا أنا بتلك الشمسية كأنها إحدى عذارى الجنة
 انعمست في غدير صافي فوّهه جلالها فانقلب من معنى
 الماء الى معاني الجمال المستحي فاحمر كأنه لون خد مؤرد
 وراعى ما ابصرت فاستأنيت لحظة ثم رفعت طرفي
 الى مدار هذا الكوكب فجعل يرمى بمثل شقائق البرق ^(٢)
 تلمع واحدة لواحدة ، ثم انقلب يتضرّم كالنور المستعر ،
 ثم عاد لجة من «السحاب الأحمر» يوج بعضها في بعض
 كالحب المتوهج يملأ فراغ قلب كبير ؛ فاختلف الذي هو
 في صدري وحضرتني ^(٣) حاضرة من الذكري لم تسكد
 تعرض للفكر حتى انفلق السحاب عن وجه فاتن كالقمر

(١) هي فتيلة السراج المشعلة سمينا بها خيوط النور المنبثقة في الصباح
 الكهربائي وما تجري فيه ترجمة لكلمة Duill (٢) قطع البرق جمع شقيقة
 (٣) خطرت ببالي والذي هو في الصدر القلب

الطالع وكان متمثلاً في نفسي مُذْ أبصرت تلك الشميسة
فكأنما رأى من السحاب مرآة فانطبع فيها ، وماتلَّبتْ إلا
يسيراً ثم اختفى .

وغصتُ في هذه النفس أفكر فيما رأيت وأنا أُمسِكُ
على قلبي أن يطير فاذا « السحاب الأحمر » يُمطر عليّ
مطرةً من الخواطر والكلمات يتلاحق منها طرفٌ بعدَ
طرفٍ وتقبل طائفة وراء طائفة كأن متكلما يتحدث بها
في نفسي أو كأنه وحيٌ يُوحى من ملك الجلال ، فأسرعتُ
أدونها وأُحصيها تحت عيني تلك الصورة الجميلة المُشرقة
عليّ حتى امتلأ البياضُ سوادا واستفاضت روحُ الخبر
الأسود بالهمُّ على مُصدوع القلب وعلى شِعبه ^(١)

وجاءت بعد ذلك ليالٍ كان فيها السحاب يعرضُ لي
صُورا أعرفها فاذا مثلها فاستوحيثها الفكرة سَحَّ عليّ
الخواطر من روحها فأقبلت كالمطر يُفرغُ إفراغا دَفْعَةً
من غير تلَّبت ^(٢)

(١) طرق القلب وشقوقه (٢) المطر من سح تنابع حتى تنشق السحابة أو تنساب

رَأَيْتُ وَجْهَ فَتَاةٍ عَرَفْتُهَا قَدِيمًا فِي رُبُوبَةٍ مِنْ (لُبْنَانِ)
يَنْتَهَى الْوَصْفُ إِلَى جَمَالِهَا ثُمَّ يَقِفُ ^(١)؛ كُنْتُ أَرَى الشَّمْسَ
كَأَنَّمَا تَجْرِي فِي شَعْرِهَا ذَهَبًا وَتَتَوَقَّدُ فِي خَدِّهَا يَاقُوتًا
وَتَسْطَعُ فِي ثَغْرِهَا لَوْلُؤَةٌ؛ وَكُنْتُ أَرَى الْوَرْدَ الَّذِي يَزْرَعُهُ
النَّاسُ فِي رِيَاضِهِمْ فَإِذَا تَأَمَّلْتُ شَفَتَيْهَا رَأَيْتُ وَرَقَتَيْنِ مِنَ
الْوَرْدِ الَّذِي يَزْرَعُهُ اللَّهُ فِي جَنَّتِهِ؛ وَكَانَتْ لَهَا حِينًا خَفَةُ
الْعُصْفُورِ وَحِينًا كَبْرِيَاءُ الطَّائِوُسِ وَدَائِمًا وَدَاعَةُ الْحَمَامَةِ
الْمُسْتَأْنَسَةِ؛ وَكَانَتْ رَوْحُهَا عَطِرَةً تَنْفَحُ نَفْحَ الْمِسْكِ إِذَا
تَشَامَّتِ الْأَرْوَاحُ الْغَزَلَةَ بِالْحَاسَةِ الشَّعْرِيَّةِ الَّتِي فِيهَا

وَكُنْتُ إِذَا رَأَيْتُهَا بِجُمْلَةِ النَّظَرِ مِنْ بَعِيدٍ صَوْرَ لَهَا
قَلْبِي مِنَ الْحَسَنِ وَالْهَوَى مَا يَمُوتُ فِيهِ مَوْتَةً ثُمَّ يَحْيَا، فَإِذَا
جَالَسْتُهَا وَأَثْبَتُ النَّظَرَ فِيهَا رَأَيْتُهَا فِي التَّفْصِيلِ شَيْئًا بَعْدَ
شَيْءٍ بَعْدَ شَيْءٍ كَمَا أَنْظُرُ نَجْمًا بَعْدَ نَجْمٍ بَعْدَ نَجْمٍ؛ كُلُّهَا شِعَاعُ

(١) لَا نَطِيلَ فِي وَصْفِهَا هُنَا فِيهِ الَّتِي وَصَفْنَاهَا فِي « حَدِيثِ الْقَمَرِ »

وكلها نور وكلها حسن

وما نظرت مرة الى النساء حولها إلا وجدت من
الفرق بينها وبينهن ما يتضاعف من جهتها عالياً
ويتضاعف منهن نازلاً نازلاً كأنه ليس في الامر إلا أنها
أُخِذَتْ من السماء ووُضِعَتْ بينهن

هي كالفتنة المحتومة تنبعث الى آخرها فليس منها شيء
إلا هو يُحَسِّنُ شيئاً وُيَشَوِّقُ الى شيء وبعضها يُزَيِّنُ بعضها

« * »

لقد تراخى الزمنُ بي وبها فلو عددت لأُحصيتُ مائة
وخمسين قرأاً^(١) منذ فارقتها ؛ وما أحسب الأرض إلا
انصدعت بيننا عن أقيانوس عظيم من الزمن تملأه الأيام
والليالي فلا يُخَاضُ ولا يُعَبَّرُ ولا ينظر فيه أهلُ ساحل
أهلِ ساحل غيره

وعلى أن هذا الزمن قد محَا في قلبي من بعدها وأثبت

(١) كناية عن الشهر ولا نقول خمسين ومائة وكلاهما صحيح

فلا تزال تنشقُّ لها زَفْرَةٌ من صدري كلما عرّضت ذكرها
 كأن القلب يسأني بلغته أين هي ؟ والقلبُ الكريم
 لا ينسى شيئاً أحبه ولا شيئاً ألفه إذ الحياة فيه انما هي
 الشعور ، والشعور يتصل بالمعدوم اتصاله بالموجود على
 قياس واحد . فكأن القلب يحمل فيما يحمل من المعجزات
 بعضَ السرِّ الأزلي الذي يحيط بالآبِعاد كلها إحاطةً واحدة
 لأنها كلها كائنة فيه ؛ فليس بينك وبين أبعد ما مرَّ من
 حياتك الا خطوةٌ من الفكر هي للماضي أقصرُ من التفاتة
 العين للحاضر

« * »

ليس بجمال الا ذلك الروحُ الذي يرفع النفس الى أفق
 الحقيقة الجميلة ثم ينفخ فيها مثلَ القوة التي يطير بها الطير
 ويدعها بعد ذلك تتراعى بين أفق الى أفق ، فإنما انتهى
 الحبُّ الى حيث يصير هو في نفسه حقيقةً من الحقائق ،
 وإما انكفأ من أعاليه وبه ما بالطيارة الهاوية رفعت راكبها

الى حيث ترمي به ميتاً أو كالمغشي عليه من مس الموت ؛
والذين ينكرون أن الجمال يقتل أحيانا أو يجعل الحياة
كالقتل ثم يدعون مع ذلك هوّى وحبّاً — انما هم أولئك
الذين يمشقون بنفس العاطفة المادية الخسيسة التي يحبون
بها الذهب والفضة وورق البنك

وليس بحبّ الا ما عرفته ارتقاءً نفسياً تعلو فيه الروح
بين سماوين من البشرية فتلوح منهما كالمصباح بين مرأتين ،
يكون واحدا وترى منه الدين ثلاثة مصاييح ، فكأن الحب
هو تعدّد الروح في نفسها وفي محبوبها

« * »

ولا سموّ للنفس الا بنوع من الحب مما يشتعل الى
ما يتنسم ؛ من حب نفسك في حبيب تهواه الى حب دمك في
قريب تعزّه ، الى حب الانسانية في صديق تَبَرّه ، الى
حب الفضيلة في انسان رأيته إنساناً فاجلته واكبرته
فاذا أنت أصبت في الخليفة من أغفل الله قلبه (١)

(١) أهمل قلبه وتركه لا يثبت فيه شيء منها

عَنْ تِلْكَ الْأَرْبَعَةِ فَلَا حُبَّ وَلَا صَلَوةَ وَلَا يَأْلَفَ وَلَا يُؤْلَفُ ؛
 فَذَلِكَ هُوَ الَّذِي لَا نَفْسَ لَهُ مِنْ نَفُوسِ النَّاسِ كَأَنَّهُ سَبْعُ مِنْ
 السَّبْعِ الضَّارِيَةِ ، أَوْ هُوَ الَّذِي كُلُّهُ نَفْسٌ كَأَنَّهُ نَبِيٌّ مِنْ
 الْأَنْبِيَاءِ . تَجِدُ الْأَوَّلَ فَيَمْنُ اعْتَزَلَهُ الْعَالَمُ مِنْ شَرِّهِ
 الْمَجْرَمِينَ وَأَخْلَاطِ الشَّيَاطِينِ الْإِنْسِيَّةِ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُهُمُ
 النَّاسُ بَعْدَ أَنْ انفَصَلُوا مِنْ إِنْسَانِيَّتِهِمْ وَانْحَطُّوا انْحِطَاطًا فِي
 أَشَدِّ الْعُنْفِ . وَتَجِدُ الثَّانِيَّ فَيَمْنُ اعْتَزَلَ هُوَ الْعَالَمُ مِنْ
 خِيَارِ الْأَوَّابِينَ وَالشَّهَدَاءِ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ النَّاسَ بَعْدَ أَنْ
 اتَّصَلُوا بِإِنْسَانِيَّتِهِمُ الْكَامِلَةَ فَارْتَفَعُوا عَنِ الْخَلْقِ ارْتِفَاعًا فِي
 أَرْقِ الرَّحْمَةِ

« * »

الحب بعض الايمان ؛ وكما أن الطريق الى الجنة من
 الايمان بكل قُوَى النفس فان الطريق الى الحب من قُوَى
 لا تنقص عن الايمان الا قليلا ؛ والخُطوة التي تقطعُ مسافة
 قصيرة الى القلب تقطع مسافة طويلة الى السماء

وكما ينشأ الكفر أحياناً من عمل العقل الانساني اذا
هو تحكم في الدين ، يأتي البُغض من هذا العقل بعينه اذا
هو تحكم في الحب

وتُرى ما هذا الشبه بين المرأة وبين السماء ؟ أكانت
المرأة في أصل الخلقة مادة سماء بدأت تتخلق في الغيب فحبسها
الله في ضلع الرجل عقاباً لها ، ثم عاقبها الثانية فأخرجها
لارجل تنظر اليه كما ينظر السجين الى سجنه . . . ويكون
الله سبحانه قد عاقبها مرتين لتتعلم هي بطبعها كيف تتجن
على الرجل وتعاقبه مراراً لا تُعدّ ؟

أيمكن ان يكون هذا الجمال الفتان في المرأة الجميلة
خلاصة سماء من السموات خلقت عينين وخدين
وشفتين ؛ تضحك أحياناً بالنور وتلهب أحياناً بالبرق
وتنفجر أحياناً بالرعد ؟

لقد عرفنا أن في السماء جنةً وناراً ، وأقسم لو صُغرت
الجنة وجعلت أرضيةً تلائم حياة رجل من الناس ثم عجلت
له في هذه الحياة الدنيا لما كانت بمتاعها ولذاتها وفنون الجمال

فيها الا المرأة التي يحبها. أما الجحيم فلا أراني في حاجة الى
برهان على أنها صغرت وتجزأت واندفقت على الأرض
شُعلاً في أسماء من أسماء النساء

لذلك أراني لا أستطيع أن أفهم المرأة الجميلة بل لا
أدري كيف أفهمها ، فمن حينئذ نظرتُ اليها لأراها تبتديء
الا من فوق العقل فأنظر اليها ساكتا على أنها هي لا تنظر
في الا متكلمة

«*»

يا ملوّن السماء والوجوه الجميلة ؛ يا مصوّر الروعة
والحب ؛ يا مُبدع هذه المعاني الظاهرة إبداعاً جعلها لدقّتها
كانها لم تظهر

يا موجد القلب كما هو لتلأه السماء إيماناً والجمال
حباً والمعاني فكراً منهما معاً

ويا خالق الانسانية العالية في الانسان الكامل من
ايمانه وحبه وفكره

نعرف هذه السماء بما وسّعت للايمان ، وهذه الطبيعة

بما رُحِبَ للفكر ؛ فهل المرأة وحدها هي التي للحب ؟
تباركت اذ جعلت ما وراء الطبيعة فوق الفكر
مها سما ، وجعلت الطبيعة حول الفكر مها اتسع ، وأنزلات
المرأة بين المنزلتين مها كانت

ان من النساء ما يُفْهَمُ ثم يعلو في معانيه الجميلة الى ان
يتمتع ، ومن النساء ما يُفْهَمُ ثم يَسْفُلُ في معانيه الخسيسة الى
ان يَبْتَدِلَ

ان من المرأة ما يُحِبُّ الى ان يلتحق بالايان ، ومن
المرأة ما يُكْرَهُ الى ان يلتحق بالكفر

« * »

من المرأة مُحَلَوٌ لذيذ يُؤْكَلُ منه بلا شَبَعٍ ؛ ومن
المرأة مُرَّةٌ كَرِيهَةٌ يُشْبَعُ منه بلا أكل



الفصل الثاني

النجمة الهاوية

طائفة من الخواطر في طائفة من النساء
وترقّ السحاب فاذا هو كنّضح الدم^(١) واذا هو
يفور فورّه^(٢) فبأنّ كأنما يتدفّق من طعنة أرى دمها
ولا أرى موضعها لأن هذا الشلال الأحمر يتفجر منها
ورأيتها هي طالعة كالشمس حين تغرب حمرة
يتغالب طرفا الليل والنهار عليها ففيها أواخر النور وأوائل
الظلمة ، وسوادها يمشى في بياضها^(٣)

قلت يوماً في صفة إحدى القصائد البديعة : إنها فن
من الشعر ، وفي إحدى الصور المحكمة : إنها فن من
التصوير ، وفي تلك الجميلة : إنها فن من المرأة . أما الآن
فقد عرفنا أن اصفرار الشمس إيذانٌ بسواد نصف أرضها
ويقول العرب : امرأةٌ مجلّوةٌ ، ويفسّرون ذلك بأنك

(١) كخروج الدم وسيلانه (٢) غضبه (٣) انظر كتاب « رسائل
الأحزان »

إذا رامَقْتَ فيها الطرفَ ^(١) جالاً ، يَعْنُونَ أَنَّهَا مِنْ جَاهِهَا
ذاتُ شِعَاعٍ فيَجُولُ الطرفُ فيها لَأَجْلِ شِعَاعِهَا وَبَرِّيقِهَا .
أَفَلَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَزِيدَ فِي هَذِهِ اللُّغَةِ : وَامْرَأَةٌ صَدِئَةٌ
وَنَفْسُهَا بَانِهَا هِيَ الَّتِي إِذَا اتَّصَلَتْ بِهَا تَرَكْتَ مَادَّةَ الصَّدَأِ
عَلَى رُوحِكَ اللَّامِعِ لِأَنَّهَا كَهَذَا الصَّدَأِ طِينَتْ عَلَى طِينَتِهَا ^(٢) ؟

« * »

لست أريد أن أصنع في هذا الفصل كتابةً حتى لأدبر
الكلامَ على شيءٍ فقد مُسَخَّتْ تلكَ النفسُ في نفسِي فخلَصَتْ
لِي مِنْهَا هَذِهِ الـكَلِمَةُ الْجَمِيلَةُ : تَمُّ آمَالِنَا حِينَ لَا نُوْمِلُ .
وَالْكُنِي مَرْسَلٌ مَطْرَةٌ سَحَابِي تَهْطِلُ مَا هَطَلَتْ . فَالْمَرْأَةُ
الْأُولَى أَضَاعَتْ عَلَى الرَّجُلِ جَنَّتَهُ وَمَنْ نَسَلَهَا نِسَاءً يُضَيِّعُنَ
عَلَى الرَّجُلِ الْجَنَّةَ وَخَيَالَهَا . . . وَلَوْ اسْتَطَاعَتْ الْأَرْضُ أَنْ
تَفَرَّ مِنْ تَحْتِ قَدَمِي مَخْلُوقٌ بَرَاءَةٌ مِنْهُ لَكَانَ أَوَّلُ مَنْ تَنْخَزِلُ
تَحْتِ رَجْلَيْهِ ^(٣) وَاحِدَةٌ مِنْ هَذَا النُّوعِ

(١) أُرْسِلَتْ فِيهَا النَّظَرُ (٢) أَيُ جِيَتْ عَلَى جِلَّتِهَا وَطَبَعِهَا وَالصَّدَأُ
أَشْبَهَ بِالطَّيْنَةِ فِي مَعْنَاهُ (٣) أَيُ تَقْطَعُ وَتَنْخَسِفُ

مِدْحُ اللَّهِ لَا يَحُلُو أَبَدًا فَمَاذَا تَصْنَعُ فِي نَفْسٍ لَوْ سَأَلَتْ
لَكَانَتْ بُعِيرَةً

«*»

سُرُورُكَ مِنَ الصَّدِيقِ الطَّيِّبِ لَا يَكْلِفُكَ إِلَّا أُنْ
تَسْتَمْتِعُ بِهِ وَأَنْتَ لَا تَخْسِرُ فِيهِ إِذَا زَالَ إِلَّا أَنَّهُ زَالَ ، فَاذَا
لَمْ يَكُنِ الطَّيِّبُ فِي نَفْسِهِ طَيِّبًا كَذَلِكَ فِي أَثَرِهِ فَهُوَ الْخَبِيثُ

«*»

بَعْضُ النِّسَاءِ تَنْقُصُ بِهَا الْحُزْنَ ، وَبَعْضُهُنَّ تَغَيِّرُ بِهَا
الْحُزْنَ ، وَبَعْضُهُنَّ تَتَمُّ بِهَا حُزْنُكَ

«*»

لَا يَتَّقِدُ الشَّجَرُ الْأَخْضَرُ إِلَّا مِنْ أَشَدِّ النَّارِ سَعِيرًا
وَتَتَقَدُّ الْمَرْأَةُ الْجَمِيلَةُ حَتَّى مِنْ أَشْعَةِ وَهْمِهَا

«*»

فِي قَلْبِ الرَّجُلِ أَلْفُ بَابٍ يَدْخُلُ مِنْهَا كُلُّ يَوْمٍ أَلْفُ
شَيْءٍ ، وَلَكِنْ حِينَ تَدْخُلُ الْمَرْأَةُ مِنْ أَحَدِهَا لَا تَرْضَى
إِلَّا أَنْ تَغْلِقَهَا كُلَّهَا

«*»

النساء مَنْجَمُ السَّعَادَةِ ، فرجلٌ واحدٌ لا يكادُ يمدُّ يده
حتى يضعها على الجوهرة المُشْرِقة . ومائة رجلٌ يغربلون
حصى المرأة وتراها ليجدوا فيها شَذْرَةً تلمع

«*»

قال لي زوجٌ عن امرأته : أنا وهي ينتج منهما أنا
بلا أنا

«*»

لم يخلق الله أحداً مكروهاً قط ، وإنما نبغض من
الناس الصُّوَرَ المكروهة التي يحدِّثونها ؛ فعملك شخصك
الحقيق

«*»

كم من امرأة جميلة تراها أصفى من السماء ، ثم تشور
يوماً فلا تدل ثورتها على شيء إلا كما يدل المُسْتَنقَعُ على
أن الوحل في قاعه ؛ فأغضبِ المرأةَ تعرفها

«*»

الحبيبُ من تَلَتَمَهُ بكلِّ حواسك ، فإذا رأيتَه فقد
رأيتَه وسمعتَه وذُقتَه ولمستَه وشممتَه ، والبغض من تَقَيَّئَه
من كلِّ حواسك

« * »

في المرأة حقيقةٌ ولكنها لن تعرفها الا بفكر رجل ،
فالكاملة من لا تسيءُ أحداً والا أساءت الى حقيقتها

« * »

كلُّ ما يخطرُ ببالك فَقَدِّرْ معه ضِدَّه اذا كنت
تفكر في الحب والبغض

« * »

يجب على المدارس حين تعلم الفتاة كيف تتكلم أن
تعلمها أيضاً كيف تسكت عن بعض كلامها

« * »

الخبثات للخبثين ، قيل لأرض حطِيبَةٍ^(١) : من تشتهين
أن يكون زوجك لو كنتِ امرأة ؟ قالت الفأس

(١) أي كثيرة الحطب لخبث تربتها

«*»

تجاورت شجرةٌ من الحسك^(١) وشجرة من
الورد، فزهت الورد زهواً عاطراً بطبيعة العطر الذي
في مادتها. فقالت لها الحسكة ويحك ما هذا الزهو
الذي أفسدت به محلك من نفسي؟ قالت الورد في كلامٍ
هو عطر آخر: لا تُعبي نفسك في تحقيري فلست أفهم
لغة الشوك إلا إذا كان يُنبِت الورد

«*»

قد يتغير الرجل في نظر امرأته حتى تقول له: يا أنت
الأول، يا أنت الثاني^(٢). ولكنى عرفت رجلاً
قال لامرأته يا أنت الخامسة والخمسين

«*»

قيل لحية سامة: أكان يسرك لو خلقت امرأة؟
قالت: فأنا امرأة غير أن سمّي في الناب وسمّها في لسانها

«*»

(١) الحسك هو الشوك وسميت به شجرته مجازاً
(٢) يريد تغير الطباع وتور النفس وما أشبه ذلك

ما الأمَّ الشجرةَ التي لو نطقت لَشَتَمَتْ من يسقيها

« * »

لا يفكر الرجل فيما لم يحدث على اعتبار أنه حادث
الا في شيئين : المصيبةُ التي يكرهها والمرأة التي يحبها

« * »

قال رجل حكيم : اذا بلغك عن أخيك ما تكره
فاطلب له من عُذرٍ واحد الى سبعين عُذراً ؛ فان لم تجد
فقل ولعل له عُذراً لا أعرفه . وقالت امرأة حكيمة ...
اذا بلغك عن رجل ما تكرهين فاطابي له من ذنب واحد
الى سبعين ذنباً ثم قولي ولعل له ذنباً لا أعرفها ... زوجوا
الحكمتين أيها الناس ...

« * »

يُخَيَّلُ إليَّ أن عقل بعض النساء مثل وجوههن
للزُورَةِ . تحته ما تحته وليس عليه إلا « غبار » من العقل

« * »

من المستحيل أن تُنسَكَرِ النار وإن كان شرُّها

ينطفئ كحَبَبِ الكَأْسِ ؛ ومن المستحيل أن تُلْذَعَ الخمر
وإن كان حَبَبُهَا يَمْوُجُ مَوْجَ الشرر . ولكن من
الممكن أن تجد في امرأة واحدة لذعَ النار وإسكارَ الخمر
معاً وهي شيطانة النساء يجتمع مُمكنها من مستحيلين

« * »

شرُّ النساء عندك وعندى هي التي تجملك تنبّه
الى ما في النساء من الشر

« * »

قال بعضهم لزاهد عظيم : إني رأيتك الليلة تمشي في
الجنة . فقال له الزاهد ويحك أما وجد الشيطان أحداً
يَسْتَخِرُ منه غيري وغيرك . وقال رجل لامرأة : إني
رأيتك الليلة في الجنة . فقالت له ويحك تقولها من غير أن
تشكر فضلي عليك مع أني أدخلتك الجنة . . .

« * »

أشأَمُ النساء على أنفسها من لا تُحَبُّ ولا تُبْغَضُ ،
وأشأَمهن على الناس من اذا عدَّتْ مُبغضيتها لا تعدُّ الا

الذين أحبوها

« * »

يا هذه لا أدري ما تقولين ؛ ولكنَّ الحقيقة التي
أعرفها أنَّ نفس المرأة إذا اتَّسختْ كان كلامُها في حاجة
إلى أن يُغسلَ بالماء والصابون وهيَّات ...

« * »

يا مَنْ على الحبِّ يَنْسَانَا وَنَذْكُرُهُ
لَسَوْفَ تَذْكُرُنَا يَوْمًا وَنَنْسَاكَ
إِنَّ الظَّلامَ الَّذِي يَجْلُوكُ يَا قُرْ
له صباحٌ متى تُدْرِكُهُ أخفاكا



الفصل الثالث

السجين

وتَغَيِّمَ سَحَابِي هَذِهِ الْمَرَّةَ وَأُطْبِقَتْ فِي حَوَاشِيهِ
سُودَاءَ عَلَى سُودَاءَ ^(١) كَأَنَّهُ يَجْمَعُ هَمَّ قَلْبِ بَاتِ الْأَلَمِ مِنْ
عُنَاصِرِ حَيَاتِهِ . رَأَيْتُ فِي سَوَائِهِ ^(٢) رَجُلًا أُلْبِسَ الذِّلَّةَ
وَرَسِيمَ الْخُسْفِ ^(٣) قَدْ انْتَصَبَ كَالْجَذَعِ الْمُسْتَعْلِ وَلَهُ فُرُوعٌ
مِنَ الدِّخَانِ وَهُوَ هَذَا السَّجِينُ الَّذِي أَقْصَى خَبْرُهُ

أَلَا إِنَّمَا الْإِنْسَانُ مِنَ الْأَقْدَارِ كَالنَّبَاتِ بَيْنَ الْفَأْسِ
الَّتِي تَحْرُثُ لَهُ وَالْمِنْجَلِ الَّذِي يَحْصِدُ فِيهِ ، وَمَا هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا
هَذَانِ فَلَا يَحْسِبَنَّ الْعُودَ الطَّالِعَ أَنَّهُ شَيْءٌ غَيْرُ الْعُودِ الْمَقْطُوعِ
كَانْتَ يَوْمًا فِي مُحْكَمَةِ كَذَا ، فَجَاءَ الْجُنْدُ بِسَجِينٍ
قُرُويٍّ كَالْمَارِدِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ سَبْعٌ مِنْ سَبَاعِ الْقُرَى وَشَيْطَانٌ
مِنَ شَيَاطِينِ اللَّيْلِ ^(٤) وَقَدْ غَلَوَا يَدَيْهِ بِسُلْسَلَةٍ مِنَ الْحَدِيدِ

(١) أي غيمة سوداء على غيمة أخرى (٢) أي في وسطه

(٣) سامه الخسف وأسماه أولاء الهوان والذل

(٤) أي لص قائمك وهي كناية

لعل فقار ظهره أصلبُ منها
 مُخلق في هيئة مُستَصعِبة شديدة المراس كالجمرة
 المتقدة، ولكن الحياة ما زالت به من نكد الى أنكد منه
 حتى طمرته في رمادها لأن له عثرة هو عثرها يوماً
 ومُخلق في مزاجه وعصبه من المادة المشتعلة حتى
 اذا التهب رأت منه الحياة شكها القوي الجميل في الرجل
 المشبوب يرسل فروعه النارية على ماحوله ؛ فاذا خمد رأى
 منه الموت شكاه العنيف الجميل في الجمرة العليقة الذابلة
 حين تمر أنفاس الهواء عليها
 رجل طوال اذا انتصب والناس وقوف حوله
 رأيهم معه أشبه بهم قعوداً مما يفرُّهم من طولهِ وامتداد
 قامته ؛ مجدول الذراعين مشبوح العظام^(١) قد تباعد
 منكباؤه وتراى بينهما صدرٌ مُصفَّح كل ثدي من ثديه
 يجمع قوة أسد

وهو في توثيق جسمه وتفرُّع بعضه من بعض كأنه

(١) الشبح عرض العظام وهو من دلالة القوة والصلاة

شجرة رجال كل فرع منها بطل منكر، وهو في إحكام
تركيبه واندماج بعضه في بعض كأنه تمثال أفرغ من حديد
فتوزعت فيه السكتل هنا وهنا، وكل ما فيه من الإجمال
والتفصيل أنه جسم آدمي يمثل للأعين ناموس « بقاء
الأنسب »

وجاءوا به والناس متصفون عليه من ازدحامهم يثنى
بعضهم على بعض لينظروا الى الرجل الكامل بل الذي نقص
حين كمل، وهو مطلق عليهم كأنه عبارة مبهمه في
صحيفة وكأنهم من حوله شروح وتفسير رُقِمَتْ على
حاشيتها بخط دقيق . وقف كالشيء الغامض يروعه
بغموضه أضعاف ما يعجبهم بروعته وكانوا كالشعاع
خيطاً يظهر من خيط وكان كالظامة نسيجا من قطعة واحدة؛
وأحسبه لو صاح بهم صيحة البأس لسقطت قلوبهم من
علائقها سقوط أوراق الشجر في قاصف من الريح وكان
ما بينهم وبينه في الروعة والقوة كالذي تقيسه بين الف متر
انخسفت تحت الارض والف متر انبثقت فوقها فالبعد بين

طرفيها مضاعف كل منهما . وما زالت سُنَّةُ الله أن
تضاعف الفروق دائماً بين الاشياء التي لا يمكن أن تتفق
حتى لا يمكن أبداً أن تتفق

أما أنا فما يعجبني شيء ما تعجبني القوةُ السليمة في
رجل شجاع والضعفُ السليم في امرأة جميلة وكما أنظر أكثر
الوقت بالنظر الساكن المفكر ، أحب أن أنظر أحياناً بمثل
البرق المتطاير من عيني أسد مفترس أو الازورد الزائع في
عيني جواد ججوح . وخيرُ الناس في رأيي من غسله تاريخُ
أهله بضوء السماء وضوء السيوف معاً ^(١)

« * »

وكان الرجل يظهر كأنما هو لا يمسكه الحديد الذي
يعضُّ على يديه بل ذنبه الذي يعض على قلبه ، ولعله قتل
ضعيفاً مظلوماً فتحول ضعف القتيل وذلتهم ومسكنته الى
أرواح منتقمة من كبريائه تدسُّ في ضميره عنصرَ الجبن
البغيض اليه وتربط الروح الميته الى روحه فلا ينزع ظلمتها

(١) يريد بهذا أن يكون من أجداده الأبطال والحكماء وأهل العلم

عن قلبه كل ما في النهار من الضوء ولا يجرد النور الا في
 الاقرار والندم فيسكن اليهما. وتبينتهُ فرأيتهُ ساكناً
 سيكون الاستهزاء كأنه على ثقة مما خفي عنه تشبه ثقته بما
 وضح له ، أو هو لتعاسته أخفق أكثر مما فاز ، والانسان
 متى كثرت إخفاقه صارت الخيبة في الأعمال هي الخطة التي
 يبني عليها ، أولاً هذه ولا تلك ولكنها الشجاعة تجعل
 المطمئن الى غاية الحياة لا يبالي بكل وسائل هذه الغاية
 المحتومة

وقيل إنه بعد أن غمس يده في الدم طار على وجهه
 تلفظه الأرض من جهة الى جهة حتى أسلمته يده النعمة
 الى يد العدل

« * »

ترى لو سألنا الوحش حين يفترس انساناً : ماذا وقع
 في نفسك منه حتى ثرت به وعدوت عليه ؟ أكان يقول -
 لو أنطقه الله - إلا أنه أبصر في هذا المخلوق وحشاً ما كراً
 خبيثاً إن يكن في دقة ناب الثعبان فهو في خطر سمّه ، وانه

لو رأى عليه سَمَتَ إِنْسانٍ وأَبصر له نظرةَ إِنْسانٍ وأَحسَّ
منه قَلْبَ إِنْسانٍ لَلْجَبَّ من وحشيتِهِ الى الانسانية التي فيه
إِذْ الاِِنْسانية هي حَرَمُ الأَمْنِ الالهيِّ الذي توضع عندهُ
كل الاسلحة حتى أسلحة الوحوش ، وإِذا لا إِنْسان هو محرأبها
الذي تضرع عندهُ كل القوى حتى قوى الطبيعة

كأَمَّا كَبُرَتِ الانسانيةُ حتى عن أن تكون شيئاً
انسانياً فما هي فيمن ترى ممن حَشَوْ جلودهم ناسٌ وحشَوْ
نفوسهم بهائمٌ انما الانسانية هناك بعد أن تخرج
بنفسك من حدود الشهوات الارضية وترفعها فوق هذه
الطبيعة ، وبعد أن تُعاني في شَقِّ طبقات النفس الحريصة
طَبَقاً عن طَبَقٍ مثل الذي يعانيه من يحفر في أصلب أحجار
الارض الى غُور بعيد فهناك لا تَجِدُ الاشياء بل معانيها
وأَسرارها ، ولا الحوادث بل أسبابها وأقدارها ، ولا نيرانَ
النفس بل أضواءها وأنوارها ، وترجع من ثَمَّ وفيك الناموسُ
الذي يُنْبِتُ الخُضرة من العود المغبر^(١) ، ويُخرج النارَ

من الشجر المخضّر ، ويجعلك لبحر هذا الأزل كأنك مكان
من البر

« * »

كان السجين في بهو المحكمة فصعد به الجند الى غرفة
« قاضي الإحالة » ^(١) ووقفوه ساعة على مَطَلٍ بين يديه
فإناء واسع أسفل منه . فتحوّل الناس الى هذا الفناء
وتحوّلت معهم وكان البطل يلوح كطرف المِئذنة فما هو
الا أن أدار عينيه في الناس حتى استقرّ بهما على ناحية
فنظرتُ حيث نظر فاذا داء قلبه وقلب كل من رأى
ست نساء وفتى وطفلان ورضيع ؛ فأما واحدة منهن فأما
وأما الثانية فزوجهُ والباقيات أخواته والفتى فرعُ أبيه ^(٢)
ثم الطفلان والرضيع أولاده وقد جاءوا بدّعونه ويستودعونهُ
وحسبوا أن ليس بين رجالهم وبين الموت الا هذا القاضي
الذي مثّل ببابه فطرح الموتُ ظلَّ فكره على وجوههم

(١) هو القاضي الذي يسمع القضية فان رأي البراءة حكم بها والا أحال
المجرم على محكمة الجبايات لتنضي في أمره
(٢) أخوه وهي كساية

وأخذ الرعب مأخذَهُ فيهم فما كانوا الا كما يجتمع أهل الميت
حول الميت

رأيتُ أمه المفجوعة جالسة لا تحملها رجالها وعلى
صدرها ذلك الرضيعُ تضمه كأنه قطعة من قلبها رجعت
اليه ، وتشدُّ عليه يديها شدة الجزع والحنان كما لو كانت
تحسبه صلةً بينها وبين ابنها تنقل هذه الشدة بعينها اليه
كما تنقل الكهرباء حركة المتحرك؛ وقد انطلقت دموعها وفي
كل نظرة الى نكبة وحيدها مادة جديدة للبكاء

وهي تنحني على قلبها حتى يداني وجهها الأرض كأنها
شعرت به ينكسر فمالت ليلتم صدعٌ منه على صدع ؛ ثم
تمود فتعتدل فيكاد ينشق قلبها فتضغطه بانحناءٍ اخرى
وهي في كل ذلك مرسله عينيها تمطر مطراً . وكانت حين
تنكف دمعها ^(١) وتُنحِّيهِ عن خديها يتساقط من فروع
أصابعها كأنه عدد أيام شقاها

وحسب الرضيع أن هذه الحركة هدهدة ^(٢) من

(١) النكف أخذ الدمع عن الخد بالأصابع

(٢) هدهدت الام ابنها حركته لينام

أُمه لينام فنام هنيئًا على صدرها وأدفأه غليانُ هذا الصدر
فضاعف لذة أحلامه . وإنما هو طفل سماوي لا يزال مَسُّ
يدِ الله على جلده الرطب فلو زَفَرَتْ حولهُ جهنم فأحرقتَه
لكفنته نسمة من نَسَمَات الجنة ، ويساعدة من يستطيع
بطبيعته ان ينقطع من وسائل نفسه الى وسائل الله ^(١)

وأما زوجة الرجل وهي شابةٌ جَزَلَةُ الخَلْقِ ناضرةٌ
الصَّبَا تركها الحزنُ كالمرأة المهملّة تدل أنوارُ بريقها على
مواضع الصدا منها - فكانت واقفة تحمل على رأسها
بُرْمَةً أعدت فيها ما تعرف ان سيدها يشتهيهِ من طعامه ،
كأنها تريد ان تجعل من هذا الطعام الذي يحبه رسالةً
من الحب بين نفسها ونفسه ترسلها اليه في سجنه . ولما
استقرت عينه عليها أرسلت كل عواطفها في مجاري دمعها ،
وقد آيقت أنه قُطع بها دون عِمادِها وزوجها ووالد ابنها
وكنزها الذهبي الذي لا تملك غيره ، فكانت تبكي لكل
معنى من هذه المعاني بكاءً بعينه ، وتبكي على قدر وفائها

(١) والعجيب أنه لا يستطيع ذلك الا اصفر من في الانسانية من أطفالها
وأعظم من فيها من أنبيائها

الذي لاحد له وحبها الذي لاصبر معه ومصيبتهما التي لا
سبب فيها من أسباب العزاء ، وكل نظراتها كانت تقول
لزوجها : لك ما أبكي (١)

وأحاط بها أخواته الأربع مُصَفَّرَ الوجوه ساهاتٍ
الحدود ذابلاتِ الأعين كأنما تدَّين الى الارض من
مشنقة . والبنت مُفْطمة من أمها ولسكنها في الحزن على
أيها أو أخيها بعدة أمهات ، فهل تراها لا تستوفي في بطن
أمها إلا نصفَ حياتها كهيأتها في الدنيا ويبقى
النصفُ الآخر في أخيها فان مرض خامرها نصفُ الداء
وان مات وقع عليها نصف الموت ولا يكون حزنها عليه
إلا هدة في حياتها لا يمكن أن تُبنى ؟

أما أخو السجين فوقف ناحيةً عن النساء وحمل يبكي
ويغص عينيه ولا أدري ان كانت الفِطْرَةُ هي التي أبعدته
عنهن حتى لا يشبههن بوجه من الشبه ولو كان دقيقا كهذه
الخلوط من الدمع . أم هو انتحى جانبا كيلا يتصل به

(١) أي ابكي لك وحدك لا لخاصة نفسي

عدوى الضعف وليستطيع أن يبكي على أعين الرجال بكاء رجل في دمه شيء من القوة . أم هو انتبذ مكانه ليتكلم مع آلامه فان الآلام تتكلم ولكن بإحساسنا ، وكان له مع أوجاع قلبه حديث طويل ؟

وأما الولدان فربض أحدهما في الأرض ووقف الآخر لانه أكبر منه قليلا وكلاهما ضامر الوجه متقبض منكمسر من هول ما يرى . وكانت عيونهما الحائرة تدل على أنهما بإزاء حالة غير مفهومة فأبوهما حي لم يمت وعيونهما مكتحلة بعينيه وليس بينهما وبينه إلا ارتفاع شجرة فلم لا يصلان اليه أو يصل اليهما وعلام هذه المناحة ولا ميت وفيه هذا الجمع ولا معركة ؟ أخذا يدرسان الدنيا كلها في معضلتها الاولى من حيث لا يفهمان شيئا وبدأ العدل الانساني الرحيم يخشن صدرهما ليعاملا ذات يوم معنى الظلم الذي يكون مرة باعثا على العدل ويكون مرة هو إياه ألا ويحك أيتها الانسانية ظالمة أو مظلومة ، ان أمامك من هذين الطفلين الموتورين آتي تصوير قد نقلتا

هذه الصورة وستحفظانها الى يوم ما
صورة بَشِعة على تلوينها اذ لا سوادَ فيها الا من
الحظوظ ولا بياضَ الا من الدموع ولا صُفرة الا من
الوجوه ولا ثُجرة الا من لُهب القلب . وسيمضي كل شيء
لسبيله فيُنسى ولا تُنسى لانها مادة عامية مصورة كرسـم
تعليمي في جغرافيا الجريمة

هي اليوم صورة طفل فهي للحفظ ، وغداً صورة
شاب فهي للعلم ، وبعد غد صورة رجل فهي للعمل

« * »

كان السجين كالميت ترائه تحت أعين أهله وهو في عالم
آخر ، وبين أيديهم وكأنه حسرة بعد أمل ضائع . وكان
كلهم سمعَ أذنيه^(١) ولكنه من معنى ما يحب على بعد
ما بينه وبين المستحيل . ابتلاه الله بالجريمة ثم ابتلاه
بالقصاص ثم تم عليهما بمصيبة في مقدار عذابهما معاً وهي
رؤية أهله جميعاً في حالة لا يملك فيها قدرة ولا صبرا

(١) أي يصل الي سمعه فيه .

إنما يُمسك الإنسان قوتان : قدرةٌ يُمضى بها فيدركُ
 فيطمئن ، أو صبر يقعد به فيعجز فيطمئن . ولكنه متى
 امتحن بشيء لا يقدر عليه وهو مع ذلك لا يصبر عنه
 فقد وضعه الله من ثَمَّت في حالة لا إنسانية ولا وحشية
 ولا دونهما ولا فوقهما إذ يسلط عليه كل القوى التي في
 داخله تدفعه بأشد العنف الى القوى المحيطة به ، ويُغري
 المحيطة به ترميه الى التي في داخله فما إن يزال مرتطمًا
 بين هذه وتلك وكأنه مُلشدة وقعهما يُحطم تحطيمًا بين
 مطرقتين

وهذه البلية من العذاب لا تتفق الا في أشد ما يكره
 الانسان حين لا يجد منه مفرًا ولا يُطيق عليه مقررًا ، وفي
 أشد ما يجب حين لا يقدر الى حد اليأس ولا يصبر الى حد
 الجنون . وأحسبُ ما في الارض منتجرٌ قطَّ أزهق
 روحه - ان لم يكن مجنونًا - الا وهو في احدى هاتين
 الحالتين . فان وجدت من يُثبته الله على حالة منهما وجدته
 كالبقية من الحريق إن لم تكن احترقت وذهبت فقد

احترقت وبقيت

((٥))

أَجْرَمَ السَّجِينَ فَأُخِذَ بِذَنْبِهِ فَمَا ذَنْبُهُ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا ؟
أَهِيَ أَحَدَى الْحَقَائِقِ الْعُلْيَا الْغَامِضَةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِ غَمُوضِهَا
وَاسْتِبْهَامِ حِكْمَتِهَا يَقُولُ الْخَائِرُونَ كُلُّ شَيْءٍ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ ؟
وَيَقُولُ الْمُنْكَرُونَ لَا شَيْءَ فِي كُلِّ شَيْءٍ ؟ وَيَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ
كُلُّ شَيْءٍ فِيهِ شَيْءٌ ؟

أَمْ هِيَ الْحَقِيقَةُ السَّهْلَةُ الْوَاضِحَةُ مِنْ كُلِّ جِهَاتِهَا وَإِنْ
أَصْبَحَ النَّاسُ لَا يَفْهَمُونَهَا إِذْ لَا تَحْتَاجُ إِلَى فَهْمٍ وَإِنَّمَا هُمْ مُوَكَّلُونَ
بِمَا خَفِيَ وَدَقَّ كَدَّ آبِ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ وَالْفَلَسَفَةِ الَّذِينَ
يَقْطَعُونَ الْعُمُرَ فِي دَقِيقِ الْمُبَاحَثِ وَعَوِيصِ التَّرَاكِبِ ثُمَّ
لَا يَنْتَهَوْنَ مِنْ تَتَابُعِهَا إِلَّا إِلَى النِّوَامِيسِ الْمَكْشُوفَةِ
انْكَشَافَ النُّورِ لِكُلِّ ذِي عَيْنٍ تَبْصُرُ . أَهِيَ الْحَقِيقَةُ
السَّهْلَةُ الَّتِي تَجْزَأُ مِنْ أَجْلِهَا آيَةُ اللَّهِ فَيَقُولُ الْمُنْكَرُونَ لَا عِلْمَ ؛
وَيَقُولُ الْخَائِرُونَ لَا عِلْمَ إِنَّا ؛ وَيَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ لَا عِلْمَ لَنَا
إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا (١)

(١) فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَنْ لِسَانِ الْمَلَائِكَةِ يُخَاطَبُونَ اللَّهُ مَرَّ وَجَلَّ « قَالُوا

ألا أيها القلبُ الانسانيُّ المعجز . ان أيامك كلها مُضيّة
في سبيل الموت الأول كما هي مُضي في سبيل الحياة الأخرى
فأنت تسير في طريقين معاً وهذه هي معجزتك التي
لا تُفهم (١)

ونحن من ظلام الدنيا ومن بحثنا عن الحكمة الالهية
الصريحة بوسائلنا الانسانية العاجزة كالذي ينبغي أن تطلع
عليه الشمس في ايلهِ ويبقى له مع ذلك ظلام الليل . يريد
مستحيين لا مستحيلاً واحداً . وهذا هو عقلنا الذي
لا يُعقل

لو أراد الله بك خيراً أيها القلب المسكين لما جعل
شقاءك يُربّي فيك تربيةً كما تربّي أنت في الانسان وكما
يُربّي الانسان في الحياة . فالحب والرحمة والشفقة
والصدقة وكل المعاني التي هي روابط الانسانية في اشتباكها ،
هذه كلها هي وسائل مسرتك في حالة ، وهي بأعيانها

لاعلم لنا الا ما علمتنا « وهو قول الملائكة فكيف بالاس ؟
(١) للحياة الآخرة واجباتها وأعمالها وهذه الحياة الدنيا واجباتها وأعمالها
وقلما أشبهت واحدة واحدة والانسان يعمل لهما معاً ويريدهما معاً

أسبابُ عذابك في حالة اخرى

جذورُ استسرها الغيب ^(١) وفي أيدينا فروعها
وأوراقها وثمراتها . تلك هي شجرةُ الحياة فلما حلوها وثمرها
وما يفي من ظلمها وما ينحسر ، وشذب ^(٢) منها فتنمو وتزيد
وتغير من أشكالها ونلوى أو نكسر من فروعها ما شئنا
ونترك من ثمرها ما ينضج الى أن ينضج أو نتناوله فجأ
لا يساغ ولا يطعم . أما أن نجعل مرها حلواً ونرسل
المادة الحلوة بأيدينا في جذور الفروع المرة التي لا تؤتي ثمرها
إلا عاللاً ومصائبَ ونكباتٍ وموتاً ، فهذا ما لا سبيل اليه
ولا يُغني فيه غناء ولا تبلغ منه حيلة إلا اذا استطعنا أن
نظفيء الفرع الأحر من النار فيتحول في أيدينا الى شيء
آخر غير الفرع الأسود من الفحم

تأتي النعمة فتدني الأقدار من يدك فرع الثمر الحلو
وأنت لا ترى جذره ولا تملكه . ثم تتحول فاذا يدك على
فرع الثمر المر وأنت كذلك لا ترى ولا تملك ، ألا فاعلم

(١) خفيت فيه (٢) تشذيب الشجر تقليم فروعه لينمو

أن الإيمان هو الثقة بأن الفرعين كليهما يصلانك بالله ؛ فاحلوا
فرع عبادته بالحمد والشكر وهو الأُحلى عندك حين تذوقه
بالحس ، والمرُّ فرع عبادته بالصبر والرضا وهو الأُحلى حين
تذوقه بالروح

القلبُ الانساني ميدان تقتتل فيه القوى الأرضية
والسماوية فلا بد في النصر والانتخال جميعاً من الدم يذهب
كأه أو بعضه ؛ والجراح تبرأ أو لا تبرأ ؛ والآلام تُنسى
أو لا تنسى
لا بد ؛ لا بد ؛ لا بد

« * »

وجاءت حافلة السجن فركبها السجين ومضت تجرها
البغال طائفةً منقادةً كما تنقاد اذا هي جرت مركبة ملك
وذهبت وما تحفل بشيء من الدنيا وسياستها وآدابها وأحكامها
ما تحفل بهذا السوط الدقيق المساط على ظهورها أما
أهلُ الرجل فها الكوا وراء العربة ، فلشاب يخطف في
عدوه خطفاً مُنكراً كأن قربه منها يوصل بعض أنفاس

الحرية الى أخيه ؛ والنسوة يَهْتَلِكْنَ في جريهنَّ وكلما
أبعدت الحافلة علا صراخهن ليبلغ السجينَ منهن شيء ما ؛
أما الطفلان وجدَّتْهُما فوقفوا من الضعف كأنما وقفت
قلوبهم ولا يَكن نظرات الجدة ارتمت الى العربة فلما غابت
عنها ارتمت الى السماء

وأما الرضيعُ ، هذا اليتيمُ في حياة أبيه ، هذا المسكينُ
الذي ابتدأ تاريخه بجرمة لا يدله فيها ، هذا الضعيف الذي
لا يزال جلده أرقَّ دِياجَةً من ورق الزهر ومع ذلك تُدق
فيه منذ الآن مساميرُ الفقر واليُثم والضياع . أما الرضيعُ
اليتيمُ المسكينُ الضعيفُ فكان وحدهُ بين هذه المصائب
الماحقة دليلاً على الأمل الانساني في رحمة الله إذ فتَحَ عينيه
لنور وابتسم

« ه »

نَزَتْ كَبِدِي ^(١) لما رأيتُ الحب الهالك يستنفِضُ
امرأةَ السجينِ ويسوقها جامحةً في عِنَان الغيظ تترامى على
وجهها . كانت المرأة غريقة في يأسها وكان شاطئ

(١) اضطربت في مكانها من الاشفاق ونحوه

الأمَل يفرُّ أمامَ عينيها فراراً لأنَّ بينها وبينه موجة دمعها
وقد صدَّع الحب في قلبها صدعاً ليغرز فيه الشوكة
المُسْتَحْدَّة من ألم الفراق لمن تحبه ؛ تلك الشوكة التي ما نفذت
قلباً فاستقرت فيه إلا جعلت الحياة كلها معاني شائكة
حتى تُحْطَمَ أو تُنْتَزَع

امرأة والهة فيها نفسها المذبذبة وفي نفسها جُلُها المذبذب
وبين هذين طفلها اليتيم الذي يقتضيها أن تظل حانيةً عليه
مُحنوٌّ أبوين ؛ فهي تجمع على قلبها عذاب ثلاثة قلوب وتألم
بنفسها الواحدة ألم الرثاء لزوجها الذي نزلت به العقوبة
في جسمه وروحه ، وألم الأئساف على مجدها الذي نُصِبَ
على أعين الشامتين في موضع الدُّلَّة ؛ وألم الرحمة لطفلها
الذي بلغ سنَّ الهم وهو لا يزال في الثدي^(١) وألم الأوعية
لحياتها التي لم تعد الأيام تناجيها بغير لغة الدمع ، وألم الأسي
على شبابها الذي تسافطت آماله كما تحط الشجرة بالخضراء
وراقها لتجفَّ

(١) أي الرضيع وتقول مات في الثدي إذا مات رضيعاً

ألا يا ماء البحر ما أنت على أرض من الملح؛ فبماذا
أصبحت زُعَاقًا^(١) لا تحلو ولا تُساغ ولا تُشرب؛
إنك لست على أرض من الملح ولا سكنك يا ماء البحر ذابت
فيك الحكمة المِلْحَةُ

« * »

ما الفراق إلا أن تشعر الأرواح المفارقة أحببتها بمس
الفناء لأن أرواحاً أخرى فارقتها؛ ففي الموت يُمس وجودنا
ليتحطم، وفي الفراق يُمس ليلتوي. وكأن الذي يقبض
الروح في كفهِ حين موتها، هو الذي يلمسها عند الفراق
بأطراف أصابعه

وإنما الحبيب وجود حبيبه لأن فيه عواطفه، فعند
الفراق تُنزع قطعة من وجودنا فنرجع باكين ونجلس في
كل مكان محزونين كأن في القلوب معنى من المنأحة على
معنى من الموت

وكل ما فيه الحب فهو وحده الحياة ولو كان صغيراً

(١) الزقاق الماء المر لا يطاق شربه وتأنيبه المرارة من شدة الملوحة

لَا خَطَرَ لَهُ وَلَوْ كَانَ خَسِيسًا لَا قِيَمَةَ لَهُ ، كَانَ الْحَبِيبُ يَتَّخِذُ
فِي وَجُودِنَا صُورَةً مَعْنَوِيَّةً مِنَ الْقَلْبِ ؛ وَالْقَلْبُ عَلَى صَغَرِهِ
يُخْرِجُ مِنْهُ كُلُّ الدَّمِ وَيَعُودُ إِلَيْهِ كُلُّ الدَّمِ

فِي الْحُبِّ يَتَعَلَّمُ الْقَلْبُ كَيْفَ يَتَأَلَّمُ بِالْمَعَانِي الَّتِي يُجَرِّدُهَا
مِنْ أَشْخَاصِهَا الْمَحْبُوبَةِ وَكَانَتْ كَامِنَةً فِيهِمْ ، وَبِالْفِرَاقِ يَتَعَلَّمُ
الْقَلْبُ كَيْفَ يَتَوَجَّعُ بِالْمَعَانِي الَّتِي يُجَرِّدُهَا هُوَ مِنْ نَفْسِهِ وَكَانَتْ
كَامِنَةً فِيهِ . فَتَرَى الْعُمُرَ يَتَسَلَّلُ يَوْمًا فَيَوْمًا وَلَا تَشْعُرُ
بِهِ ، وَاسْكُنْ مَتَى فَارَقْنَا مِنْ نَحْبِهِمْ نَبَّهَ الْقَلْبُ فِينَا بَغْتَةً مَعْنَى
الزَّمَنِ الرَّاحِلِ فَكَانَ مِنَ الْفِرَاقِ عَلَى نَفُوسِنَا انْفِجَارٌ كَتَطَايُرِ
عِدَّةِ سَنِينَ مِنَ الْحَيَاةِ . وَتَرَى الْعُمُرَ يَمْتَلِئُ شَيْئًا فُشِيئًا
وَلَا نُحَسُّ الزِّيَادَةَ كَيْفَ تَزِيدُ ؛ فَإِذَا فَارَقْنَا مِنْ نَحْبِهِمْ نَبَّهَ الْقَلْبُ
فِينَا مَعْنَى الْفِرَاقِ فَكَانَ مِنَ الْفِرَاقِ عَلَى أَكْبَادِنَا ظَلَمٌ كَظَلَمِ
السَّقَمَاءِ الَّذِي فَرَّغَ مَأْوُهُ جُفًّ وَكَانَ الْفِرَاقُ جُفَاءً

أَلَا يَاطَّأُ الْحُبُّ إِنْ لَكَ إِذَا طَرَتْ جَنَاحِينَ فَمَا أَقْرَبُ
مَنْ هُوَ عَلَى جَنَاحِ الْفِرَاقِ مَنْ هُوَ عَلَى جَنَاحِ الْمَهْجَرِ

الفصل الرابع

﴿ الرِّبْطَةُ ^(١) ﴾

واطلَّعَ في سحابي هذا الشيطانُ الذي تتلألُ على
وجهه مَسْحَةٌ مَلَكٌ ^(٢) فهو أخبث الشياطين لأنَّه يسوق
الى الهلاكِ في نُزْهَةٍ على شاطئ نهر الحياة
هي فلانة ؛ كانت امرأة فرنسية ربيطةً لرجل عرفته
قديماً لأعرفها منه فأكتب عنها رأي العين وأكونَ
أفهمَ بها وأدنى الى حقيقةتها كما يريد عالم الطبيعة أن يكتب
عن بُركان يتأجَّجُ فهو يَدْفُفُ اليه ^(٣) يَطَأُ على أرض كأن
تراه حريق يتنفس آخر أنفاسه

ماساح رجل في العمران ولا ضربَ في مجْهَلٍ من
الأرض ولا ضلَّ في تِيهِ مِنْهَا ولا كشف للناس غَمَضاً من

(١) هي المرأة التي ترتبط أجراً أو بمقدمني ... هي بيت رجل فتزل
منزلة الروحة على أنها مديرة بيته ، وتكون ساقطة المعنى شريفة الاسم
« Mauresse » وهذا الجنس من النساء طاعون الرواج في هذا العصر
(٢) كناية عن روعة الجمل (٣) يمشي في بطن فوق الديب

غُمُوضُهَا ^(١) وَلَا تَطْوُحُ فِي بَحْرٍ مِنْ بَحَارِهَا إِلَّا وَأَنْتَ
وَاجِدٌ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ مَعَانِيٍّ فِي نَفُوسِ النِّسَاءِ ؛ كَأَنَّ هَذِهِ
الْمَرْأَةَ تَمَثَّلُ مَصْغَرٌ مُخْلَقٌ بِمَعَانِيهِ فِي مُتَقَابِلَةِ الْأَرْضِ بِمَعَانِيهَا ؛
فَهِيَ فِي رُوحٍ إِمَّا الرِّجْلُ الْخِصْبُ أَوْ الْجَدْبُ ، وَهِيَ
لَهُ فِي الْحَيَاةِ إِمَّا الْمِلْحُ أَوْ الْعَذَبُ ، وَهِيَ مِنْهُ الْعَامِرُ
وَالْخَرَابُ وَلَسَكَنٌ فِي الْقَلْبِ

«*»

كَانَ صَاحِبِنَا فَقِي نَامِعٌ عَلَيْهِ غُرَّةُ السَّبَّابِ وَقَدْ رَقَّ حَتَّى
كَادَ يَخَالِطُ حَدَّ الْإِنُوثَةِ ، وَلَآنَ حَتَّى قَارَبَ أَنْ يَفُوتَ مَعْنَى
الرَّجُولَةِ ، وَخَرُفَ حَتَّى أَوْشَكَ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانًا تَتَفَتَحُ
فِي رُوحِهِ مَعَانِي الزَّهْرِ ؛ وَالكَنْكَ إِذَا كُنْتَ رَجُلًا صَحِيحًا
أَمْرَزَتْهُ عَلَى عَيْنَيْكَ كَمَا تُعْرِ كِتَابًا لَا تَرِيدُ أَنْ تَقْرَأَهُ : فَقَدْ
تَمَدَّنَ فِي أَوْرَبَا وَلَبِثَ عَنْ قَوْمِهِ مَا شَاءَ اللَّهُ ^(٢) ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِمْ
كَأَنَّ أُمَّهُ لَمْ تَلِدْهُ وَكَأَنَّ أَبَاهُ جَدُّهُ الْأَعْلَى . . . فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ
هَذَا بَضْعَةُ أَجْدَادٍ مِنْهُمْ الْمَسِيوُ أَوْ الْمَسْتَرُ أَوْ السَّنِيوَرُ أَوْ

(١) الْبُضُّ الْمَكَانُ الْجَهْلُ مِنَ الْأَرْضِ (٢) أَيِ غَابَ عَنْهُمْ تَقُولُ لَبِثَ عَنْ
أَهْلِهِ كَذَا ثُمَّ أَتَانَهُمْ

الهر... وأصبح يُحس أن كل شيء في هذا الاجتماع الشرقي مسلط على نفسه الرقيقة النحيلة بالغِلظة والجفاء والعنت والأذى كأنه رحمه الله... ابن الضَّبَاب فلما برز الى هذه الشمس وضحا في أشعتها الحامية جعل يذوب ويتبخّر...

وكان من هؤلاء الفتيان الذين اذا تعلموا في اوربا نفّوا جهلهم بالعلم ثم نفّوا علمهم بجهل آخر... ثم جاؤنا كحرفي النفي ما ولا... فليس منهم الا التـكذيب والإنكار والشك ؛ وتراعى أظرفَ وأجمل وأزهى من فراشة الربيع لا يريدون الحياة الا أزهاراً ولا يُطيعونها الا ربيعاً ، وعلى أزهارهم وربيعهم فليس لنا منهم الا نُقط من الألوان وأصوات من الطنّين... وأجسامٌ ليس فيها رجالها

«*»

سألت هذا الفتى مرة : أنت مصري ؟ قال ووطني صميم . قلت أفترى انك تصلح في علمك وتهذيبك أن تكون مثالا يتأسى بك ذنءٌ بلادك ؟ قال اني لأرجو

ذلك . قلت وأنت من القائلين بتحرير المرأة الشرقية
ومساواتها بالرجل في الحرية المطلقة وبعثها من هذه القبور
التي تسمى المنازل ؛ قال ذلك مذهبي . قلت فكيف ترى
إذا اقتدى بك المصريون فأصهروا الى الاوربيين وخلطوا
الشمْل بالشمْل ؟ قل لعل ذلك خير الطبِّ لبلادنا فلا مَعْدِلَ
عنه في رأيي إذ يأتيها بالدم الجديد ويُدمج في طباعها
النظام والدقة ويبني البيوت من داخلها . قلت أحسنتَ
بارك الله عليك ؛ فكيف ترى إذا سألناك التسوية
وقلنا لك دع أختك تَصْبُ الى رجل أوروبي وتزوج
منه إِجَارَةً . . . وتأنت به الى مصر كما أتيت أنت بصاحبة
بيتك ثم لتفعل كل امرأة مصرية فعلها فيكون لكم
أوربيات ويقوم عليهن أوربيون . . . قال أعوذ بالله . قلت
فعل الله بك وفعل ، أفبإلغ من غفلتك أن لا تعرف لعنة
الله الا اذا رأيتمها ملء مملكة ، ولا تعرف حقَّ وطنك
فيك الا حين تراه غريباً منقطعاً لا حق له في واحد من
أهله ، ولا تدرك واجب التضحية بذلك وشهوات نفسك

الا بعد أن ترى الوطن من اضطراب الموت في مثل حال
الذبيحة تذخضُ بوجلها تحت سكين الذابح ؟

قال فما أنا وأمثالي الا شذوذٌ من القاعدة التي يجب
أن تبقى أبداً قاعدة . . قلتُ فعمليكُم غضبُ القاعدة ومقتُها
وسخطُها ؛ والله لأن تُفجّع البلاد فيكم جميعاً وتستركم
بالقبور رمةً بعد رمةً ؛ خيرٌ من أن تتقلد منكم بليّة
الحياة في اختلاط الأنساب وارتداد الأسماء العربية عن
دينها ^(١) وكساد النساء الشرقيات وتخنث الرجال الشرقيين
وتدسّس هذه العروق الفاحشة اللئيمة في ذرية الوطن .

قال فكم من امرأة وطنية هي حمل على ظهر زوجها . قلت
وكم من امرأة افرنجية هي كميّة على قفا صاحبها ^(٢) . . .
قال فماذا نصنع ونساؤنا جاهلات لا صبر عليهن ؟ قلت
أفترهق روحك اذا مرضت أم تطبّ لمرضك في اناة
وصبر ؛ وهل تفر من وطنك اذا ابتلاك بتضحية أم تثبت

(١) يسمون أولادهم أسماء ينكرها الدين والوطن معاً

(٢) هذه كناية عن المرأة يسكت الناس عنها أمام زوجها فاذا ولي مهم قالوا
في ظهره ما قالوا . . وكووا قفاه

وتتجلد . ثم ماذا أفدنا من علومكم اذا لم يحمل كل عالم منكم
جاهلةً منهم فيعلمها ويشققها ويخلصها إخلاصَ الذهب
الصافي ويربح ثواب الوطن فيها . واذا كنتم تهملون نساء
بلادكم لانهن جاهلات فحدثني أفلا يزيدهن ذلك جهلا
وضياعاً ويضاعف مصيبة البلاد فيهن وفيكم ويكون تركهن
الذي قد يُستصلح سبباً لما وراءه من الفساد الذي لا صلاح
له . وهل ترون المرأة الوطنية منكم الا كالزهرة
نضرتها في غصونها وأوراقها فاذا طرحتها غصونها عمل
منبتتها الاجتماعي فيها وهو التراب حين تتصل به عكس
ما كان يعمل حين لم يكن يصل اليها الا من فروعها وأوراقها
غذاءً يحمل روح الماء وروح الشمس ؟

أما والله إنكم فئةٌ لا تُعد الا في مصائب وطنها وانكم
لكالاجنبي مادام احدكم لا يصلُ أمومةً أولاده بتاريخ
أمه ، وانكم لكالغاصب مادمتم تغصبون حق نساء الوطن
في رجال الوطن ، وانكم لكالعدو ما دام كل واحد منكم
حرّاً على ردت . ألا فدعونا من الخاهلين فقد يكون

من بعض عذرهم الجهل ، ومن المتلصّصين فمن عذرهم الحاجة ،
ومن المفسدين فمن عذرهم سوء التربية ، ومن السافطين
فمذرهم ضعف النفس ، ومن الخاملين فمذرهم الترك
والإهمال ، ثم اعطفوا على هؤلاء مائة واو أخرى فكلها
مُسَوَّغَةٌ أَعْدَارُهَا المحمولة على محامليها وكلها أقرب إلى
الدُّهْمَاء منها إلى المتعالمين وإلى أخلاط الناس منها إلى الخاصة
وإلى السّفلة منها إلى العالمة . ولكن ما عذركم أنتم عن
شهوات أنفسكم وإيثاركم هذه الشهوات واستهتاركم في
هذه الأثرة ، يعجزُ أحدكم أن يكسر جِمَاحَ نفسه
فيجني على نفس من نساء وطنه هي التي زهد فيها واستبدل
منها ، وعلى نفوس من أبناء وطنه هم الذين سيُعقِبُهُمْ من
ذريته ويأتي بهم للبلاد أجساماً غابت قلوبها ونفوساً بردت
دماؤها ، ينزعهم العرقُ الاجنبي من أمهاتهم اللاتي ولدتهم
إذا حمي دمُ البلاد لبعض أغراضها ، ويكونون في أمراضها
من أسباب موتها وفي صحتها من أسباب أمراضها
ما لكم تُنزلون أنفسكم منزلةَ الطفل البكر من أهله

ليس له الا حظوظه وشهواته مُسوَّغاً كل ما يقترحه عليهم
لأنه هو كان اقتراحهم على الله ، محمولا على قلوبهم لأنه بعض
قلوبهم ، يُفسد المتاع ويحطم الآنية وتنزوه النعمة نزوها
فتجعل نصف عقله جنونا ونصف أدبه حمقا ونصف المنفعة
به ضرراً ونصف ظرفه عنثاً ونصف لينه مشقة ويكون
خير نصف الخير أما شره فشر اثنين . فهلاً كنتم من
أهل بلادكم كالآب من أولاده يرى حقَّ ضعفهم أكبر من
الحق الذي لقوته وواجب مرضهم فرق الواجب لصحته ،
فهو يبدل سعة نفسه في ضيق أنفسهم ويحملهم صغارا
ليجمعهم كباراً ويعصبر عليهم حمقى ليجمعهم عقلاء ويرى عمره
تأثراً من بعض أرزاقهم وهو لا يستخلف من العمر شيئاً ،
وحوائسه كأنها من بعض خدمهم وماله غير حوائسه ،
ويراع كأنما جاؤا اليه من السماء بعد أن اشتروه من الله وباعه
الله منهم بتلك النقطة الشأ بكّة فيهم من دمه ؟

ألا ليتكم جئتم للبلاد من أوربا بمحاريث ، بدلا
من هذه الموارد ؛ وجئتم بالسّماء ، بدلا من هذا

الوساد^(١)؛ وبالبهائم للسواني، لا بالحلائل والغواني^(٢)؛
وببيضائع الحوانيت، لا ببيضائع أنطوانيت... وليتم
اذ كنتم رجالنا لم تغلبكم نساؤهم، واذ كنتم سيوفنا لم تأسرهم
دماؤهم؛ وياليتكم لم تنعموا وتتأنشوا، فكانت البلاد تجدد
منكم أهل البأس، ولم تتعلموا وتتخنشوا، فكانت الأرض
على الأقل تعرف منكم أهل الفأس...

« * »

ذلك هو الرجل. أما صاحبة فامرأة فرنسية جميلة الوجه
في طلعة الصبح، شابة الجسم شباب الضحى، مُتَلَهِّجَةٌ
الأنوثة كشعاع الظهيرة، رقيقة الطبع رقة الاصيل، زاهية
المنظر في مثل شفق المغرب من تألقها؛ ثم هي تنتهي من
كل ذلك الى مخبر أشد ظلمة من سواد الليل... ومن أين
اعتبرت ألفتها رذيلة مهذبة يترقرق فيها ماء العلم ويجول في
حسنها شعاع الفلسفة كأنها عين فاتنة تدور فيها دمع دلال

(١) الوساد كناية عن الزوجة نفسها والمواريث كناية عنهن أيضا

(٢) الحلائل الزوجات والسواني جمع سانية وهي السواق تدور فيها الهائم

ولم أكّد أراها حتى أخذني جمالها فان لها عينين
 ركبتهما تركيباً يجرّ المصائب على القلب ؛ تلقيان أشمةً
 ضاحكة أو عابسة يُخلق منها للقلوب حوادث وتواريح؛ وترى
 بنظرات تُبريء الصدور أو تُمرّضها؛ وتبسم بوجهها كله
 نوعاً من الابتسام يكاد يسيل من كل ناحية في وجهها قبّلات ؛
 أما افتراءُ شفقتها فهو جمال على حدة يشبه نقل معاني الخمر
 من فمٍ الى فم . . . امرأة ساحرة لأدري ان كانت بُنيت
 على السحر أو على الحب ، ولا ان كان هذا الحب قد مُخلق
 لعنةً عليها أم هي خلقت لعنة عليه ؛ والحب دائماً بركة
 امرأة ولعنة امرأة ، والتي تزرعه في كل مكان هي التي
 لا تحصد منه شيئاً فان نالها شيء منه كان تبعاً عليها روحاً
 لسواها . وأشد ما في هذه المرأة الجميلة من الفتنة
 اجتماع شهواتها في صوتها النديّ المستطرب المتحرّز^(١)
 الذي لا يخلو أبداً من حرفٍ تسمع فيه همسٌ قبلة من قبّلاتها
 يبدأنى مع كل ذلك استمعصمتُ بفلسفتي وحكمتي

فلم أرها الا في مثل حربة التفاحة إذا أفرط عليها النضج
فابيضت واحمرت وفاحت ولمعت وإن العفن لبادٍ من
تحتها يحذر منها وينذر؛ وفي مثل فروة الدب استرسلت
ولانت في نعومتها ولكن لا منفعة منها الا بقتل لابسها
وإزهاق الحيوان كله في سبيل الجمال الظاهر من جلده؛
ونظرتُ إليها نظرة تخطت بها الشباب وأيامه فاذا هي بأثثة
أملق الدهرُ حسنًا^(١) وكان ذهبًا على جسمها وفضة، وإذا
هي عجوزٌ هالكة قد انحنى تحت لعنات ماضيها وتركها
دنياها كالسجن المهدم لا يذكر مع انتقاضه الا بلموصه
ومجرميه وعقابهم وآثامهم، وتشتق بمعانيه بعد الخراب حتى
حجارتُه وحتى ترابه . وأبصرت في هذه الحسناء اللعوب
التي تستوقدها الضحكة بعد الضحكة تلك الهامدة المريضة
التي تطفئها الحسرة بعد الحسرة، وسقطت الشجرة الخضراء
النامية فاذا في مكانها جذعٌ خشبيٌ ملقٌ زهدٍ فيه نور
السماء وطين الأرض معا . وتمثلت لي هذه المتكئة على

(١) أفناء وأفرها منه كلاملاق من المال

طرازها وأرائكها تتبرّج في مُسندُها وحريرها فرايتها
ممدودة في حفرتها مسجّاة بأكفانها قد هيلَ عليها تراها
ولم يرحمها راحم ولا النسيانُ يستر رذائلها عند من
عرفوها ، وقد اجتمع عليها بعد عشاقها من دود الناس ...
عشاق آخرون من دود الأرض ؛ ويفنى جسمها حين يفنى
ويبقى ضميرها الروحيُّ إلى الأبد ضميرٌ مُومِس

فلما وضعتُ أمرها على ما خيّل إلى من عاقبتها اذا هي
تفور كما يفور النبع القدير بالجماءة التي فيه ^(١) ، واذا هي
كالخشبة المتقدة في حريقها من فوقها ظللٌ من النار ومن
تحتها ظللٌ ^(٢) ؛ واذا جمالها قد استحال في عيني وانفصل
منها فأظهرها وظهر معها في بريق الزجاجة من الخمر
بجانب السكير المتحطم تتساقط نفسه مرضاً وسكراً فشكل
ما كان فيها ^(٣) جمالا فهو فيه أقبح القبح

ورثيت لها أشد رثاء وأبلغه في الرحمة والرفقة حتى

(١) الجماءة طين أسود منبس ، والاخلاق السافلة هي حمأة الطينة الانسانية

(٢) قطع كقطع السحاب (٣) أي الزجاجة

عادت نظراتها تقطر على نفسي دموعاً سخينة كدموع الذل .
ويا حرّة قلبي من الاشفاق عليها وأنا أرى في احمرار جرحتها
سواد خمها ، وفي أسباب سرورها أسباب همّها ؛ وبالهفي
عليها إذ أرى هذه الجميلة التي لم تنظر أكثرَ ما نظرت الا
الى خطيئة ، ترفع نظرها أحياناً الى السماء بقوة في داخلها
كأنّها تقول لمن يفهم عنها إن هنا القدر وهناك المقدّر .
ويا بؤسها حين لم تعد تظهر في روعي الا كما يتخايّل ظل
القمر في الماء ، أنظر فيه الصورة من غير معنى والضوء
من غير قبس وأرى فيه الخيال وليس فيه القمر

«*»

والمتّ بما في نفسي وكانت تقرأ في وجهي قراءة
فأنه ليس ذوعينين ينكشف لعينيه سرّ العاطفة الذي
يتفرّق في الدم الا من خالط القلوب وغلب عليها بخير
ما في الخير أو شر ما في الشر ، فهو يتدسّس اليها مع
ملائكتها أو مع شياطينها ؛ وانما خلقت هذه المرأة وأمثالها
في هذا الجمال وهذا الظرف وهذا الفساد لتستطيع أن تخرج

الشیطان بقلب من تَغْتَرُهُ^(١) مزج المادة والمادة بواسطة
بينهما من قوة ثلاثة متهيئة لهما معاً ، فهي بجوهرها مسلطة
على القلب غالبية على أمره كتسليط السرور والكآبة وغلبتهما
طبعاً بما فطر الانسان عليه . وقلماً أصق الشيطان بقلب
ما لم تكن في هذا القلب مادة من اللذة أو الكآبة فكلتاها
كیمیاء الخطيئة والمعصية والشك . ولربَّ عابدٍ زاهدٍ
طاحت به كآبته فقدفته الى النار كما تقذف بالفاجر لذاته
فيلتقيان منها في غمرة واحدة^(٢) وإن كانا في العمل على
طريقين مُتَدَاوِرَيْنِ^(٣) وما أشبه إسراف اللذة أن يكون
الرجاء اليأس ، فالمُسْتَهْتَرُ بهذه اللذة يَغْلُو في استمتاعه غلوً
من ظلم نفسه لا يَتَحَرَّجُ ولا يتورَّع^(٤) . وما أشبه
إعنات الكآبة^(٥) أن يكون اليأس الراجي فالمبتلي بالكآبة
يَجْفُو عما عداها جفاءً من ظلم نفسه لا يتسمَّح ولا

(١) تطاب غرته وغفلته لتغلبه على فضيلته وعفته (٢) الزمرة موضع أكثر

البار (٣) أي مخلفين متناقضين (٤) لا يمتنع من حرج أو ورع ولا يرمى

قانوناً ولا ديناً (٥) ارهاقها وشدتها على النفس

يترخص (١) والنفسُ الغالية التي جاوزت قدرها كالنفس الجافية التي انحطت عن قدرها كالتأهها على طرف يمين الشر وشماله

« * »

ونظرت الى تلك المرأة نظرة حزت في قاي لأنها لا تسألني المدح وكذلك لا تريد مني الذم ، وبعد أن رضيت أن تسمع لي كأنها تقرأ كلامي في كتاب وواثقتني على أن تعبرني مخاطبا فكرها دون شخصها ومُجاورا فلسفتها دون تاريخها قلت : أحسبك لست كغيرك من الناس . قلت ولا أنا كالملائكة . قالت فتعرف الخطيئة الانسانية وتقدرها قدرها ؟ قلت وأعوذ بالله منها وأتخامها . قالت وتعرف ضعف الطبيعة ؟ قلت ومعاندتها وصلابتها أيضا . قالت فكيف تراني أأست نصف المسئلة السماوية على الأرض : وهل أنا إلا معنى متجسم من معاني القدر ، وهل خرجت من

(١) لا يتساهل فيما لا مد منه لنفسه وفي الحديث الشريف « ان الله

يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عرائمه » أي المباح والمفروض مما

سُلائي الا كما خرجت الحرة من عناقيدها وهل خلقت
جميلةً غالية كالدينار الا تُشترى بي بمضْ أوقات السعادة ؟
قلت أما المسئلة السماوية فأن كنت نصفها فقد كان الشيطان
نصفها كذلك . وأما القادر المتجسّم فلعل الحريق في بيت من
نُكِبَ به أَجملُ وأخف احتمالاً وهو مع ألوانه الفنيّة ...
حريق ولا يسمي أبداً الا حريقاً . وأما الحُر فهل هي الا
عُفونة أسكرت لانها عفونة . وأما الدينار الذي تُشترى به
أوقات السعادة فهو نفسه الذي يُغرّي اللصوص ويوجد هم ،
وإذا كانت هذه السعادة كما تصفينا في نشوة الحُر فهل
كُشترى الحُر الا وفيها سُكرها ومرضاها وجنونها ؟

فالت حداثتي لم كان الحب اذن ، وهل خاق الا
للاستمتاع به من حيث يتفق وعلى أحسن ما يتفق ؟ فقلت
انما خلق الحب قوة ليقيد بقيوده كسائر القوى الطبيعية ؛
فأنت تصدعين عنه كل قيوده وتتخذينه تجارة في النفوس
فلا تردّين يداً لا مسرٍ ولا تتمنعين على دعوى فيها ثمنها
وبذلك تجربين مجرى القوة المدمرة ؛ ومن ههنا كان لك في

الاجتماع الانساني شأنٌ ليس كشأن المرأة بل كشأن
المادة ؛ وكان بعض الآداب والقوانين ينزل منك منزلة
المطافئ الممددة للحرائق، وبعضها بمنزلة السجون المرصدة
للجرائم ، وبعضها بمنزلة الاحتقار المهيأ للتاريخ السيء . وما
ظلمك الاجتماع في شيء لآنك أنت في نفسك ظلم له ،
وان الدواء الذي يُبرئ من المرض لا يُعد مرضاً للمرض
وأهونُ بذلك اذا عُدَّ ما دام يُبرئ من العلة ، فان دَرءَ
المفاسد قبل جلب المنافع ودرءُ المفسدة هو في نفسه منفعة .
قالت فكأنك تذهبُ الى القول بأن مثلي مثلُ العقرب
والحية وغيرهما مما لدغ أو نهش أو سمَّ وأن دأبي في
الاجتماع كدأبها فليس لها الا القتلُ حيث وُجدت ، ومثلُ
الأوبئة والحميات وما قتل وما أعدى فليس الا مُدافعتهما
أو الفرارُ منها فراراً بالحياة لا بشيء دونها ؛ وكأني في رأيك
لست مخلوقة كالمرأة بل كحيوان الأذى والمقت والخوف ؛
قلت بل مخلوقة مثل كل امرأة كانت وكل امرأة تكون أو
هي كائنة ؛ ولكن فيك من الزيادة عليها زيادة ماء السيل على

ماء النهر وزيادة الحِدَّة على الطَّبَّع الرزين وزيادة الطيش على العقل . أفإذا طغى النهر فأفسدَ وخرَّب ، وفارت النفس كَحُمُوتٍ واعتدت ، وطاش العقل فزلَّ وأخطأ ؛ نهض ذلك عندك عذراً في وجوب التخريب والاعتداء والخطأ وتسويغها ووجب من نَمَّ أن تعتدل هذه الصفاتُ الجائرة على قلوب الناس وأن يطمئنوا إليها ويرضوها مُذْغِين فلا يقيموا على النهر العاتي جبالا من السدود ، ولا يجعلوا للنفس الطائشة سجناً من الحدود ، ولا يقولوا لمن يجنيها عليهم إن كان عندك الفرار فعندنا القيود . . . ؟ قالت كلاً ما تبلغ بي الغفلة هذا المبلغ ولقد درستُ وبحثُ وفي هذا الرأس ما في رأس رجل عالم فلا تظنَّ غيره ، ولكني إن أجن لا أجن إلا على نفسي وهي لي وحدي وأنا حرة كيف أتولاها ، أفأنت رادِّي الى العبودية ؟ قلت أنت حرة ماشئت وما وسعتك الأرض إذا كنت لنفسك وإذا كنت لا تتصلين بأحد من الناس اتصال العلة المهلكة أو المعجزة أو المذهلة أو اتصال الرذيلة السامة بالدم النقي

قالت فاني لا أتصل بأحد ولكنهم يُغرمون بي
ويتنافسون عليّ فأجد في تنافسهم لذة من أمتع لذاتي .
قلت وكذلك نرذمُ الحفرة إذا اعترضت طريق السابلة
وقايةً لمن عساه يغفل فيعثر بها، فان بلغت أن تكون هاويةً
طبيعية لا حيلة فيها ومردت بها طبيعتها المنخفضة ،
ميزناها بالعلامات وضبطناها بالحدود وسميناها بالأسماء
وجعلناها آية التحذير من الهلاك حتى لا نزل أحد فيتردى
فيها ؛ وإذا كان من لدّتك أن تشهدى اقتتالهم عليك فهذا
حسبك في أن من تعاستهم أن يقتتلوا ، وكنت ولا جرم
في لغة الاجتماع من بعض معاني الشقاء والتعاسة . ثم
إن في تلك اللذة منك دليلا حيوانيا على أن في طبيعتك من
إناث البهائم الشاردة التي تقف ليتناحرَ عليها ذكورها
وقوف المملكة المباحة تنتظر المنتصر؛ فتقتل باٍباحتها كل
النفوس التي زهقت حولها، ولو هي لم تكن كذلك لم يكن
شيء من ذلك : فكنت ولا جرم في لغة الاجتماع من بعض
معاني البهيمة . ثم ان هذا وذلك فيك نذيرٌ بانقلاب

الانسانية ونزولها دون حدها وتراجعها في سبيل الجاهلية الأولى واتصالها من كل ذلك بوحشيتها الغابرة كأن لم يكن علم ولا دين ولا تهذيب فكنت ولا جرم في لغة الاجتماع من بعض معاني الرذيلة والسقوط

قالت هم لا يتناحرون علياً بأنبيائهم ولا مخالبتهم ولا قرونهاهم... وانما يفعلون ذلك بأموالهم. قلت فلا جرم كنت بهذا في لغة الاجتماع معنى من معاني السفه والفقر والخراب

قلت ولكن كم من رجل أحبني فرأى في آية الإبداع الإلهي فكان لا ينالني الا كما ينال المؤمن لذة قلبه. قلت فمذا أبداع الاصنام وسلطها على الهوى ثم سلطها بالهوى على كهناتها وعابديها فما يرون الحجر المعبود حجراً الا لأن عليه بناء ملكوت السموات... ولا البقرة المولدة بقرة الا لأنها تجر محراث الوجود... ولا الحشرة المقدسة حشرة تدب ديبها البطيء الا لأنها تحمل الخليقة... لا جرم كنت بذلك في لغة الاجتماع

معنى من معاني الضلالة

قلت أتحسب أنك أعييتني في مأخذ الحجج واستنباط
البراهين ؟ قلت فماذا ؟ قالت إني أعدُّ الزواج أسرا
واستعبادا وقد بلغت من العلم مبلغا لا أرى فيه أن تكون
حريتي محدودة بساطة رجل بين كلتي لا ونعم ، فأثرت أن
أتخلص من الحب بالوقوع فيه لأعرفه وعرفته لأتقيّه على
نفسي واتقيته لأبتلي به ولا صرّفه في منفعي ؛ فليس لي في
الاجتماع زوج واسكن لي الحب ، وليس لي فيه أهل ولكن
لي الجمال . قلت أفلا يتسلط على حريتك الدينار والدرهم ...
واذا أنت بقيت للجمال فهل الجمال سيبقى لك وإذا كانت
لك مُدة في الحب فهل هو خالد عليك ؟ ألا ترين أنك
تزرعين في أيام الحب بذورَ أيام الحسرة وأنت متى كبرت
عن سنِّ المرأة ... ^(١) فستنتهين لا محالة إلى أمد من
العمر يخيم عليك في مظلمة كالقبر لا نهار فيه ولا ليل .

(١) سن المرأة كناية عن زمن الجمال اذ هو العهد الذي تتخذ له المرأة حق
لا غنى لجميلة عنها

وهل أنت من المجتمع الانساني الا مقام الصبي من أهله
إذ لا مذهب لك من دونه ولا غناء في نفسك الا به ؛
أفترين للصبي أن يتفلسف من نظام أهله ويتحلل من آدابهم
ثم لا تكون وسيلة الى ذلك إلا أن ينقلب لصاً بيته
بيوت الناس جميعاً فليس له في الاجتماع مال ولكن له
المسقة وليس له فيه أهل ولكن له الحيلة
بدلك ولا جرم كنت في لغة هذا الاجتماع معنى من
معاني السخرية والمقت

قلت فأنا في الاجتماع تعاسة وبهيمية ورذيلة وفقير
وضلالة وسخرية . ولكن ألت ترى هذه الصفات
بعينها في كل الناس على بعض التفاوت في مقاديرها والتنوع
في أشكالها والاختلاف في أسبابها ؛ وهل الرجل الفاجر
الا كالمرأة الفاجرة ؟ قلت لقد فجع من الرجال من
لا تحصيلهم الملايين فهل علمت أن فاجرا منهم حمل تسعة
أشهر ووضع . . . ألا ترى أن الطبيعة جعلت لكل حكمة
وهيات لكل موضعاً ؛ وهل سوائ في طبيعة الألم وخطره

وعاقبته على الحياة أن يكون الدَّمَل على ظاهر الجلد حيث
يَتَلَدَّع على نفسه ويرى ويُحَدُّ وأن يكون في باطن الجوف
حيث يخشى منه على غيره أكثر مما يخاف على موضعه ؟
قالت فكان الرجل عندك أطهر فُجُورا من المرأة .
قلت بل هو هي في اللعنة والسقوط والنعل أخْت النعل . .
واثنتاهما على طِراقٍ واحد^(١) ولكنه إن يكن أعقل من
المرأة بفكره فهي أعقل منه بحواسها ؛ وإن يكن أقدر
في قوَّته فهي أقدر في عواطفها ؛ وإن يكن في البأية عود
الثَّقَاب^(٢) فهي بعد الحريق كاله . ولذا كن من
الطبيعي أن تُحاط المرأة في الاعتبار بالمعاني الاجتماعية
الكبرى إذ كانت هي الغرض الذي تَمَثَّلُهُ تلك القسي
الرامية^(٣) . فهي في معنى الكمال الأصل لأنها الأمومة ؛
وهي في العفة الأصل لأنها الزوجية ؛ وهي في الحياء الأصل
لأنها العِرض ؛ وكذلك هي الأصل في المعركة

(١) أى قطع واحد يقطع جلد احدهما على قدر الاخرى (٢) عود

الكبريت وهو قدحة من الحريق (٣) أى ترميه وتستهدفه وتسدد اليه

الجنسية لأنها المقاومة والمدافعة للرجل ؛ والأصل في
الفضيلة الانسانية لانها المنشأ والمرئى للطفل ؛ والأصل
في الشرف الاجتماعي لانها المثال الأدبي للجميع .
ومن ثمَّ كان سقوطها سقوطاً لهذه المعاني كلها فهو تهديم
الأساس لا الحائط وفساد الجذع لا الفرع وعلّة نفس
الاجتماع لعلّة جسمه

هيات هيات فلن تشعر المرأة الساقطة الا شعور
من فقدت نفسها التي كانت نفسها وبُذلت اخرى لاتلائمها ،
فهي أبدا هاتمة وراء نفسها الاولى تبحث عنها ولا تدّساها
لأن ذلك الأصل الطبيعي لا يزال يُناجيه في قلبها بلغة
الأمومة والزوجية والحياء والفضيلة ؛ وما نفسها الشريفة
الا جواب هذه اللغة وهي ليست فيها فكأنها تحمل على
حياتها أربع جرائم في جريمة ، هي أشقى النساء ترى في
ذات عقلها البرهان العقلي على انها امرأة ساقطة

« * »

فَتَعَرَّعَتْ عَيْنَاهَا بِنَدَى رَقِيقٍ مِنَ الدَّمْعِ وَقَالَتْ

لما كنتُ فتاة .. فقطعتُ عليها الكلام وقلت : في تلك
 الفتاة كل البراهين فسليلها ، انها هي نفسك الهاربة منك ؛
 فَوَجَمْتُ هُنيهةً لهذه الكلمة ثم انهملت عيناها انهما لا
 وجاءها الدمع الطاهر يجري من أقصى الطفولة ؛ فخالطني
 بئها وحزنها كأن دموعها تسقط على مواقع من نفسي ؛
 فقلت أنا ذنين في كلمة ؟ قالت بل أسألك أن تتكلم
 فان مدامعى هذه عرضت لي كالمطرة السانحة في حرم
 القيظ من صميم الصيف على أرض مُغبرة مقشعة ثور
 سُخْطاً على كل قدم تطأها ، وان فكري ليكلمني الساعة
 بلسانك كما يدوي الناقوس بصوته العالي الرنان بعد أن
 كان هذا الناقوس مختلفاً في بما يُطيف به من الضغط فيكان
 لا يدق الا دقاتٍ مُصنّعة لا رنين فيها كأنه ناقوس من
 الخشب

آه لقد كنتُ كالغدير الصافي لا يعرف مأوه الا
 وجه السماء وضوء القمرين وأخيلة النجوم وظلال الشجر
 والنبات فأصبحتُ كالماء الذي كثرت وأردته من البهائم

فهي تختبطه بأرجلها وتضيف الى وحوله وحوالها ولا تستعذبه الا أن تُغشي أعلاه بطبقة من أسفله ^(١) وكلما تراءت صورها في كدورة الماء حسبت ذلك عشقاً من الماء لصورها البهيمية ولا تعلم أنه يلغنها باظهار بهيميتها لا عينها لو أنها تعقل أو تعي

أيحسبون أن قلب المرأة حين يشتري بالمال يكون أظهر من خرقه قدرة تتناولها يد أقدر منها ، أو أئمن من فئات مائدة يترك لحيوان أعجم ؟ ألا إن قلب المرأة لا يباع أبداً وإنما هي حين تبيعهم تبيعهم مَعْدَهَا باسم القلب . . . إنك إن لم تأخذ القلب هبةً ممن تحبها فما أنت من حبها في (خذ) ولا تكن في هاتِ وأخواتها يحسب الناس أنه لا تفرط امرأة في الحب ما تفرط المرأة الساقطة وما علموا أنها لا تجد الرجل فتجد الحب . إنما الرجال في عين هذه المرأة رجالٌ مصنوعون فهي معهم امرأة مصنوعة يملك كلُّ رجلٍ إغصابها لأن

(١) كذلك تفعل البهائم في الماء العاصي اذا وردته فتخبطه بأرجلها

صناعتها إرضاء كل رجل ؛ ولعل هذا من رحمة الله بها فان
أكبر شقائها أن تجمع الاقدار بينها وبين رجل تحبه وتستهم
به إذ تألم لذلك ألمًا خاصا فيه تهكم الرذيلة والفضيلة معًا .
إن هذا الرجل هو البطلُ الفدّ الذي يكون في قدرته أن
يرجع لها ذلك العالم الذي اطرّحها ونبذها فهو عندها يغمرُ
الناس أجمعين ^(١) ولكنها قلما وجدته الا التعرف به حقيقة
عارها ؛ وإذا قدّر للأعمى أن يبصر ساعة واحدة ثم يرتدَّ
الى ظلامه فما أبصر ولكن كضاء عف له العمى

المرأة الساقطة يائسة من البعولة ^(٢) وذلك عقابُ
حياتها ، ثم هي لا تندفع الا في الطريق التي تسكرها وذلك
عقاب نفسها ؛ فالله أرحم من أن يزيد لها بلاء الحب الذي
هو عقاب شرفها وفضيلتها ؛ فان ابتليت به فقليل ما يتفق
ذلك حتى إن الساقطة العاشقة عاشقا صحيحا وتبقى ساقطة
أندر وجوداً من البغي التائبة توبةً صحيحة وتبقى بغيًا

« * »

(١) يكون فوفهم ويفطيمهم في نظرها واعتبارها (٢) الزواج

يا عجباً للضمير المرأة يَضِلُّ في ليل دامس من ذُنُوبها ثم
تلمع له دَمْعَةٌ طاهرة في عينيها فتكون كنجمة القطب
يعرف بها كيف يتَّجِه وكيف يهتدي وكيف كان ضلاله .
وكان الله ماسط الدموع على النساء وجعلها طبيعيةً فيهن
الا لتكون هذه الدموعُ ذريعة من ذرائع الحياة الانسانية
تَحْفَظُ الرِّقَّةَ في مثل الرقَّة ، كما جعل البحار في الارض
وسيلة من وسائل الحياة عليها ^(١) تحفظ الروح والنشاط لها
ثم قلت كانت المرأة نصف الانسانية فصارت ربعها
قالت وكيف ؟ قلت ألا ترى انها انقسمت في هذه المدينة
الى قسمين متناقضين : الزوجة وال... قالت حسبك خذ
في غير هذا فقد أثبتت ذات نفسى وما ينفعك ولا ينفعني
أن تنقُضَ السُّورَ الذي أُنشِئته حول حقيقتي فان كل قوى
الكون عاجزة عن ارجاع ورقة واحدة انتشرت من زهرتها
ثم وثبت الى البَيَّانة ^(٢) فصعدت عليها بلحن من

(١) لولا الماء المالح في هذه البحار على الارض لتعفن حوماً (٢) هي
(البانو) وقد استعمل بعضهم في ترجمة هذه الكلمة المرهر (بكسر الميم)
وانما هو الود واستعمل بعضهم (المضراب) وانما هو ما يضرب به كضراب

أَلحَانَهَا كَانَ صَرْخَةً مِنْ ضَمِيرِهَا صَاعِدَةً إِلَى عَرْشِ اللَّهِ فِي
صَوْتِ الْإِنْسَانِيَةِ الْبَاكِ

ثُمَّ ابْتَسَمَتْ وَسَلَّمَتْ ، فَأَنْصَرَفْتُ وَكَأَنِّي مَا تَكَلَّمْتُ
وَلَا تَكَلَّمْتُ ، وَبَقِيَتْ الْأَقْدَارُ مَكَانَهَا فَمَا تَأَخَّرْتُ وَلَا
تَقَدَّمْتُ

« * »

لَيْسَ عَلَى الْهَآوِيَةِ أَرْضٌ تَغْطِيهَا فَهَلْ تَغْطِيهَا الْفَلَسَفَةُ ؟
وَقَدْ خَسَفَ بِهَا قَلْبُهَا فِي الْأَرْضِ (١) فَهَلْ تُسَوِّيْهَا
الْحُجُبُ وَالْمَآذِيرُ ؟ وَلَوْ كَانَتْ الْحَصْبَاءُ فِيهَا ابْنِ إِوْأُوَّةَ وَزَمْرَدَةً
وَيَاقُوتَةً فَهَلْ مِنْ يَدَقُّ عُنُقَهُ فِي الْهَآوِيَةِ لِيَمُوتَ عَلَى أَرْضٍ
مِنَ الْجَوْهَرِ ؟ الْهَآوِيَةُ فِي الطَّبِيعَةِ وَالسَّاقِطَةُ فِي الْإِنْسَانِيَةِ ،
كِلَاهُمَا أَرْضُ كَالْمَرْأَةِ وَامْرَأَةُ كَالْأَرْضِ

وَكَذَلِكَ يُخْلَنُ الطَّيِّبُ وَالْخَبِيثُ « لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ
مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْمَلَ الْخَبِيثَ بِعُضَاهِ عَلَى بَعْضِ »

العود وجعلها بعضهم البيان (بكسر الباء) وليس فيها تماثل . والبيان في
رَأَيْنَا أَخْفَاهَا وَأَصْحَاهَا وَأَفْصَحَاهَا (١) خَسَفَ الْمَكَانَ أَيِ ذَهَبَ فِي الْأَرْضِ

الفصل الخامس

﴿ المنافق ﴾

وهذا فلانُ المنافق لا يرى في الحب أكثرَ من باءٍ تُنَافِقُ
للجاء فهي تنزل عن تقديمها وتتأخر للمتأخر^(١) كما ينحطُّ
الرجل العاشق عن رُتبته ويقدم على نفسه المرأة .

وعنده أن هذا برهان طبيعي على أن الحب من غير نفاق
هو حبٌّ من غير حب . فالنفاق هو الأصل وحسبك به
أعرف هذا الرجل كالحائط المُبهم^(٢) من أين جئتَه
استغلقَ عليك ورأيتَه ردماً واحداً فلا مَنفَذَ لك فيه إلا
أن تكون قبلةً آدميةً في القوة والشر لا أنه رجل المادة
لا غيرها ، وهو كالمرأة الغادرة حبُّها الرجلَ كلمة على طَرَفٍ
لسانها ولسانها عملٌ في طريق منفعتها ، وهو كاللص حبُّه
المالَ حاسةً في يده ويده على ما يملك الناس

لونه في الحوادث ألوان ، ودينه في المنافع أديان ،

(١) تقع الباء في ترتيبها من أحرف الهجاء قبل الحاء (٢) الذي ليس فيه

ونفسه من الناس حَشَرَةً في إنسان ؛ وإذا عرفتَه نظرتَ
إليه كما ينظر المهومُ لما جرَّ عليه الهمُّ ، وإذا جهلته كان
كالدواء المغشوش ذهب منه صوابُ العلاج ووقع فيه
خطأُ السمِّ

والمنافق هو سياسيُ الحب والصدقة ؛ يضع المنفعةَ
بين عينيه ثم تموزع على جوارحه كلُّ أساليب الكلام
والحركة والعاطفة ، فلا يخرج لك من عُقدته إلا أن يَعْقِدَ
هو بأسلوب وتحمّل أنت بأسلوب آخر . وترى صداقته
تنتهي أكثر ما تنتهي إلى مثل المقاطعة الحربية بين فراعنةِ
السياسة وشياطينها ؛ يرى الداهية منهم داهيةً آخر
« بانذار نهائي » حاسمٍ يحمل الزلازل في كلماته وينصب
لحساب ميزان الهوان والهلاك ، ثم يقول له في آخره :
« وإني أغتني هذه الفرصة لأؤكد لكم احتراي الفائق » . . .
ولن تجد شراً من هذا الأسلوب يَنَدَحِلُه رجل إلا
الأسلوبَ عينه يَنَدَحِلُه امرأة

والله الذي لا إله إلا هو ما رأيت كالمنافق رجلاً إلا
ذلك الواقف يُدير وجهه بين مرآتي عن يمينه وشماله ومن
ورائه وبين يديه ، فله في كل واحدة وجهٌ ويتعدد الرجل
وهو شيء واحد

يخلق الله كل شيء ليكون شيئاً على الأصل البين الذي
خلق عليه ، والأمر اليَسْر الذي خلق له ، وهو صريح
واضح من جهتيه . فالأشياء في الطبيعة هي ما ظهرت
به مشيئة الله ، تضر لأنها ضارة وتنفع لأنها نافعة . ولكن
المنافق كأنما خفيت مشيئة الله فيه ، فهو من ناحية الانسانية
مخلوق للنفع فضر ، ومن الجهة الحيوانية خلق للضر فنفع ؛
وفي الرذيلة خلق تلويناً للرذيلة ، وعند نفسه خلق لانه
خلق . فأنت تعرفه من جهة على قدر ما تنكره من
الأخرى ولو كانت الجهتان متقابلتين . فهو دائماً في نفاقه
مختلف على السر والعلانية ، وعلى المذهب والغاية ، وعلى
المدخل والمخرج ، وعلى القول والعمل . ومختلف حتى في
كونه مختلفاً أو مستقيماً

ولو مددتَ عَيْنِيكَ فِي عَيْنِيهِ لَرَأَيْتَهُ يَتَخَاوَصُ^١ لَكَ
بِأَحَدَاهُمَا^(١) كَانِكَ أَيْبَضَ مِنْ شِعَاعِ الشَّمْسِ وَإِنْ كُنْتَ
قَدْ خَرَجْتَ مِنْ مَصْنَعِ التَّجْلِيدِ الْإِلَهِيِّ فِي جِلْدٍ أَسْوَدَ ؛
إِذَا تَأَنَّى أَحَدَى عَيْنِيهِ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ إِلَّا أَنْ تُنَافِقَ لِيُظْهِرَ
النِّفَاقَ عَلَيْهَا . وَهُوَ مِنَ الَّذِينَ يَمَكُرُونَ السَّيِّئَاتِ^(٢)
لِيَنْتَهَوْا مِنْهَا إِلَى حَسَنَاتِهِمْ ، وَيُقَارِبُونَ الذِّمَّ لِيُخْلَصُوا
مِنْهُ إِلَى الْحَمْدِ ، وَيَسْقُلُونَ لِيَرْتَفِعُوا كَمَا يَبْتَدِيءُ الْمَقْلَاعُ^٣ دَوْرَتَهُ
مِنَ الْأَسْفَلِ لِيَرْمِيَ بِحَجَرِهِ رَمِيَّةً عَالِيَةً ؛ وَمَهُمَا انْتَحَلُوا مِنْ
الْعَامَلِ وَاخْتَلَقُوا مِنَ الْمَعَاذِيرِ ، وَقَوْلُهُمْ إِنَّ ذَلِكَ سِيَاسَةٌ
وَمُخَالَفَةٌ^(٣) وَظَرْفٌ وَأَدَبٌ مِنَ الذُّوقِ ؛ فَهَمْ لَا يَأْتُونَ كُلَّ
ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ — عَيَامَ اللَّهِ — هُوَ النِّفَاقُ

وَيَالَيْتَ عِلْمَ الْأَخْلَاقِ كَعِلْمِ الْجُغْرَافِيَا ، إِذَنْ لَسَكَانَ لَهُ
مِنْ وَجْهِهِ الْمُنَافِقِينَ مَصَوِّرَاتٍ مَلَوْنَةٍ ٠٠٠ وَلَا ضَظَّرَ الْعُلَمَاءُ
أَنْ يَجْمَعُوا مِنْ بَعْضِ السَّادَةِ الْكِبَرَاءِ مَجَامِيعَ وَيَقِيمُوا لَهُمْ

(١) يُقَالُ هُوَ يَخَاوَصُ إِذَا غَضَّ مِنْ بَصَرِهِ شَيْئًا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ
يَحْدِقُ الْبُظْرَ أَوْ إِذَا نَظَرَ كَمَا يَنْظُرُ فِي عَيْنِ الشَّمْسِ
(٢) يَتَعَرَّوْنَ الْأَفْعَالَ السَّيِّئَةَ وَيَقْصِدُونَهَا (٣) مُجَازَاةُ كُلِّ إِنْسَانٍ عَلَى اخْلَاقِهِ

معارض . وتلك حقيقة لم يفتن لها علامة القروء
الفيلسوف (دارون)، ولو هو فطن لها فكيف له بمجموعة
أقبح ما فيها وجوه عظماء الناس ... ؟

إن المنافقين من العامة وأشباه العامة بجانب المنافقين
من الخاصة وأشباه الخاصة كالشرر يطاير عن الجمر،
إن هو لدع لم يحرق وإن لم يلزع انطفأ ؛ فإن خبثت
منه شرارة جهنمية وتلذعت ووقعت فيما تستوقده
وردته حريقاً، فما يحییء ذلك من كونها شرارة كبيرة بل
من كونها جرة صغيرة . فالشأن إذن في هذا الجمر
الذي يتماطى بمادته لأن له مادة استفادها من عناصر الأرض
واجتمع منها غذاء النار فيه كما يُفيد أولئك من المال
والجاه والعلم والأدب وما إليها . وإن شر النفاق ما
داخلته أسباب الفضيلة وشر المنافقين قوم لم يستطيعوا
أن يكونوا فضلاء بالحق فصاروا فضلاء بشيء جعلوه
يشبه الحق

ولعلّ هذا النفاق هو أصغرُ رذائل الصغار واكبر رذائل الكبار ، لأنّ الحاجة في أولئك شرعة ومنهاجاً وللضرورة أحكاماً وقانوناً . فالعالم حين ينافق لكبير من العظماء ويتخضع له ، إنما يوازن بين ما يعرفه في ذات نفسه من الصغار والضعة وبين ما يتوهم في صاحبه من الغلبة والقهر ، فهو يترقى إليه ليدنو منه أو يترقى إلى خديعته (١) ليناله أو يترقى إلى كبريائه ليأمنه ، ثم هو في كل ذلك نازل على حكم الحاجة والضرورة . ولو اعتبرت الرجلين على الحقيقة ووزنتهما في ميزان الأسباب لرأيت المنافق منهما من لم ينافق . . . لأن ما يخاض إليه إلا في الوحل لاسبيل إليه إلا من الوحل ، وذلك العظيم رجل بنى النفاق فجعل باب نفسه عند قدميه فإذا أردت مفتاح هذا الباب فاخفض رأسك ما من ذلك بدّ . غير ان نفاق الكبار للكبار شيء أكبر من النفاق في نفسه وإنما سُمي به تسامحاً وتجوّزاً أولاً لأن اللغة تنافق هي أيضاً . . . وإلا فنفاقهم إن كان

(١) يتسبب لما يخدعه من شيء إلى شيء

صدقاً فأكبر فضيلته الكذب، وإن كان حقيقةً فأعظم أدلتها الوهم، وإن كان علماً فأكبر شرفه الجهل، وهو التَّخَشُّعُ يَنْقَلِبُ ضَرْباً مِنَ الْعِبَادَةِ، وهو الوصف المزوَّرُ يَرْجِعُ نَوْعاً مِنَ الْخَلْقِ الَّذِي لَمْ يَخْلُقْهُ اللَّهُ. ثُمَّ هُمْ طَبَقَاتٌ وَلِكُلِّ نِفَاقُهَا، وَلَا تَدْرِي أَعْلَاهَا أَسْفَلُهَا أَمْ أَسْفَلُهَا الْأَعْلَى وَلَكِنَّ الشَّرَّ دَائِماً بِالْجَمْلَةِ وَهُمْ فِي الْجَمْلَةِ يَتَخَلَّقُونَ وَيَتَصَنَّعُونَ بِمَا نَعْرِفُ وَمَا لَا نَعْرِفُ. وَالْكِبَرَاءُ هُمْ مَوْضِعُ الْفَصْلِ وَالْوَصْلِ فِي بَلَاغَةِ الْجَمَاعِ. وَكُلُّ رَأْسٍ مِنْهُمْ فَهُوَ كِرَاسُ الشَّارِعِ لَا بَدَلَكَ أَنْ تَلْتَوِي أَوْ تَنْحَرِفَ إِذَا أَنْتَ بَلَغْتَهُ فَإِنَّمَا أُرْسَلَكُ فِي طَرِيقِ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَإِذَا كَانَ هَذَا فَانْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ كِبَارِ الْمَنَافِقِينَ وَمَنَافِقِ الْكِبَارِ هُوَ عَلَى التَّحْقِيقِ نَقْطَةُ انْقِلَابٍ فِي أَخْلَاقٍ مِنْ حَوْلِهِ مِنَ النَّاسِ

« * »

إن مادة حوادث التاريخ هم أولئك العظماء فانك لتجد الرجل العظيم في أخلاقه العالية وسجاياه السكرية وفي تأثير هذه الاخلاق والسجاياء على الناس أشبهه بالفتح

التاريخي المبين وبالنصر القويّ العزيز ، ويكون الرجل انساناً ولكنه تاريخ ، وتجد الى جانبه المنافق العظيم . . . في أخلاقه السيئة وطباعه اللئيمة وفي تأثير هذه الاخلاق والطباع على الناس أشبه بتاريخ ضربة من ضربات الله ^(١) أو مجزرة من مجازر الحروب ، ويكون إنساناً ولكنه على ذلك تاريخ

ولا أعلم في هذه الدنيا شيئاً لا يستطيع أن يوجد شيئاً آخر إذ الموجودات كلها مبنية على التحليل والتركيب ؛ وهذا النفاق في أصله مبني على الكذب السافل فاذا خرج منه شيء خرج منه الكذب العالي . . . فترى السياسي يبالغ في النفاق ويزعم أنه يتكلم بلسان المستقبل ؛ وينافق الأديب فيقال زُخرفٌ من القول ومبالغة في البلاغة ، ونفاق ذي الساطة تواضعٌ ، والنفاق من العالم مَسلك من دقائق علم النفس ، ومن الغنى مالٌ يجذب مالاً ، ومن السفه اللئيم شرٌّ يطلب خيراً ؛ فان هو كان من امرأةٍ قيل

(١) ضربات الله الاحداث الكبرى في الداس كالطوفان واللاوثة وغيرها

حبٌّ أو من طفل قيل تحبب. وكما تُردُّ المِرْكَبَات كلها إلى أجزائها المفردة فإن نفاق أهل الأرض جميعاً يرجع إلى الطفل الصغير كما يَنْبَتُ النهر العظيم على مدّ تجراه من المنبع ، وينتهي إلى مصبّه وقد جمع من أقدار طريقه على طول ما يمتد . فنفاق الطفل يكون في أصله مكافأةً عن محبة أهله وذويه ثم يكبر فيصبح تودّداً إليهم ثم يعظم فينقلب حيلةً يَحْتَالُهَا العقل الصغير ليخضع بها العقل الكبير لِهَيْئَاتِهِ وَهَيْئَاتِهِ ، ثم لا تزال تُدَاخِلُهُ بعد ذلك الأهواء والشهوات حتى يَنْعَصِرَ نفاقاً فاذا هو ما هو

يَبْدَأُ أن ما يكون من نفس الطفل يكون مَعْفُوءاً عنه في الأغلب كأنه ليس من نفس أوكان هؤلاء الأطفال حين يتواثبون ويقفزون في اللعب واللهو ، يقفزون كذلك من حدود الشرائع . . . فللرجل من كل قاعدة حدٌّ محدود ليس وراءه اذا هو نخطاه وتعمد مجاوزته الا حائط من السجن أو حائط من اللعنة أو حائط من جهنم ؛ ولكن الطفل يتخطى ذلك الحد وثباً ويكون قد وثب على السجن وجهنم بطبقاتها

السبع ولا يقع في واحدة منها. فهما نافق الصغير فهو ذكي خبيث ولكن نفاقه ينتهي بقبلة على خديعة أو لطمة ...

لا الصغار في منازل العمر من الأطفال ولا الصغار في مراتب العمران من العامة يصلحون أن يقوم بهم النفاق لأنهم جميعاً ينسحبون على أصل واحد في الطبيعة وهو صغر النفس وانصرافها الى معاني الجسم دون معاني العقل، فلوانك رأيت طفلاً ينافق لطفل مثله أو شهدت عامياً من الناس يصانع رجلاً من قياسه المنطفي ... لرأيت في ذينك نوعاً من الضحك الساكت وفي هذين ضرباً من الوقار الذي يضحك منه . ان عظمة النفاق هي نفسها في عظمة أهله الكبراء، وكل شيء قد يصلح موضعاً للبحث والنظر والجدال الا ما يعتقد الرجل العظيم أنه عظيم به . وهنا موضع التأله الذي شرع من أجله سجون النفاق وركوعه وتهليله وتسبيحه ؛ فصغار العظماء كأنهم في حاجة الى النفاق لان فيهم شيئاً عاليا لا يظهر حد علوه إلا إذا قيس من نقطة سافلة . فاذا أنت عرضت لهم على

شرطهم فنافقت واستخذيت ونزلت عن كرامتك ، وأولك
مع ذلك منافقا عند نفسك فقط ؛ واحتجت بعد كل هذا
الى ضرب أخرى من العنت الشاق على النفس حتى يعرفوا
بعد أن يجهدك النفاق أنك منافق ؛ فلا تبلغ اليهم رذيلتك
الا وقد صرت في جملتك مجموعة من الرذائل

« * »

وإني لأحسب أن النفاق هو بقية ما وقر في النفوس
الجاهلة من عهد الأول عهد التعميد لكل ما يضر أو يتوهم
فيه الضرر ، والتقديس لكل ما ينفع أو يُظن فيه النفع ؛
وتسكون أرواح الأصنام والأوثان والعجول والبقر
والحشرات والعواصف والصواعق وغيرها مما كان يُخص
بالعبادة قديماً ، هي بأعيانها ما تتمثل فيه أرواح أولئك
السادة الكبراء الذين يثقل ظاههم على الروح ثقل الضباب ،
ويتراكم على القلب تراكم السحاب ، ولا يرضون باباً من
النفاق الا أن يُفَضِّيَ الى باب . ثم تكون أفعال المنافقين
في دِهانهم ومصانعتهم وما تروّح به أرواحهم ، هي في ذاتها

بقايا تلك الرّعدة والفرع والضّراعة وتمريغ الوجوه والتمسّح
وما إليها مما صغّرت به أحلام لتكبر أو هام ، وكان عبادة
أجسام لأرواح فصار عبادة أرواح لأجسام
والعظيم الذي تنافق له ولا يُنكر عليك ولا يَرُدُّكَ
ثم لا يرضاك ولا ترضيه الا على هذا النحو ، هو في رأي
رجل خُرافي من المعبودات الأولى يحتاج الى نبيٍّ يحوّه .
فان لم يكن نبيٌّ فرجلٌ حكيم يكشف للناس عن وجه
الخرافة فيه ، فان لم يكن فذو عزيمة يصولُ به أو يستطيل
عليه ، فان لم يكن فذو دين وتقوى يريه وجه السماء من
دينه وزُهدده ، فان لم يكن فذو علم يقنعه أنه كان تَرا بًا
وسـيكون عظاما ورُفَاتا . فان خلا قومه من كل
أولئك فقد زين لهم (الشيطان) اعمالهم وقد دفع الله عنهم
يده فلا يبالى في أيّ وجه هلكوا

« * »

أما إنه لا ينافق إلا الخبيث الذي يحاول أن يقتحم النفوسَ
وهي غافلة عن أبوابها ومنافذها ، فنفاقه من التلصص ؛ وإلا

الضعيف الذي يريد أن يقوى بضعفه فهو يحتمل على أن يأخذ
القوي من أضعف مكان فيه ، ونفاقه من المكر والخداع .
وإلا الغاصب الذي يطمع أن يكون الشيء له وليس له
ونفاقه من الظلم ؛ وإلا القوي متى أراد أن يسوق بقوته
مَسَاقَ الضعف لينال بها من غير أن يؤذي ، فنفاقه من
الكبرياء ؛ والخامسة أن روعة الحب في عاشق تنافق
لروعة الحسن في معشوق ...

وكذلك لا يرضى عن النفاق ولا يقدره إلا جاهل
اكتفى من العلم قبل أن يعلم ما هو العلم ، أو مُسْتَكْبِرٌ تَعَمَّيْتُ
نفسه عما حولها وعما فوقها ؛ أو غبيٌّ يعرف عقله في وهمه
ووهمه في عقله ولا يعرف عقول الناس ؛ أو ذو سلطان
دنت محنته وأظلمت ملكه النعمة فهي تسلك إليه سبلا
مختلفة منها فسادُ الناس ومنها النفاق . والخامسة
أن يمتلئ نظر الجميلة رضا وسجراً حين يمتلئ فم الحب نفاقاً
في هواها ...

وأنت فكيف اعتبرت النفاق رأيتك كذباً وخداعاً

ثم مكرراً ومُصانعةً في الحق ، فان هو فشا في طائفة من
الناس ألفتهم في الجملة كأنما تعاهدوا بينهم على أن لا يصدقوا
ولا ينصحوا ولا يأنفوا ولا يُتقاربوا الحق . فاذا كثر هذا
السوادُ في شعب رأيتُه لا يحسنُ من الحياة الا الاسبابَ
التي يقتل بها نفسه إن كان قويا ، ولا يهتدي لغير طرق
الفقر إن كان غنياً ، ولا ينفع الا أعداءه إن كان شعباً ذكياً ،
ولا يعمل الا على الشُّخرة لغيره إن كان عاملاً فتياً

« * »

وكل منافق وصاحبه الذي ينافق له رجلان لا يفهم
أحدهما الآخر ، أو تكون بلادة الحسّ قد بلغت من
أحدهما أن يتظاهر بأنه لا يفهم وبلغت الغلظة من صاحبه
أن يظهر كأنه غير مفهوم . وكلاهما غطاءٌ مُكفأٌ على
حقيقته ولكن الحقائق المغطاة بأغطية الكذب
موضوعةٌ أبداً على نار تنقد من عزائم المصلحين ونفوس
الحكماء وقلوب الأحرار فلا تزال تغلي كلما طال بها العهد
حتى تنفجر من أغطيها فاذا الزُّورُ قد طاح به ما انكفأ

عليه وكان ذلك من سنّة الله في إصلاح الناس ؛ وكان من سنّة
الله كذلك أن تجد الناس ينافقون جميعاً الا مُصْلِحاً أو حكيماً
أو رجلاً حرّاً النفس



الفصل السادس

﴿الصغيرات﴾

والآن أرى السحاب رقيقةً مُهلهلاً كأنه في سَرَقَةٍ
من حرير أحمر ^(١) يشرق إشراق الروح في الطفل الصغير
الذي كَفَلَتْهُ رَحْمَةُ اللَّهِ فتركتَه إذا ضحك استَوَضَحَتْ له
من الضحك معاني لا نهاية لها ولا يعرفها الناس فما ينفك
من شيء يُضَحِكُه أو يَسْرُه ، وإذا بكى لم يجد للبكاء إلا
معنى واحداً من تلك المعاني الكثيرة التي يعرفها الناس
فهم لا ينفكون من البكاء أو معانيه في هموم الحياة

تقوم الطفولة في روحها وعهدِها وحوادثها على
عقيدة واحدة هي أن كل ما كان فسيكون غبره ، وهي
تعرف ذلك يقيناً جزماً لا شك فيه وحكماً فصلاً لا معَدِلَ
عنه . فالصغار على أيِّ أحوالهم هم كبار الناس في هذا المعنى
إنك لتعرف الرجل لا بأس بعقله ثم تراه فيما ينزل

(١) سُرَّة الحرير هي النطعة من النوع الجيد منه فتكون رقيقة مشرقة

به من الحوادث فاذا هو من النفرة والهم والقلق صورة^١
كاملة من اضطراب فكره في حكمة ما ابتلي به ؛ فاذا انظرت
الى الطفل في مثل ذلك رأيته صورة أخرى من نفس
حزينة راضية مستسامة قد أقرت فيها رحمة الله بحكمة
الله فالحزن فيها سبب^٢ الهم ولكنه كذلك سبب^٣ الأمل

« * »

جلست ليلةً مع صُحبة من الأدباء في نَدِيٍّ^(١) على
عُنُقِ شارع كذا بالقاهرة ؛ وكنا في الوقت الذي يُقبِلُ
فيه الليل على أعماقه قبل أن ينتصف بمنزلة واحدة^(٢) تلك
الساعة التي هي أول عهد الليل بالتنفس تحت الأجنحة
السماوية^(٣) تنزل إِتْخَمَ على أعمال الأرض في يومها الغابر
ثم تأخذ في تهية الجمال السماوي البديع الذي سيُخلَق منه
الفجر

وكان الى جانبي أديب سيِّئ نسميه « دِمِيَاطَ
الحانة » لأن فرعاً من نهر الخمر ينصب فيه كما

ينصب فرع النيل عند (دمياط) . وقد عودته الكأس أن
يتخذ الليلَ نهاراً والنهار ليلاً فما ينصرفُ الى بيته الا في
فروع الصبح ^(١) ولا ينام إلا والعالم كله متيقظ . ويزعم
أنه لا يهتدى الى عقله إلا اذا أضاعه ساعةً أو ساعتين ^(٢) ؛
ولا يُحسن تصفية الكلام وترويق المعاني الا اذا نضح
جوفه بماء الشعير ^(٣) . وكان في تلك الساعة قد حطَّ عليه
الساقى حتى انتهى في سماواته الوهمية الى الأفق الزجاجي
فعاد كلامه رنيناً وطنطنةً لا يفهمه إلا صاحب الحانة
وحده ... فلما دهته الداهية من كرب الحمر تخطى حده
إنسانيته الى البهيمية السائلة ؛ وما كاد يرتفع الستار الانساني
عن مسرح أخلاقه حتى رأيتني في رواية عجيبة يمثلها أربعة
اجتمعت ارواحها في شخص واحد : سفيه ومعتوه وأحمق
وأديب

وجعلتُ أتأمل على يقين الخبرة وأشهد على حق
النظر عجيبة هذا العقل الانساني الذي يسبح في الأفلاك

(١) أوائله وأخاليه (٢) كناية عن السكر (٣) كناية عن الحمر

ويتطوح من شاطئ المجهول الى شاطئ المعلوم بوثبة
أسرع من ضربة الجناح ثم هو مع ذلك يغرق في زجاجة
خمر، وصرّت أرى كيف يتحول النبوغ العقلي في بعض
ساعاته الى صناعة خسيسة هي صناعة الأديب نفسه
الشريفة بهيمة من البهائم، وعلمت علم هؤلاء الادباء الذين
يحسبون الخمر توحى اليهم وما في ملء الدن منها ما يعدل
فائدة نقطة واحدة من قوة الارادة

لقد رأيت وعلمت وشهدت بعيني رأسي كيف
يَبْوء هؤلاء بالماثم والمغرم جميعاً^(١) وتالله إنه لا يسر
على الباحث أن يجد السراب الذي يغترف منه الظمان
بكفيه ماءً زلالاً من أن يعثر على الكأس التي يقتبس
منها السكّر فضيلة أو فائدة

ولو رجع الأمر اليّ لما جعلت عقوبة الخمر الا تحطيم
الزجاجات على رؤس شاربيها، وهب أن رأس الأديب

(١) الماثم الأثم والدب والمغرم ما يقرم عليه من المال، قاتلهم الله
يشترون بأموالهم « تذكر الدخول الى جهنم »

السكير هو رأس أرسطو عاملاً وذكاءً ؛ فذلك أدعى لتعطيمه
لأنه ان يكون في عربدته وسكره وانحطاطه وسقوط
همته إلا رذيلةً يدافع العلم والذكاء عن وجودها فينصبها
الشيطانُ مثلاً للتقليد ويتخذها الأغرار والضعفاء قاعدةً
للباطل المتبع يعملون على احتذائها ويتحولون عن فضيلتهم
بحُجَّتِها فيصبح هذا الرأس الواحد كالطبعة متى حُبِّرها
الطابع نقلت ما فيها « بحروفه » إلى كل الصحف البيضاء
التي تلامسها

« * »

وفي تلك الساعة كانت الأرض قد عرِيت إلا من
أواخر الناس وطوارق الليل وبقية من يقطعة النهار تحبو
في الطرق ذاهبةً إلى مَضَاجِعِها . فبينما أمدُّ عيني وأديرها
في مُفْتَتَحِ الطريق ومُنْقَطَعِهِ إذ انتفضت انتفاضة الذعر
ووثبت رَجَّةُ القلب بجسمي كله كما تثب السمعة بملسوعها ؛
ذلك حين أبصرتُ الطفلين

صغيران ضلَّاً من أهلهما في هذا الليل يمشيان على

حَيْدِ الطَّرِيقِ ^(١) فِي ذَلَّةٍ وَانْكَسَارٍ ، وَتَحْسَبُ أَقْدَامَهُمَا
 مِنَ الْبَطْءِ وَالتَّخَاذُلِ لَا تَمْشِي بَلْ تَتَزَحَّزَحُ قَلِيلًا قَلِيلًا فَكَأَنَّهُمَا
 وَاقِفَانِ أَكْبَرُهُمَا طِفْلَةٌ تَعْدُ عُمْرَهَا عَلَى خَمْسِ أَصَابِعِهَا
 وَالْآخَرُ طِفْلٌ يَبْلُغُ ثَلَاثَ سِنَوَاتٍ ؛ يَنْحَدِرَانِ فِي أُمُوجِ
 اللَّيْلِ وَقَدْ نَزَلَ بِهِمَا مِنَ الْهَمِّ فِي الْبَحْثِ عَنْ بَيْتِهِمَا مَا يَنْزِلُ
 مِثْلُهُ بَيْنَ تَطَوُّحٍ بِهِ الْأَقْدَارُ إِذَا رَكِبَ الْبَحْرَ الْمَظْلَمَ لِيَكْشِفَ
 عَنْ أَرْضٍ جَدِيدَةٍ

تَتَبَّعْنَ الْخَوْفَ فِي عَيُونِهِمَا الصَّغِيرَةِ وَتَرَاهُ يَفِيضُ مِنْهَا
 عَلَى مَا حَوْلَهُمَا حَتَّى لِيَحْسَبَ كِلَاهُمَا أَنَّ الْمَنَازِلَ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ
 أَطْفَالٌ مُدْعَوْرَةٌ وَيَتَلَفَّتَانِ كَمَا تَتَلَفَّتُ الشَّاةُ الضَّالَّةُ مِنَ
 قَطِيعِهَا لَا يَتَحَرَّكُ فِي دَمِهَا بِالْغَرِيزَةِ إِلَّا خَوْفُ الذَّنَبِ

وَيَنْسَحِبَانِ مَعًا وَرَاءَ الْأَشْعَةِ الْمُنْبِثَةِ فِي الطَّرِيقِ كَأَنَّ أَضْوَاءَ

(١) هُوَ التَّلْتَوَارَانِي جَانِبُ الطَّرِيقِ . عَنْ ابْنِ سَيِّدِهِ : « حَيْدُ الْجَبَلِ شَاخِصٌ
 يَخْرُجُ مِنْهُ وَجِبِلٌ ذُو حَيُودٍ وَأَحْيَادٍ إِذَا كَانَتْ لَهُ حُرُوفٌ نَاتِئَةٌ فِي أَعْرَاضِهِ » .
 فَلَمَّا وَهَذِهِ صِفَةُ التَّلْتَوَارِ أَنَّ غُلْظَ فِي جَانِبِ الطَّرِيقِ لَا فِي جَانِبِ الْجَبَلِ . وَبَعْضُهُمْ
 يَتَرَجَّمُ التَّلْتَوَارَ بِالْأَفْرِيزِ وَهِيَ كَلِمَةٌ مُشْتَرَكَةٌ أَكْثَرُ مَا تَسْتَعْمَلُ فِي النُّقُوشِ الْبَارِزَةِ .
 وَبَعْضُهُمْ يَسْتَعْمَلُ (الطَّوَارِ) بِفَتْحِ الطَّاءِ وَلَكِنَّهُ لِدَارٍ مَا يَمْتَدُّ مِنْهَا مِنْ فَنَائِهَا .
 وَبَعْضُهُمْ يَسْتَعْمَلُ الْبَرْزُوقَ وَهِيَ ثَقِيلَةٌ نَافِرَةٌ . وَلَا أَفْصَحُ وَأَخْفُ مِنَ الْحَيْدِ .
 تَدُولُ حَيْدُ الطَّرِيقِ ، وَلِلشَّارِعِ حَيْدَانِ ، وَحَيُودُ الطَّرِيقِ وَأَحْيَادُهَا وَهَلُمَّ جَرَا

المصايبح هي طريق قلبيهما الصغيرين .

منقطمان في ظلام الليل وليس على الأرض أهنا من
ليل الطفل النائم فهل يكون فيها أشقى من ليل الطفل
الضائع ؟ نامت أحلامهما واستيقظت أعينهما للحقائق
المظلمة الفظيعة ، وضاعا من البيت وبحسبان أن البيت هو
الضائع منهما . طفلان في وزن مثقالين من الإِِسانية
ولكنهما يحملان وزن قناطر من الرعب

يا من لا إله الا هو . من سواك لهاتين التمتين في
جُنجح هذا الليل الذي يشبه نقطة من غضبك . لقد
أخرجتهما في هذا الضياع مخرج أصغر موعظة للعين تنبّه
أكبر حقيقة في القلب ، وعرضتَ منهما الإنسانية صورة لو
وفق مخلوق عبقرى فرسمها لجذب اليها كل أحزان النفس
صورة الحب يمشي مُتسانداً الى صدر الرحمة في طريق
المصادفة المجهول من أوله الى آخره ، وعليهما ذلُّ اليتيم من
الأهل ، ومَسْـكَنَةُ الضياع بين الناس ، وظلام الطبيعة
وكابَّتْهَا

رَأَيْتِ الطِّفْلَةَ وَقَدْ تَذَبَّهَتْ فِيهَا لِأَخِيهَا الصَّغِيرِ عَرِيْزَةً
 أُمٌّ كَامِلَةٌ ، فَهِيَ تَشَدُّ عَلَى يَدِهِ بِيَدَيْهَا مَعًا كَأَنَّهَا مَذْنُ عَلِمَتْ
 أَنَّهَا ضَائِعَةٌ تَحَاوِلُ أَنْ يَطْمَئِنَّ أَخْوَاهَا إِلَى أَنَّهُ مَعَهَا وَلَنْ يَضِيعَ
 وَإِنَّهُ مَعَهَا ^(١) . فَيَا رَحْمَةَ اللَّهِ . وَقَدْ أَسْنَدَتْ مَنْكِبَهُ إِلَى
 صَدْرِهَا وَهِيَ تَمُشِي فَلَا أَدْرِي إِنْ كَانَ ذَلِكَ لِتَحْمِلِ عَنْهُ بَعْضَ
 ثِقَلِهِ فَلَا يَتَسَاوَطُ ، أَوْ لِيَكُونَ بِهَا أَكْبَرَ مِنْ جِسْمِهِ الضَّئِيلِ
 فَلَا يَخَافُ . أَوْلَا نَهَا حِينَ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُفْهِمَهُ مَا فِي قَلْبِهَا بِلَاغَةَ
 اللِّسَانِ أَفَاضَتْهُ عَلَى جِسْمِهِ بِلَاغَةَ اللمس ، أَوْ لَا هَذَا وَلَا ذَاكَ
 إِنَّمَا هِيَ تَسْتَمِدُّ مِنْ رُجُولَتِهِ الصَّغِيرَةِ حِمَايَةً لَا نُوثِقُهَا بِوَحْيِ
 الطَّبِيعَةِ الَّتِي رَسَخَتْ فِيهَا

أَمَّا الطِّفْلُ فَمُسْتَذِلٌّ خَاشِعٌ لَوْ تَوَجَّهَتْ نَظَرَاتُهُ لَكَانَتْ
 هَذِهِ عِبَارَتِهَا : اللَّهُمَّ إِنْ هَذَا الْعَمْرُ يَوْمٌ بَعْدَ يَوْمٍ فَأَنْقِذْنَا
 مِنْ بَلَاءِ يَوْمِنَا . وَلَمَّا وَقَفَا بِإِزَائِنَا كَانَ هَذَا الصَّغِيرُ يَقْلَبُ فِي
 وَجْهِهِ النَّاسَ نَظَرَاتٍ يَتِيمَةً تَوَدُّ عَلَى قَلْبِهِ آلامًا لَا رَحْمَةَ
 فِيهَا إِذْ يَشْهَدُ وَجْهَهَا كَثِيرَةٌ لَيْسَ لَهَا ذَلِكَ الشَّكْلُ

(١) حَالَةٌ أَنَّهُ مَعَهَا وَهُوَ تَرْكِيبٌ مِنْ أَبْدَعِ الْكَلَامِ

الانسانى المحبوب الذى لا يعرفه الطفل من كل خلق الله
إلا في اثنين : أمّه وأبيه

وما أسرع ما تناهض الناس وأطافوا بهما، وما أسرع
ما لاذ المسكين بأخته واستمسك بها كأن وسائل الرحمة
تخيف كما تخيف أسلحة « الجراح ^(١) » أو كأن الأصل
في هذا الانسان هو العذوان على أخيه وظلمه واجتياحه
فكل حركة إنسانية مشكوك فيها حتى يقع أثرها لأن
الانسان نفسه رستار منسدل على نيته ، وهذه النية آلة
للأطماع فلا تزال في يد الكذب دائما لا يدعها للصدق
إلا فيما لا « ينفع »

وكان الطفل المسكين في جملة النظر اليه خلقا من الحب
المؤلم الذى يلهب الدم . يرسل من عينيه الدّعجاءوين
سحر المذلة الفاتنة . تلك المذلة التى أعرفها أقوى ما في
الحب إذا تذلت الحبيبة في نظرة ضارعة توسلها لحبها

(١) الجراح كلمة محدثة وصوابها الجراحي في اللغة القديمة ولكن الاولى
أفصح ولا بأس بها لغة

المفتون فلا تُبقي في رأسه رأيا ولا في قلبه نية ، وتذلُّ له
ليذلَّ هو لا غير كأن أحبَّ العزَّ في أحبِّ الذلِّ

ونظر إليَّ أنا أولَ رَمَقَةٍ فذكرت أطفالي فنزَلْ
قاي وأحسست أن دمي استحال الى بارود وقع فيه الشرر
وهؤلاء الاطفال الصغار هم إنسانية على حدة ، فكل
أب هو أب هذه الإنسانية كلها ؛ ولن يُطبق من كان له
طفل أن يرى صغيراً ضائعاً في الطريق يستهدى الناس الى
أهله ويبكى عليهم ، أو طفلاً جائعاً يعرض على الناس وجهه
المنكسر ويستمع طفهم بصوته المريض أن يُطعموه ؛ أو
طفلاً يتألم قد تكلم أهله وضاق بقسوة أوليائه فانطرح
في ناحية يبكى ويتفجع ويسأل من يعرفون الموت : أين
أبي ، أين أمي

هؤلاء جميعاً ليس بينهم وبين قلوب الآباء والأمهات
حجاب اذ ليس فيهم من الناس الا اضطرارهم الى الناس ؛
فهم الإنسانية الرضيعة التي خُلق من أجلها القلبُ الانساني
في شكل ندي



واطمأن ذلك الطفل الى صدر أخته ومال برأسه عليها ثم أطلق عينيه فينا جميعاً فما حسبتُه أراد ألا أنْ يُخَبِّأَ في قلبها أفكاره الصغيرة ثم ينظر الى هؤلاء الناس نظراتٍ مجردةً بلباء كما ينظرون هم اليه ؛ اذ لم يرفيهم من فتح له ذراعيه ولا من حمله ولا من كَحْنَى عليه ولا من ضحك له ولا من أعطاه شيئاً يا كله

ألا إنما الناس صَوْرُ الفكر أو صورُ القلب ؛ فمن لم يرفيه صورةً من أفكارنا التي نلتمسها أو من أهوائنا التي نحجبها فذلك ليس منا ولسنا منه وإن سُمي أخاً في لغة النفاق وإن دُعي حبيباً في لغة المجاملة ؛ بل هو مخلوق ليكون النموذج الذي نتعلم عليه البغض إن كان متصلاً بنا ، أو التسامح إن كان بعيداً عنا ولم تتصل بنا ولا أخباره ...

وكم بين الناس من اسمٍ تعرفه على صاحبه كهذا النور الأحمر الذي يضعونه في الطرق فيضيئون به من الليل فوق الحفر ... ليُنذِرَ الناسَ ما وراءه ويقول لهم بصوت

النور : ههنا ما ينبغي أن تحذروه ، ههنا حفرة
 إنما الناس صور الفكر أو صور القلب ، فهم
 منقسمون حين يولدون أسباطاً أسباطاً باختلاف الدم في
 كل أسرة ، وهم متفرقون حين ينشأون أفواجاً أفواجاً
 باختلاف الصحبة في كل فئة ، وهم متباينون حين يتدفعون
 أحزاباً أحزاباً باختلاف الهوى في كل طائفة ، وهم
 متناكرون حين يتنازعون أمماً أمماً باختلاف المنفعة في كل
 أمة . فتلک أربعة وجوه تلبسها الانسانية فيهم ؛ ومن ثم
 قضى على هذه الانسانية المسكينة في الأرض أن تكون
 ثلاثة أرباعها عداوة كالأرض نفسها ثلاثة أرباعها ماء
 ملح لا يساغ ولا يشرب وإنما منفعتها للكون كله في
 الجملة . ولعل شيخاً من الشيوخ لو تدبر حياته وأحصى
 أقدارها وميز أنواع حوادثها وما أتى عليه فيها من أولها
 الى آخرها لراى ثلاثة أرباعها ملحاً أيضاً

إنما الناس صور الفكر أو صور القلب ، فليس يأتي
 نال الدين أن يرثوا من أولادهم ناساً بل أهواءً ومطامعاً

يناقض بعضها بعضا . مطامعُ تتبع أسبابها وأهواءُ ترجع إلى غرائزها فلو أن أهل هذه الأرض بلغوا بما لا نعلم من الوسائل أن ينظموا ظاهرَ دنياهم حتى يكون سواءً لا يخالف شيء منه على شيء ؛ لبقِيَ الانتقاضُ والاختلالُ في باطن الإنسان حتى لا كَانَ بعضُ الدم يُخلقُ غالباً على بعضِ الدم . وإنه لا شيء في هذه الحياة إلا وقد خُلق معه ضده فاذا استقامت الأمور فلمن تكون الأضداد لعمري ؟ إنما الناس صور الفكر أو صور القلب ، فدنيا كل إنسان في شيئين : ما يَنزِعُ إليه بفكره وما يميل إليه بقلبه ، والإنسان من كل إنسان أحد اثنين . من تُرجى به المنفعة ومن تكون فيه المحبة . والإنسانية من كل إنسان في منزلتين : أدنى الحب وتلك منزلة الصداقة ، وأعلى الصداقة وهى منزلة الحب . فأما ما وراء ذلك فصحراء الإنسانية الكبرى المقفرة من قلب الشخص وفكره . ولو لا الأديان خربت الدنيا فان هذه الأديان قد عمّرت هذه الصحراء بعنصرين جليلين أنبتا فيها الزلب والفكر وهما

خوفُ الله في خلقه ومحبةُ الله فيهم. فحيثُ وُجد هذا الخوفُ وهذه المحبةُ وُجدت الإنسانية ، وعلى ذلك فالإنسانية العامة الحقيقية هي الایمن ، والإنسان العامُ الصحيح هو المؤمن ، والسلام العامُ الكامل هو الله جلَّ جلاله

ولكن يا لشقاء الإنسان التَّعَس . إنَّ أعجب ما في الشر أن اختلاف الناس في فهم هذه الثلاثة هو أصل الشر

«*»

وسألوا الطفَّان أسئلةً سياسية . . ما وطنهما وما جنسُهما ؟ أي من أي شارع ومن أي والد الأضلَّ ضلائكم أيها الناس ، فلو أنَّهما يعرفان من أي شارع ومن أي والد لما كان منهما ما ترون . على أن الطفلة أَلْجَلَجَتْ في بعض كلمات تشبه اضطرابَ قلبها ، وكان الصوابُ كله ما تلا لعينيهما مجتمعاً في ذهنها ، فالبيت والشارع والأب والأم كل ذلك واضح في خيالها ؛ ولكن الذي استتبهم عليها هو تحديدُ نسبته إلى هذا الوجود الذي تراه كله يوتغوشوارع

ورجالاً ونساءً . وإنما تحديد الشيء هو تعبير الطبيعة عنه
وإنما تعيينُ نسبته من غيره هو تعبير الشيء نفسه عن
خصائصه ؛ فإذا أنت عرفتَ نسبتك من سواك وحصرت
هذه النسبةَ في حدودها وأسوارها فقد أمنتَ الخطأَ في
سعادة نفسك وأصبحت بتلك المعرفة أسعد إنسان .

ولكن مَنْ لك بهذه المعرفة وبهذا التحديد وقلوبُ الناس
كافةٌ كأمواج البحر في البحر ، تظهر كل واحدة قائمةً بنفسها
في رأي العين وهي راجعة في جميعها إلى أصل واحد هو
هذا السَّيَال المتحرك الذي يتضرب بعضُهُ في بعض ليوجد
الأمواج ويفنيها

ما أراني أعرف بعد طول الفكر سبباً للشقاء
الإنساني يجمع كلَّ ضُروبه إلا سبباً واحداً ؛ هو أننا مُعَدُّون
لكل الحالات المختلفة التي تطرأ على الحياة بقلب من نوع
واحد ؛ فإذا استطعنا أن نجعل ظواهرنا موضعَ الترتيب
فإن بواطننا بدأ موضع الاختلاط والألم والنكد

ولما رأيتُ حيرةَ الطفلينِ ضممتُهما إلىَّ وألهيتهما عن كآبةِ القلبِ بسرورِ البطنِ فدفتُ كلَّ آلامهما في بعضِ قطعِ من الحلواءِ ، فَطَعَمَا واستضحكا وتطَعَمَا الحياةَ جديدةً آمنةً والطفل لا يعرفُ مستقبلًا ولا ماضيًا وما هو إلا حاضرهُ ، فان عَيَّيتَ بأمره فأَوْجَدَهُ ما يلهمو به فهذه هي سعادةُ الطفولة . واقد سرهما من الأديبِ السكيرِ الذي كان الى جانبي أضعافُ ما سرهما من الحلواءِ بل هو كان زيادةً في حلاوتها فحسبناه يتعمدُ بسطهما وإيناسهما بحركاته وبكلامه الذي يطنُّ في السمواتِ الزجاجيةِ ؛ فكأننا يضحكان منه وكما تكلم أو أشار أو تحرك أو أنكر عليهما استخرج بذلك منهما مثلَ تغريدِ العصافيرِ ؛ فكانت كلُّ الفائدة من سقوطه وضياع عقله أنه أضحك طفلين

وقدَّرتُ في نفسي أنهما من هذا الشارعِ الذي نحن فيه أو من فصيلته في الطرق التي تخالطه أو تقاربه ، وقلت إن أهلهما على أثرهما فجعلتُ أَسْتَأْنِي وأنتظر . وبينما نحن على ذلك إذ ارتفع سواد مقبل كأنه روح ليلة مظامة تَغشَى

الطريق ، فتبينتُ فاذا امرأة تهفو كذات الجناحين وكأنها تنساق بقوة تحترق في داخلها ، ثم أخذتنا عينها فاذا هي أمُ الطفلين تبدو من لهفتها واستطارتها لولديها كأنما تحاول أن تحتطفهما من بعيد بقوة قلبها وما عرفت أنها هي إلا بأن روحها كانت منتشرة على وجهها ماموسةً في نظراتها الى الصغيرين ؛ وكانت لها حياةٌ هَيَاةٌ أم^(١) وُضعت الجنة تحت قدميها فترى في وجهها معاني ليست من هذا العالم وليست من الجنة نفسها إذ تزيد على كل مسرات الدنيا هَنَاءَةً الاطمئنان السعيد المفاجيء الذي لا يكون في الحياة إلا هُنيئَةً ثم ينقطع ، وتزيد على ما هناك هذه اللهفة اللذيذة التي لا توجد إلا هنا على الارض حينما تفجأ السعادة بعد شقاء لا يُحتمل . إن من لم ير أمّاً أشفى طفلها على الموت في حادثة أخذته بغتةً ثم نهض سليماً معافى ، أو ضلَّ عنها مدة حتى يَئِسَتْ منه ثم اهتدت إليه ، لا يكون قد رأى

(١) هذا من تراكيهم اللبيفة وهو تكرار يستعمل في إثارة النفس وتسيبها فيقع منها أي موقع . والكلمة الثانية تنصب اذا أُريد بها الحدوث

شيئاً من سعادة الانسانية العالية النادرة التي لا تكون إلا في
الأمهات خاصة ولا يشهدها الناس الا في ساعة حرجة
تلمس فيها يدُ الله قلبَ الام

« * »

وهلَّ الطفلان ^(١) لما أبصرا أمهما ونفضا أيديهما
نفضَ الأجنحة ثم أكبَّت هي عليهما بجسمها ومدامعها
وقُبَلاتهما ، والتَحَمَّ بها التحامَ الجزء بكُلِّه واشتبكت
الأذرعُ في الأذرع حتى لا تفرق بين ثلاثتهم في معاني
الحب الا بالكبر والصغر ؛ ورجعت معهما طفلةً كأن
تاريخها ابتداءً جديداً في ساعة من الساعات الفاصلة التي
يتحول عندها التاريخ

واذا كانت القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن
يُقَلِّبُها فلقد كانت هذه القلوب الثلاثة في تلك اللحظة تنطق
وجوهها بأنها في يد الله يهزُّها هزًّا . ولكم وددتُ لو
أستطيع أن أخلط بها قلوب المسكين في كمنسةٍ واحدة

ليشعر ولو لحظةً في هذه الحياة أنه سما بروحه فوق العالم كله
لو أصابك الهمُّ لحبيبك إذ تراه مهموماً متألماً لذقتَ
أحلى أنواع الآلام السعيدة ، فكيف بك لو تبدل همُّه
بغته فأقبلت عليك قبلاته وضحكاته ترحح عن قلبك
ناموس الكآبة ! الحبُّ ما الحبُّ إلا لهفةٌ تهدر هديرها في
الدم ، وما خلقت لهفة الحب أول ما خلقت إلا في قلب
الأم على طفلها ترأمةً وتحنو عليه ولن يحفظها للعالم إلا هذا
القلبُ نفسه . ولقد يكون عمرُ الطفل يومين ولكن
لهفة أمه عليه وحفظها إياه حفظ عينيها تجعل له من الحب
عمرًا متطاولاً يقاومُ به الأقدار العادية عليه في مسارحها ،
ولولا ذلك لحطمتَه هذه الأقدار كما تحطم كل طفل
أشبه ذوو عناية^(١) . فلهفة الأم على طفلها كأنها قوة
رسنين عكداً في جسم هذا الطفل . ومن ثم لم يكن الحب
الصحيح في أسمى مظاهره إلا حب المرأة لبني بطنها^(٢) .
وانما يسمى غرامُ العاشقين حباً لأن في العاشق دائماً

(١) أهله والآنمون بآله (٢) أولادها

مع حبيبته أكبرَ معاني الطفولة وفي العاشقة دائماً مع حبيبها
أصغر معاني الأمومة

وما كان هذا الغرام يُسمَّى حبًّا لولا ذلك ولولا أن في
اللغات لخصوصاً من الألفاظ تسرق معاني غيرها....

حب الأم في التسمية كالشجرة تُغرس من عود
ضعيف ثم لا تزال بها الفصول وأثادها ولا تزال تتمكن
بجذورها وتمتد بفروعها حتى تكتمل شجرة بعد أن تُفنى
عدادَ أوراقها لبالي وأياماً . وحب العاشقين كالثمرة
ما أسرع ما تنبت وما أسرع ما تنضج وما أسرع ما تُقطف؛
ولكنها تُنسَى الشفاء التي تذوقها ذلك التاريخ الطويل من
عمل الأرض والشمس والماء في الشجرة القائمة

للاذقة في الشجرة ولكنهما مع ذلك هي الباقية وهي
المنتجة . ولا بقاء للثمرة ولكنها على ذلك هي الحلوة وهي
اللاذقة وهي المنفردة باسمها

وهكذا الرجل أغواه الشيطان في السماء بثمره
فَنَسِيَ الله حيناً، ويُغويه الحب في الأرض بثمره أخرى

فيمسى معها الام أحيانا

« * »

وذهبت المرأة بالصغيرين بعد أن شهدتُ منها ومنهما
مواقعَ رحمة الله في القوى المسكينة التي لم تجئها المسكنة الا
من كونها أطهر القوى والطفها . وانفجر قلبي آلاماً
وسروراً ورحمة في ساعة واحدة ثم كاد ينفجر آخر الأمر
من الضحك .. حين أراد الطفلان أخذ الأديب الكبير
معهما لأنه مضحك



الفصل السابع

﴿ الشيخ علي ﴾

وَكأَنَّمَا أَنْظَرَ الْآنَ فِي قَلْبِ رَجُلٍ لَا فِي وَجْهِهِ إِذْ تَهَلَّلَ
عَلَى السَّحَابِ وَجْهِهُ « الشيخ علي » شَيْخُ الْمَسَاكِينِ (١) .
أَرَاهُ كَمَا كُنْتُ أَعْرِفُهُ ضَاحِكًا غَيْرَ الضَّحِكِ الَّذِي يَلْبَسُ
وَجُوهَ النَّاسِ فَلَا يَضْحَكُ لَشَيْءٍ إِنْسَانِي بَلْ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ
تَرَاهُ قَدْ تَهَلَّلَ فَرَفَعَ وَجْهَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَأَرْسَلَ مِنْ فَمِهِ مِثْلَ
نُورِ التَّسْبِيحِ فِي إِشْرَاقٍ جَمِيلٍ ، حَتَّى لَقَدْ كَانَ يُخَيِّلُ إِلَيَّ حِينَ
أُبْصِرُهُ عَلَى تِلْكَ الْهَيْئَةِ أَنَّهُ لَا يَضْحَكُ وَلَكِنْ قَلْبُهُ يَرْتَعْشُ
بِعَضَلَاتِ وَجْهِهِ

لَوْ أَرَادَ اللَّهُ بِالنَّاسِ خَيْرًا لَوَضَعَ فِي أَبْصَارِهِمْ أَشْعَةً تَنْبِثُ
فِي أَطْوَاءِ الْقُلُوبِ فَتَعْرِفُ أَلْوَانَ الْعَوَاطِفِ وَتُمَيِّزُهَا لَوْنًا

(١) وَضَعْنَا كِتَابَ الْمَسَاكِينِ عَلَى لِسَانِ هَذَا الرَّجُلِ لِیَتَمَيَّزَ بِهِ أَهْلُ الْبُؤْسِ
وَأَحْلَافُ الْإِهْوَامِ ، وَقَدْ أَمَرْنَا لَوْصِفَهُ بِأَبَا فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ وَحَسْبُهُ أَكْثَرُ الْقُرَاءِ رَجُلًا
مُخْتَرَعًا كَرَجَالِ الرِّوَايَاتِ وَلَكِنَّهُ كَانَ رَجُلًا أَشْبَهَ فِي حَيَاتِهِ بِرِوَايَةٍ . وَقَدْ تَوَفَّى فِي
سَنَةِ ١٩١٩ وَظَهَرَتْ بِمَوْتِهِ كَرَامَاتٌ عَجِيزَةٌ شَهِدَهَا الْأَسَافَةُ مِنْهُمْ وَلَمْ يَنْمَعْ أَحَدٌ وَلَا
كَانَ أَحَدٌ يَحْفَلُ بِهِ . وَمَعَ ذَلِكَ كَانَتْ لَهُ جَنَازَةٌ لَمْ يَعْرِفْ مِثْلَهَا فِي دَلَاءِ وَأَحْوَاظِهَا
كَأَنَّمَا خَرَجَتْ الْحَيَاةُ نَفْسَهَا تَشِيعُ أَصْفَرُ حَيٍّ لِتَجْعَلَ أَكْبَرَ مِيتٍ

من لون، ولكنه جعل الوجه غطاءً على معاني القلب ثم سلط
الفكر على معاني الوجه ومعارفه بصور فيها ما شاء مما له أصل
في الحسّ وما لا أصل له حتى ليختبئ إلاّ إنسان عن الإنسان
وهو مكشوف لعينيه وإذا كان الله سبحانه قد أوجد
الخير والشر صريحين فقد أوجد الإنسان ثالثاً لهما وهو
تلبيس أحدهما بالآخر، وأراد الخالق ذلك ويسره للإنسان
جعل فيه آلة واحدة للصدق وهي القلب والتين للكذب
وجهةً ولسانه

« * »

كان « الشيخ علي » يشبه إنسانية قائمة بغير إنسانها
على حين ترى أكثر الناس كأنه إنسان قائم بغير إنسانيته^(١)
وكانت الدنيا كأنما نسيتم أنه فيها فتركت له روحه صافية
منطلقة تتطعم الحياة غير مستقرة في شيء كما يتطعم النسيم
راحتته من ورق الزهر وهو يتسحب عليه ولا يستقر فيه
ولو أنه ورق الزهر

(١) أكثر من ترى من الناس أهم حظوظ الإنسان ولا إنسانية فيهم
والشيخ علي لم يكن له من حظ الإنسان إلا الجرم والقمة وعمضة العين

وما زالت روحُ هذا الرجل منى منذ عرفتهُ كأنها
نَضَّاحَةٌ عِطْرٌ ^(١) تَمُجُّ رَشَاشَهَا على حياتي رَوْحًا وَعَبِيرًا
وَنَدَى ؛ وكان الرجل طفل عزيز من أطفال قلبي يملأ ماحوله
ابتسامًا وطفولةً ورقَّةً ، ولو أن أحدا خُلق من عيني الطفل
الضاحكتين لكان هو (الشيخ علي) رحمه الله ؛ على أنه
كان رجلاً من سُوْسِهِ انْقُوَّةٌ معصوباً مُتَكَدِّسًا ^(٢) يَلَأُ
جِلْدَهُ كَأَنَّهُ جَذَلٌ من أَجْدَالِ الشَّجَرِ ^(٣)

((*))

وانقبضت نفسي انقباضةً شديدةً إذ تغير الرجل في
خيالي فمطار إلى نظرة ينقذ منها شررُ الغيظ ، فلو أبصرت
عينك طائرًا ضعيفًا أراغهُ سرٌّ فاستطردَّه في نواحي الجو
هكذا وهكذا ^(٤) ثم أهوى له بمخالبه ثم سدَّ إليه نظرةً

(١) رشاشة العطر وهي ترجمة لكلمة Vaporisateur ويسمونها العامة
« بجيعة العطر »

(٢) المقدس الممتلئ عصلا والمصرب الشديد طي الجسم بمضه على بعض
ومن سوسه أي من أصله وطيمته أو كما يقول العامة (من عوده)

(٣) ما عظم من أصولها

(٤) أي هنا وهناك

غَرَزَتْ هَذِهِ الْمَخَالِبَ وَانْفَجَرَتْ بِأَكْلَامِ لَحْمِهِ وَدَمِهِ ، فَاعْلَمْ أَنَّ
تِلْكَ هِيَ كَنْظَرَةُ الشَّيْخِ إِلَيَّ وَلَقَدْ تَبَعَثَتْ لَهَا شَيَاطِينُ
نَفْسِي فَانْطَلَقَتْ يَحَاوُلُ كُلَّ شَيْطَانٍ مِنْهَا مَهْرَبًا وَكَانَتْ
تُوسُّوسُ فِي صَدْرِي أَنَّ أُسْتَمَدَّ مِنْ رُوحِ الشَّيْخِ قَوْلُهُ
فِي الْحُبِّ ، هَذَا الْحُبُّ الَّذِي مَهْمَا اعْتَبَرْتَهُ لَمْ تَجِدْهُ إِلَّا كَاحْيَاءِ
أَخْيَالَاتٍ يَقْتُلُ حَقَائِقُهَا . ثُمَّ مَا لَبِثْتُ أَنْ اسْتَضَعْتُكَ
وَأُطْلِقُ لِي نَفْسِي وَجَاسَتْ عَيْنَاهُ بِنَظَرَاتِهَا الْحَكِيمَةَ
فَقُلْتُ وَيْحَكَ يَا نَفْسُ ، إِنْ عَيْنَ الشَّيْخِ تَرَى مِنَ الْجَمَالِ
غَيْرَ مَا نَرَى ثُمَّ تَعْلَمُ عَامَهَا مِمَّا نَظَرْتَ فِيهِ ثُمَّ تُقَدِّرُهُ عَلَى
حِسَابِ مَا تَعْلَمُ مِنْهُ فَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ هَذَا الرَّجُلَ الرُّوحَانِيَّ
لَا يَرَى إِلَّا مَا وَرَاءَ تِلْكَ الْبَشَرَةِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي تَكْسُو وَجْهَ
النِّسَاءِ الْجَمِيلَاتِ كَمَا تُبْصِرُ نَحْنُ مِنْ وَجْهِهِ الْمَوْتَى وَقَدْ
تَأْكُلُ جِلْدَهَا وَتَنَاقُزُ لَحْمَهَا وَبَرَزَتْ عَظْمًا كَسَائِرِ الْعَظْمِ مِنْ كُلِّ
حَيَوَانٍ ، فَلَا مَوْضِعَ قُبْلَةٍ وَلَا سِحْرَ نَظَرَةٍ وَلَا إِشْرَاقٍ
بَسْمَةٍ وَمَا هُوَ إِلَّا تَرْكِيبٌ مِنَ الْعَظْمِ صَنَعَ هَذِهِ الصَّنَمَةَ
تَيْسِيرًا لِمَا خُلِقَ لَهُ . وَلَعَلَّهُ يَا نَفْسُ لَوْ حَشَرَ اللَّهُ لَعَيْنِيكَ

أَجَلَ الْجَمِيلَاتِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَحَشَرَ مَعَهُنَّ إِنَاثَ الْبَهَائِمِ
صَنْفًا صَنْفًا ثُمَّ نَزَعَ عَنْ تِلْكَ الْوُجُوهِ كُلِّهَا ذَلِكَ الطَّرَازَ مِنْ
الْجِلْدِ وَمَا وَرَاءَهُ مِنَ اللَّحْمِ مُزْعَةً^(١) بَعْدَ مُزْعَةٍ^(٢) حَتَّى لَا يَبْقَى
إِلَّا الْوَضْعُ فِي بِنَاءِ الْعِظَامِ وَهَنْدَسَتِهَا؛ فَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ أَجَلَ
الْجَمَالِ عِنْدَنَا هَذَا لَا يَكُونُ حِينَئِذٍ إِلَّا أَقْبَحَ الْقَبِيحِ هُنَاكَ ؟ .
أَفْنِ جِلْدَةً عَلَى وَجْهِ امْرَأَةٍ يَجِيءُ الشَّعْرُ وَالْجَنُونَ مَعًا وَيَجْتَمِعَانِ
فِي هَذَا الْخِيَالِ الَّذِي يُسَمَّى الْحُبَّ وَيَسْتَنْزِلَانِ مَعَانِيَ التَّقْدِيسِ
مِنْ أَعْلَى السَّمَوَاتِ إِلَى عَيْنٍ تَلْحَظُ لَحْظَةً وَشَفَاةً تَبْسُمُ
بِسْمَةٍ ؟

إِنَّهُ الْقَلَمُ الْإِلَهِيُّ الْمُبْدِعُ الْحَكِيمُ هُوَ الَّذِي صَوَّرَ وَلَوَّنَ
وَافْتَنَّ مَا شَاءَ ؛ فَإِنْ رُزِقَتْ امْرَأَةٌ جِلْدَةً جَمِيلَةً مُشْرِقَةً كَأَنَّمَا
تَجْرِي فِيهَا الشَّمْسُ ، وَأُلْبَسَتْ أُخْرَى جِلْدَةً قَبِيحَةً سَفْعَاءَ^(٣)
تَجُولُ فِيهَا رَهْبَةُ الظَّامَةِ ؛ فَكَلَّمَتَاهَا صُورَةٌ مِنْ صَنِيعِ اللَّهِ
وَكَلَّمَتَاهُمَا تُظْهِرُ لَوْنًا مِنْ أَلْوَانِ الْحِكْمَةِ وَكَلَّمَتَاهُمَا جَاءَتْ لِمَعْنَى
وَكَلَّمَتَاهُمَا بَعْدُ غِشَاءٌ زَائِلٌ عَلَى وَضْعٍ ثَابِتٍ لَا يَخْتَلِفُ فِي هَذِهِ

(١) هِيَ السَّلْمَةُ مِنَ اللَّحْمِ (٢) السَّمْعُ سَوَادٌ شَرِبَ بِحَمْرَةٍ وَالْمُرَادُ بِهِ هَا
فَسَادَ لَوْنُ الْوَجْهِ وَقَبَحُهُ وَبِشَافَتِهِ

ولا في تلك ؛ وضع الحقيقة الجسمية التي تحمل الحياة بأدواتها الكثيرة. والحياة لا تعرف البشرة الا غطاءً على ما وراءها اسوداً أو ابيض ، وكان من لون المرمر أو من هيئة الطين

ولو أن كل وجه في نساء الدنيا خلق دميماً نافرّاً على أبشع ما نتصوره من القبح لكان كل نساء الدنيا جميلاتٍ إذ يالف الطبع الانساني تلك الصورة الواحدة ويتقرّر بها الذوق في الجمال وتستمرّ بها العادة فلا يستبين وجه من وجه آخر في صفة ولا يخالف مذهبٌ مذهباً في حالة ولكن هذا الانسان كُتب عليه الشقاء وخلق وخلق معه ما يُطغيه وما يستفزّه وما يُخرجه عن طوقه ؛ كما خُلق له ما يُزهدّه وما يطمئنّ به وما يحصره في انسانيته . فالجماليات والقبائح كلهن سواء في أنهن نساء هذه الانسانية لا تقصّر في ذلك واحدة عن واحدة وإنما يتفاوتن في أسباب الشقاء الانساني الذي يبتلي الرجل بالمرأة ويمتحن المرأة بالرجل ولو سماعل الرجل الى

الغاية العليا من كماله لرأى المرأة الجميلة الفاتنة في نصف
جمال المرأة القبيحة ، ولبانت الواحدة عنده من الأخرى
بأن الدميمة مهيأة في نفسها لمعالى الأخلاق والجميلة مهيأة
لسفكافها ^(١) ، ولرأى مع هذه من بعض طباعها ونزغاتها
شراً مما تقدم بها من جمال وجهها ، ومع تلك من أكثر
طباعها وصفانها خيراً مما قصر بها من حسن صورتها
بيد أن من شقوة الطبع الانساني أنه سخط القبح
فأحاله فساداً وعبد الجلال فأحاله فساداً من نوع آخر إذ
كان في نفرته وحببه لا يعتبر المنافع والحفائق ولكن الأهواء
والشهوات ، والمنفعة والحقيقة كاتهما لا تكون إلا في
قيودهما أما الأهواء والشهوات فهي دائماً لا تقع إلا
مُتَخَطِطَةً حدود العقل إما الى النقص وإما الى الزيادة
ولا تُغْرِى بشيء الا أوقعت به السوء إذ لا يستوى في
القصد ماخرج عن الحقيقة - وما هو مقيّد بالحقيقة

« * »

(١) السفكاف الدنيا وأصله مايتطير من الغبار إذا أنير ومن الذين إذا
نحل لانه أهونها ولا فائدة منه

كان هذا وحي (الشيخ على) في نفسي غير أني رددته عليه وأزاني شيطانُ الحب مرة أخرى فقلت : أفترى الشوهاء على ما بها مماركع للدهر وسجد^(١) ثم تلك المرأة التي سمح تركيبتها فتحامت بها العيون ، ثم الأخرى التي قمعت في بيتها تختبي فيه من القبح^(٢) فصارت سرّاً في صدر الحيطان ثم تلك التي تلوح في النساء كالسطر المضروب عليه أفسده خطأ ، ثم الممزولة التي أدبر جسمها^(٣) وتقبضت أعضاؤها وأصبحت جلدة تمشي وتكلم . أفترى هؤلاء أو إحداهن كتملك الغاية المتشكلة في ألوان الثياب كأنما تلبس بدنّها الجميل بدنّاً معنوياً يدلّ على معانيه ، أو الأخرى التي تظهر في جمالها الفتان عاطلة من كل حلية ومع ذلك ترفّ على حسنّها روح اليافوت والألماس واللؤلؤ مما عليها من البريق والشماع ، أو المطوية المشوقة المسترسلة كأنها في

(١) كناية عن أسباب فقرها من الجمل وسقوطها فيه ويقال ركع للدهر وسجد إذا كان فقيراً ساقطاً ليس وراء ما به من الذل (٢) هي الغمّة (بوزن ملكة) وجمعها قمعات (كالكلمات) من تستر لما ابتليت به من قبح الصورة (٣) كاد يفنيها الهزال وتسمى المموصصة

قوامها ووجهها غصنُ الجمال وزهرته ، أو الحسناء اللعوب
المزاحة كأنما اجتمعت طباعها من نور القمر أطلَّ في ليلةٍ
من ليالى الربيع يداعِبُ أوراق الورد النائمة ، أو ... أو تلك
ياشيخ علي ...؟

(قال الشيخ علي) فياويلك ، إني والله بك من رجل
خبير ^(١) أفمن أجل واحدة ...؟ أما إنه لعل الذي جعلها حقاً
عندك هو الذي يجعلها باطلاً عند سواك ولعله ما حسنتها في
عينك إلا أن طبعاً من الجدِّ فيك استملح طبعاً من الهزل
فيها كما ترى معنى مكند ودأ في إنسان يسرَّوَحُ الى تقيضه
في إنسان آخر . ولعل من أمتع اللذات وأبهجها القلب
المهموم أن يتعمود في همه من يعرفه طروباً فرحاً وإن كان
كلا الرجلين لا يسكن عشرة الآخر لو تعاثرا واختلطا .
وهذه القلوب لا تؤتني من مأتى هو أدقُّ وأخفى من
توهم ما فيه اللذة فأن النفس ترجع عند ذلك بكل حقائقها
الى نوع واحد من الوهم ينصرف بها الى مثل هذه اللذة

(١) أي خبير بك وبما تبطن وتخفى

التي استشرفت لها وطمعت فيها ، فاذا طعمتها في الدم يهيج لها سُعَاراً^(١) الجوع العصبي . وما هي السرقة مثلاً إلا أن يضع اللص عينه على المال أو المتاع ويتذوق طعم اليُسْر والفائدة فتُجَنُّ أعصابه جنون الحاجة فلا يرعوى الى شيء من الرأي يزره أو يمنعه أو يكفئه ويكون في الحقيقة سارقاً من قبل أن يسرق . وكذلك يكون الفاسق متى نظر الى المرأة واشتهاها ونبه معانيها في نفسه ، وقل مثل هذا في كل من طار قلبه أو طار صوابه

أَلَهُ عَنْ وَهْمِكَ يَا نِيَّ وَضَعِ الْأَمْرَ عَلَى قَاعِدَتِهِ وَسَدِّدْ نَظْرَكَ إِلَى حَقِيقَتِهِ وَدَعْنِي مِنْ حَبْلِ الْبَاطِلِ الَّذِي تَجَرُّ فِيهِ شَيْطَانٌ هَوَاكَ أَوْ يَجْرُكُ هُوَ فِيهِ . وَمَا تَتَكَلَّمُ عَنْ اثْنَيْنِ مِنْ خَلْقِي أَنْتَ وَهِيَ ، وَلَوْ أَنَّ الْأَمْرَ قَدْ انْحَصَرَ فَيَكُنَّ وَفَنَيْتَ بِالْحُبِّ فِيهَا الْكَانَتْ هِيَ الْكَوْنُ كُلُّهُ وَلَوْ فَنَيْتَ هِيَ فِيكَ لَكُنْتَ أَنْتَ ذَلِكَ الْكَوْنُ . وَهَذَا حَرَسُكَ اللَّهُ مَوْضِعَ النَّقْصِ فِي النَفُوسِ الْعَاشِقَةِ إِذْ تَنْقَطِعُ إِحْدَى نَفْسَيْنِ مِنَ الْعَالَمِ

(١) ما يأخذ من الجوع الشديد شه الجنون وحالة الاغصاب متى امتازت لا امر لا تكون الا هكذا وبخاصة ان كان هذا الامر من الحب

إلى نفسها الأخرى. وهو تقص أشبه مجنون المجانين بل هو
مُتَمِّمٌ له ، فانما ذهابُ العقل في المجنون المُخْتَبَل هو نصف
الجنون الانساني أما النصف الآخر فهو تَجَرُّدُ العقل في
العاشق المتدَّله . نصف الجنون في العاشق الذي يتجرد
من الناس إلا من أحب ، ونصفه في المَعْتُود الذي يتجرد
من الزمن إلا الحاضر . إنه ليس للمجنون عند نفسه ماضٍ
ولا مستقبل إذ لا أمل هذا ولا يذكُر ذاك . وكل سعادة
نفسه في هذا النسيان الذي طَمَسَ عليها وتركها كأنما تعيش
في غير عمرها بل في كل أعمار الانسانية بل في غير عُمر ؛
وكذلك ليس للعاشق مع الحبيب شخصٌ آخر ممن مضى
وممن يأتى مادام الحب قائماً ، فالحبيب هو الحبيب وكل
الناس بعده أدوات . وشخص واحد هو الألف واللام
والحاء والباء ، والناس جميعاً نقطة صغيرة مُلَقاة تحت الباء
فقط

(قال الشيخ على) ثم يَبْرَأُ المجنون وَيَتَوَبُّ اليه عقله
فيعرف أنه كان مجنوناً بَوَيْغِضِ الحب أو يسألو ويبرأ من

وهو في تلك المرأة فلا يرى إلا أنه كان بها مجنوناً . أفلا
يكفي هذا ويحك في الدلالة على أن الحب والجنون من أم
واحدة وإن اختلف أبواهما وأن رأي العاشق في كل
النساء كراي المجنون في كل الناس لا يجوز أن نأخذ بواحد
منهما إلا إذا أخذنا بالآخر وأقررناه في باب الصواب والعقل
إذ كلاهما حاصل من حالة ، التي تغيرت فانقلب اعترفي صاحبها
عليها بالجنون وإن كانت إحدى الطالبين في طبيعتها ووصفها
غير الأخرى : ويؤلمه وصفاً من العاشق لو كان مع صاحبه
رأي^(١) ويؤلمه رأياً من المجنون لو كان مع صاحبه عقل

« * »

(قال الشيخ علي) : سئل الخلاج^(٢) وهو مصلوب يمانى

(١) كلمة تنال لتعظيم شأن الأمور تشعير لئلا يريدوا وأصابعها وبل
ألمه وألمهم يستقنون الهزيمة ومن أجل ذلك رسمت كلمة واحدة وترسم
كلمتين إذا أمن الخلاج فيها

(٢) هو الحسين بن منصور الخلاج الصوفي الشهير بـ «الملك المراءى» وهو أخلاقاً
كبيراً ورعياً نال كفة وقبل سنة ٣٠٩ للهجرة وهو في أواخره من أكبر رجال
الحقيقة وما زال هذا التصوف بالحقيقة نفسها هي موضع العبادة وموضع الحمل
معبداً . ومن أبداع ما قرأناه في ذلك أن أصبح الشيخ عثمان القرشي من أكبر
علماء مصر في علوم الحقيقة والشرعية قالوا له يوماً : مالك لا تحدثنا بشيء من

غصّة الموت : ما التصوف ؛ فقال لسائله أهو منه ما ترى ...
 فهذا رجل يموت في سبيل حقيقة تقتله بغموضها السماوي
 العجيب ؛ وعلى أنها قد دقت المسامير في أطرافه وجمعت
 لموته آلام الحياة كلها وأنبتت في كبده من وخزات الجوع
 شجرة من الشوك وأطلقت في عروقه من لذعات العطش
 ضيماً من النار ، وتركته على صليبه ممدوداً تتساقط نفسه
 كما ينشر الثوب الذي بلى والنسحق فهو يتمزق من كل
 نواحيه . على هذا البلاء كله لم تنغبر الحقيقة في رأي الرجل
 ولا فسدت موضعها في نفسه ؛ ولا دأى ما يكرهه الناس من
 الآلام ، كروها في ذاته فيميل عنه ولا ما يحببها من اللذة
 سمو بأفصيل إليه ، ولا تسحب قلبه حركة واحدة في

أحد من . سألهم كم أضحى اليوم : قالوا ستائة وقال انتخبوا منهم مائة فانتخبوهم
 فقال اخبرنا من هؤلاء عشرين فاختارهم فقال انتخلصوا من العشرين
 أربعة وكان الأربعة أئمة الجامعة بن القحطاني وأبا القاهر وابن الصابوني
 وأبا د الله القرطبي . قالوا ما انتهى الأمر إلى ذلك قال الشيخ رحمه الله :
 لو كانت الحكمة من المفايق على رؤس الأشهاد لكان أول من يقتل
 هؤلاء الأربعة . فتأمن غور هذا البحر فما أبعد غورا ، وتوفى الرشدي سنة

السخط على الحكمة الالهية فانتقصها برأى أو اغتمز فيها
بكلمة؛ بل نظر نظرة الحكيم من وراء الحد الانساني
المنتهى فيه؛ الى ما يبدأ عنده الحد الإلهي الذي لا ينتهي ،
ورجع آخره الى أوله فكانما يقول بلسان حكمته فيما نزل به :
اللهم إنك بدأتني طفلاً غراً جعله فقدان العقل لا يملك
مع أحد الا صياحه فخذني اليك طفلاً عاقلاً جعله العقل
لا يملك مع أحد ولا صياحه

واذكر الطفل يابني "فرب" مُعضلة من أمور هذه
الدنيا يحار الناس في آخرها وهي محمولة من أولها ، وما
هو لاء الأطفال إلا الأساتذة الذين يعموننا وهم يتعمون
منا ، غير أننا لا نأخذ عنهم فلا نصلح ويأخذون عنا
فيفسدون . أفرايت ولد الشَّوهاء تعرف عيناه في كل
ما طلعت عليه الشمس أجل من وجه أمه أو يرى طائلاً في
وجه سواها أو يحن الى غير طلعتها أو يسكن الى صدر
غير صدرها حتى كأن الله لم يخلق وجه حبيب لقبلات محبه
الا وجهها هي لقبلاته ؟

إنه في ذلك ينظر من ناحيتين : الأولى ناحية صفاته
هو فان الذئب إذا لم يكن بهيمياً منعكسا أشرق صفاءه
فيما حوله فلا يرى إلا خيراً ، ولَبِست المرئيَّ صِفَةً الرائي
فلا ينظر إلا جمالاً ، واتصل الشعور الطيب الرقيق الجميل
بين نظر النفس وبين ذات النفس كما يصل الشمع الذي يلقى
على حائط من المصباح - بين هذا الحائط وبين المصباح
فَيُغَشِّيهِ النورَ وان كان الحائط نفسه من الطين . فإذا
كان القلب بهيمياً زائفاً عن الانسانية الى حيوانيته
استفاضت ظلمته وشهوته على ما حوله فلن يشهد من
صفات الجمال شيئاً بل يرى في كل شيء من صفات نفسه
هو ، حتى ليكون الوجود كله في عين بعض الناس كما
يكون الطعام كله في فم المريض . ومثل هذا يعشق
أجمل النساء فلا يرى فيها جمالاً البتة وإن هو خدع نفسه
في ذلك واخترع الناس ، وانما يرى شهواتٍ ؛ شهواتٍ
جميلة ليس غير

أما القلب البهيمي غير المنعكس وهو ذاك الذي

تحملة البهائم، فلا يحتفل فيه عقل ولا يحتشد فيه خيال وما هو الا أن ينصب الحيوان به على محض المنفعة لأنه عامل في الطبيعة يعدّ من أعمالها لا من شعرائها... فليس عنده جمال يقع في ظاهر الروح وآخر يقع في باطنها وثالث متوسّث لا يقع ولا يمتنع أن يقع^(١)؛ وليس يعرف من معنى التقيح الا أن تكون الاثني قد طاش بها المرض فما تستقل إعياء وضعفاً. وبذلك سلمت إزات البهائم من شر كثير يملأ لغة الحياة النسائية بجمانيه وتجمعه كلمتان: الجمال والتقيح والناحية الأخرى التي ينظر منها الطغل لأمه الدميمة الشوهاء ناحية الصفات الإلهية فإن الحب الصحيح الذي يمكن أن يُسمى حباً لا يكون فيما ترى من لون وشكل وتكوين وتناسق وغيرهما مما يُظهر البشرية على أنماها أحسنها في الشخص المحبوب كإثان الناس خطأ؛ بل هو ن عكس ذلك أي فيما يخفى البشرية بمجاسنها وعيوبها

(١) رأينا هذه الكلمة مروية للأفندي وهي: ان الجمال اذا وقع و ظاهر الروح كان صباحة واذا وقع في باطنها كان مصباحه. وردنا سماعاً ما هو موقفاً مما لا يعرف الا بالخيال ولا حقيقة له في الواقع

جميعاً ويُظهر في أمكنتها خصائص الروح المحبوبة وحدها. فمن ثمَّ يبدو لك شخص المحبوب على أيِّ أشكاله وهيأته كأنه تمثال سماويّ وُضع لروحك خاصةً فهو محبوبٌ من مادة واحدة هي مادة الفتنة ولو كان في أعين الناس كافّةً تمثال الأرض السفلى يُصور كل ما تشئت فيها من القبح فإذا لم تظهر لك خصائص روح المرأة ظهوراً يستفيض على وجهها وجسمها ويجعل كلَّ شيء فيها ذا معنى منه وكل معنىً منه ذا معنىً فبك فما أنت من حبها في شيء ولو ذهبت من عالمها بمقول الناس ولا هي عندك من الجمال في شيء ولو كانت في النساء كإيالة البر في الدنيا. ومن أجل ذلك لا يخلو الحب من بعض معاني الوحي ولا تخلو الحبيبة من بعض المادة الملائكية^(١) في النفس التي تعشقها، وهل ذلك الوحي إلا قوة المزج السماويّ في نفوس الأنبياء، وهل روح الحبيبة إلا عني قدر من مثل هذه القوة في نفس

(١) نسبا إلى الجمع لا حقة ورفاين هذه وبين النسبة إلى الملك (بكسر اللام) فلها ملكية (بفتح اللام)

محبها؟ ولعل هذا يفسر لك سرّاً من أسرار الاحتراق في بعض الأرواح العاشقة التي نيمها الحب فان تلك القوة للزجينة متى أفرطت على نفس رقيقة حساسة أذابتها واشتعلت فيها فأكلتها أكل النار للهشيم وتركها تحترق أسرع ما تحترق لتتطفيء أسرع ما تنطفئ

«*»

(قل الشيخ على) تلك هي الحقيقة يابى فلن بأنى لكائن من كان أن يقسم النساء الى جميلات وقبيحات إلا إذا طوى في ذلك معنى القسمة الى شهوات جميلة وشهوات قبيحة ؛ ومتى انتهينا الى هذا فقد خرجنا الى المخاطبة بلغة لاهي من لغة البهائم ولاهي من لغة الانسانية .
أفرايت قط الفاظ الجمل والتفبح كشييع في أمة من الامم وتعلمو بالاعين عن النساء وتنزل وتمتد^(١) بها وتنقبض إلا أن تكون أمة ضعيفة القوة قد اختلت أجسامها أضعيفة الدين قد اختلت أرواحها؟

(٣) يقال عات العين عن كذا أى نبت عنه نفورا لم تلتصق به فاستعملنا منها نزلت كما ترى

انكشف القمر ذات ليلة لرجل اسمه « من عباد الله
المقرئين ^(١) » فاذا البدر أسود كالخبر واذا مكتوب في
وسطه بالنور « أنا وحدي »؛ فالقمر نفسه لم يمنعه كل ضياء
الشمس عليه أن يسود في عين الرجل الكامل الذي ينظر
لروحه ، فما الذي يمنع من ينظر لروحه وخصائصها أن
للرأة تصير القبيحة في عينه كالقمر الأزهر ؟

« * »

في البدر ظهرت كلمة الألوهية « أنا وحدي »
وفي وجه الحسناء تقرأ كلمة الألوهية « أنا وحدي »
فهل يمكن أن تقع اللدنية من الحسناء أفتح ما يقع

(١) هذا تهكم من الشيخ على يريد به طائفة فتياننا وفتياتنا
من يرون الدين شينا قديما في لغة قديمة ونفوس قديمة ومذهب
قديم . فليهنأهم البلاء الجديد الذي حل من أنفسهم محل الدين فجعل
الرجل بلاءاً على المرأة ان تزوج بها او اهلها والمرأة بلاءاً على
الرجل ان كانت له او لنفسها والوطن بينهما يقول ما تقول جهنم
لأهلها « لاتدعوا اليوم نبوراً واحداً وادعوا نبوراً كثيراً »

ظلام القمر من نوره فلا تكون في وجهها هي أيضاً كلمة
الالوهية « أنا وحدي » ؟

« * »

لم يبق في البدر مع الحكمة العليا شيء يسمى
الجمال ولا المرأة الحسناء يكون فيها شيء أجمل من القمر؛
فهي مثله ليس فيها مع تلك الحكمة شيء اسمه الجمال؛
أفيمكن أن يكون مع الحكمة نفسها في وجه القبيحة شيء
اسمه القبح ؟

« * »

القمر طالع مشرق كما كان
والجميلة الحسناء لاتزال فاتنة
والدميمة ظاهرة كما هي
لم ينقص السكون من ثلاثها شيء
ولكن أين عين الرجل الكامل ؟

الفصل الثامن

﴿الشيخ احمد﴾^(١)

والساعة أرى سحابي أصفى ما تمثال لي وأرقه كالسما
في صبيحة سارية^(٢) إذا غسأها الليل وأصبحت لا بسة
حريرها من شفق الصبح الأحمر ، وأراني أنظر إليه وأعتف
له وأستشرف في ضوئه كالطائر لا يسعه جلد مراحا
وتقابلا ، حينئذ متى أصبح من الليلة الممطرة إصباح الشمس
بعد أن أبانه المطر بيته كأنها في عيش السحاب .

وأشرق عليه صديق هاء ، ولا ومصرف القلوب^(٣)
إن ذكرته منذ لحق بربه إلا أخذني من الحنين إليه مالا يكون
مثله لصديق ميت بل لحبيب هاجر يُشعر ك موت الأيام
كيف يكون . كانت صحبته إياي من أطراف الطفولة الى

(١) هو الاستاذ المرحوم الشيخ احمد الرفاعي ابن عم الكاتب وصديق نشأته
ورفيق شبابه ، والكاتب حال أولاده . دهب رحمه الله يقضى فريضة الحج
وأضى الى ربه من هناك ودفن بمكة

(٢) صبح ليلة فيها مطر والسارية السحابة تمطر ليلا

(٣) هذا قسم وكان أكثر ما يقسم به النبي صلى الله عليه وسلم

آخر الشباب الى نخوم الكهولة وهي أيام شَبَعَ العمر
لا يَطْعَمُ فيها من شيء إلا طَعِمَ من لذة وما بعدها من تقاصر
الحياة واختلالها إلا كأيام سوء الهضم

إذا كان في امرئ من الناس باقٍ بعد شبابه فما أشبه
هذا الباقي في جانب ما قبله بنواة الثمرة الحلوّة من لبّها ؛
تنتهي فيما تأكل الى النواة ولكن بعد أن يكون أطيبُ
ما في الثمرة قد انتهى ، وتُنْفَضِي بما ينصرف في الريق حلاوة
ويسيل في الحلق لذة الى بقية من الخشب رطبه أو يابس ،
فلو كانت النواة من الذهب ما رجعت لك من ثمرتها رجعة (١) .

يا أيام الشباب أنت وحدك نور الحياة لانك منذُ
الفجر ، وأنت وحدك نهارُ العمر لأنك الى أن تصفرَّ
الشمس ، وليس وراءك إلا كآبةُ الليل تتقدم ليلها باسمه في
شفق المغرب .

يا أيام الصَّبِي أنت وحدك الحبُّ لان فيك ما في -يون
الحبيبات أشخاصاً روحية ظاهرة بمعانيها الفتانة فهي تلقى

أشعة الجلال على كل ما تنظر إليه .

يا أيام الرُّجولة الأولى إن في زمنك وحده تحلُّ السعادة
في العقل إذ يكون العقلُ في عهدك ما يكون الطفلُ في
عهده ؛ أنته تجري من معاني الدموع والابتسام والضحك
ولا يستدير به إلا الأفواه الحبيبةُ التي تقبله أكثر مما
تزجره ؛ وحتى لو ضرب لكان الضرب سبباً من أسباب
تقبيله فيما بعد . . .

يا أيام الشباب أنت وحدك العمر ، ومن بعد الشباب
كلُّ شيء يكون ففيه من الماضي فعلٌ مستتر تقديره كان

« * »

يرحمك الله يا صديق الكريم ؛ تركتنا مصغداً الى الله في
سُلم كانت الأولى من درجاتها عتبةً هذا البيت في مصر ،
وكانت الأخرى تلك العتبة الطاهرة من بيت الله في مكة
وذهبت عنا وما علمنا أنك طائر يُغطي تحت ريشه
سراً الجاذبية العليا

واستودعنا الله واستودعناك فاشتبكت دموعٌ في

دموع وما حسبنَا أن أرواحنا تقيم من ذلك مَنَاحَتَهَا قَبْلَ
الفراق الأبدى

وخاطبناكَ عند البَينِ وخاطبتَنَا وما عرفنا أن السماء
كانت وقتئذٍ تَكَلِّمُ الأَرْضَ من شفتيك بِالْفَاضِ لَهُمَا بَعْدَهَا
ونظرتَ إلينا طويلاً تلكَ النظرةَ الَّتِي لَا تَكُونُ إِلَّا
مِمَّنْ يَعْرِفُ حَتَّى لَا يَنْكُرَ شَيْئاً ، أَوْ مِمَّنْ يَنْكُرُ حَتَّى لَا يَعْرِفُ
شَيْئاً ، فَإِذَا أَنْتَ تَنْظُرُ مِنْ أَعْمَاقِ الأَزَلِّ فِي تَرَابِ هَذَا الْعَالَمِ
وَنَحْنُ لَا نَدْرِي

وَسَأَلْنَا اللَّهَ أَنْ يَرُدَّكَ عَلَيْنَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ فَأُثْبِتْ لَنَا أَنَّكَ
مِنْ أَعَزِّ مَا فِي الْحَيَاةِ حَتَّى سَقَطَ دُونَكَ الأَمَلُ فَلَا يَتِمُّ لَكَ
إِلَّا الْفَكْرُ وَحْدَهُ

« * »

وذهبتَ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ مُتَجَرِّداً مِنَ الدُّنْيَا لَيْسَ لَكَ مِنْهَا
إِلَّا جَسْمُكَ لِتَخِيفَ إِلَى مَحَبَّتِهِ وَرِضَاةٍ ، فَلَمَّا شَاهَدْتَ التَّجَلِّيَّ
الأَعْلَى تَجَرَّدْتَ مِنْ جَسْمِكَ أَيْضاً وَاتَّهَمْتَ بِنُورِهِ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى . فَلَقَدْ خَلَعْتَ الدُّنْيَا مَرَّتَيْنِ وَمَاتَ بَعْضُكَ فِي

مصر وباكيت في الحجاز ، وخلصت روحك الى ربها كما
تخلص الجوهره صافية متلألئة بعد استخراجها من معدنها
مرة وصقلها للرؤق مرة أخرى

وأبى الله لروحك الطيبة الا أن تمرّ في بيته قبل أن
تمر اليه فتسبح في نور الملائكة وتنسّم ناحية مهبطها وهي
تصعد أو تنزل بالرحمة على الحجيج^(١) وتستضيء بتلك
الشعلة القدسية التي أضاءت في الكعبة من وجه رسول الله
صلى الله عليه وسلم ثم من سرائر أصحابه الطيبين ولا يزال
ضوءها هالك كضوء الكوكب منتمعا في سواد الحجر
الأسود

«*»

واختار الله لك بعد إذ انغمست في نوره أن تصعد
اليه فلا ترجع من ذلك النور الأزلي الى ظلام الدنيا ،
ولا تعود من النبع السماوي الى حمأة الأرض ولا تحلّ
في بيت من بيوت الخلق بعد بيته هو عز وجلّ

واختار لك ما عنده على ما عندنا فما في أيام هذه
الحياة الا غبارٌ يثور على غبار ، ولا في الناس إلا أحجارٌ
تتحطم على أحجار ، ولا في أخلاقهم إلا أقذار تنصب
على أقذار ، ولا بين الحوادث والناس الا كما بين الرياح
والقفار ، ولا بين الإخوان والإخوان إلا كما تجمع
الأصفار من الأصفار

واختارك الله إذ اختار لك فارتكت يرحمك الله الا
علانيةً مشهودة ، وسريرةً مخمودة ، وآثارا في الصالحات
معدودة ، وأفراخاً في شجرة الحياة كصغار الطير اذا رأت
أباهما فارقَ عوده

يرحمك الله إن أول ما يشهد لك عند الله كعبته إذ
كانت آخر ما عرفت من الدنيا ؛ وإن الذي يدخل السماء
من باب الكعبة لتحقيق أن تضع له الملائكة أجنتها
سلاماً وتحية . فهنيئاً لك إذ فتحت باب السماء بتلك القبلة
الزكية التي وضعتها على أستار الكعبة ؛ وهنيئاً لك إذ
ذهبت لتقول أبيتك اللهم أبيتك فانطلقت روحك الطاهرة

فيها وكانت أول كلماتك في السماء . وهنيئاً لك ثم هنيئاً
إذ قطعت البحرَ والبرَّ الى خير بقاع الدنيا لتقول لله من
هناك : ها أنا يا إلهي

«*»

ان الحقيقة لا تسأل كيف يحيا الحي ؟ ولكن كيف
يموت ؛ ولا تتعرّف ما قدرته على الإقامة ؛ ولكن
ما قدرته على الرحيل ؛ ولا تبالي ما قوته على الرسوخ
كالجبل ؛ ولكن ما قوته على الوثوب كالطائر . فهناك
بين حدود الدنيا وحدود الآخرة موضعٌ هاوٍ لا يتخطاه
الا ذو جناحين قد اشتدَّ كل منهما ووفى^(١) . وهناك
متى انتهى الانسان وجد عقله وضميره قد امتدَّ من جانبيه
كالجناحين ورأى كلَّ عمل من أعمالهما في السيئة والحسنة
— إما ريشةً قد نسكها من جناحه وإما ريشةً قد أنبتها فيه
القدرة على جو السماء في جناح الطائر وفي ريش هذا
الجناح وفي قوة هذا الريش ؛ والقدرة على السماء نفسها في

عمل الانسان وقيمة هذا العمل وصحة هذه القيمة

«*»

لسنا نبكي عليك أيها العزيز وانما نبكى على أنفسنا
فان ما أمامنا لا يمكن أن يكون دنياً غير الدنيا يُفتح لها
تاريخ غير التاريخ . والحقيقة التي ضمتها ملايين
« المجلدات » المحفوظة في القبور ^(١) هي هي بعينها ان
تغير ولن تتبدل . فاذا بكينا الميت فبا بكينا ذهابه
عنا ولا كنا نبكي لبقائنا بدونه ؛ كما اجتمع نفر من الغرباء
في البلد النائي ؛ فيخترم أحدهم ^(٢) فإيرونه الا معنى من
أنسهم قد زال ، وركننا من قوتهم قد مال ، وجانباً من
نظامهم قد أفسده الاختلال . وما دام في الارض باكٍ على
ميت فالأرض دارُ الغربة لكل من عليها ، وهي لن
تكون وطناً لمن سيفارقها الا إذا عدَّ بطن الأم وطناً لابنها
من وطن الأشهر المعدودة ينحدر الانسان الى وطن
السنين المعدودة . أما الأزل والخلود والوطن الانساني

(١) كناية عن الناس (٢) يهلك بجائحة من الجوائح

الكبير فهناك . هناك حيث لا تساوى كرة الأرض
بما فيها أكثر مما تساويه ذرة من التراب تصعد أو تهبط
وهذا الذى نكرهه عقلاً من أمر الدنيا هو الذى
نرانا مضطربين الى أن نعقله كرهاً شذناً أو أيدناً
فابكى أيتها الأعين الإنسانية وتهيمى للبكاء ما
دمت باقية . إن تيار هذا البحر الذى تنصب فيه الأحزان
لا يعب من دموعنا ^(١) التى نبكى بها لمكابدة الموت
ولكن من دموعنا فى منازعة البقاء .

« * »

لهفى لذكره صديقاً كانت نفسه العالية كالنجمة
وهبت قوة النزول الى الأرض ، وحيداً لو انقسمت
روحى فى جسمين لكان جسمها الثانى ..
كان دائماً كالذى يشعر أنه لا بد ميت وتارك ميراث
مودته فلا أعرف أنى رأيت منه الا أحسن ما فيه ، وكأنما
كان يضاعف حياتى بحياته ويجعلنى معه إنسانين

(١) أى لا يتدفق

وكان له دينٌ غَضٌّ كعهد الدين بأيام الوحي لا تزال
تحتّمه رِقَّةُ قلب المؤمن وفوقه رِفَّةُ جناح الملك يُخالط نوره
القلوب

وكان حَيِّياً صريح الحق ترى صدق نيته في وجهه كما
يريك الحق صدق فكره في لسانه. سامياً في مروءته
ليس لها أرض ^(١) تَسْفُلُ عندها وإنما هي الى وجه الله فلا
تزال ترتفع. ودوداً لا يعرف البغض محبباً لا يتسع
للحقد ألوفاً لا يسير الموجد على أحد

وكان رَحِيبَ الصدر كأن الله زاد فيه سعة الأعوام
التي سينتقمها من حياته ففي قلبه قوة تُعمرين. وكان
طَيِّبَ النفس فكان الله لم يمدّ في عمره طويلاً لأنه نفى
منه الأيام الهالكَة التي يكون فيها الانسان الانسان
معنى من معانى الموت ^(٢)

« * »

(١) كناية من انه لا ينحط فيها ولا ينزل سفلاً (٢) كأيام القطيبة والعداوة
والكيد ونحوها مما يجعل أعمار الناس أقصر مما هي

آه لو عرف الحقَّ أحدٌ لما عرف كيف ينطق بكلمة
نِسيءٍ ، ولو عرف الحبَّ أحدٌ لما عرف كيف يسكت
عن كلمة تَسْرٍ ، وإن يكون الصديقُ صديقاً إلا اذا عرف
لك الحقَّ وعرف لك الحب

لا أريد بالصديق ذلك القرينَ الذي يصحبك كما
يصحبك الشيطان لا خيرَ لك إلا في مُعاداته ومخالفته . . .
ولا ذلك الرفيقَ الذي يتصنعُ لك ويُعاسِجك متى كان فيك
طعمُ العسل لأن فيه رُوحَ ذُبابة ولا ذلك الحبيبَ
الذي يكون لك في همِّ الحب كأنه وطن جديد وقد نُفِيتَ
إليه نفى المُبْعَدِين ولا ذلك الصاحبَ الذي يكون
كجلدة الوجه تحمرُّ وتصفُرُ لأن الصحة والمرض يتعاقبان
عليها . فكل أولئك الاصدقاء لا تراهم أبداً الا على أطراف
مصائبك كأنهم هناك حدود تعرف بها من أين تبتدىء المصيبة
لا من أين تبتدىء الصداقة . ولكن الصديق هو ذلك
الذي اذا حضر رأيتَ كيف تظهر لك نفسك لتتأملَ
فيها ، واذا غاب أحسستَ أن جزءاً منك ليس فيك

فسأترك يَحْنُ اليه . فاذا أصبح من ماضيك بعد أن
كان من حاضرك، وإذا تحوّل عنك ليصلاك يغير الحدود
كما وصلك بالحدود ؛ واذا مات ؟ يومئذ لا تقول إنه
مات لك ميّت بل مات فيك ميّت ؛ ذلك هو الصديق

« * »

وكننا ذات يوم على شاطئ النيل وبزغ الهلال كأنه
إصبع ملك من الملائكة خرقت ستار السماء لتحدث فيه
ثقباً تنظر منه الى نجمة ستهوى . فقلت له هذا الهلال
ما انفكّ يتلقّى نورَ الشمس منذ مُخلق وهو في نفسه مظلم
أبداً ولكنه من صحبته للنّير قد أثار وصار مع الشمس شمساً
بيضاء ، فما أكرم الصداقة من نعمة لو أصابها المرء على
حقها فيمن مُخلق لها . كان أهل الكيمياء القديمة
يسمونها « علم زراعة الذهب » وأنا أسمي كيمياء الشمس
في هذا القمر « زراعة الفضة » فماذا تسمي أنت كيمياء
الصداقة في معادن القلوب ؟ قال أسميها « زراعة الخير » .
قلت فان لم يُنبت وأكله لؤم أرضه ...؟ قال ذاك الى الله لا اليّنا

فإن في هذا الوجود قانوناً دقيقاً للخبيثة لا يتسامح في شيء وما يعرف منه الناس إلا حكمه حين يقضي فينفذ قضاؤه بدرك الشقاء . ألا إنه ما من الخبيثة في الحياة بُدّ فأنهاردُ الأقدار علينا حين تقول « لا » ؛ وهذه الخبيثة هي العلم الذي موضوعه أن يعلم هذا الانسان المغرور أنه شيء في الحياة لا كل شيء فيها . فاذا كذبتك صديقك مما قبله وغممك بكثرة خطاه وزلله فلا تزرعه مَقْتاً وبغضاً بعد أن زرعتَه خيراً وحباً، ولا تقطعه بل انتظر فيأته (١) فإن فتنة الصدر غامضة ولقد يكون أشدُّ البغض من أشد الحب وليس لنا مع مُسفن القلوب إذا اختلفت رايحها وهبت عواصفها الآن نطوي الشراع ولا نكن الى وقت . فاذا جهدك البلاء من صاحبك وبلغ منك اليأس فما يسوغ لك أن تكون معه إلا كالذي حفر الحفرة ثم طعمها بترابها (٢) ألقى فيها ما كان فيها من قبل ومضى كأن لم يكشفها قلت آه . فاذا كانت الحفرة من شرها في عمق البئر

(١) الفأنة الرجعة كما يدور الظل ثم يرجع الى مكانه (٢) ردمها وغطاها

ذاهبةً الى الأغوار البعيدة أفأفوضى سَطَرَ العمر أُرِدَم فيها
بعد أن قضيتُ شطره أحتَفَرُ منها ؟ قال فمن ذا جعلها بُرّاً
سواك . قلت ولم لا أدعها بُرّاً خَسِيفَةً ^(١) يلغنها عمقها
الغائرُ فيها بأنها فارغة مظلمة ويلغنها ترايبها القائم عليها بأنها
متروكة مُهملة ؟ قال سبيلُ الفضيلة غيرُ هذا فكن
مع الناس في حال تُشبهه محلّ نفسك لا محلّ أنفسهم ؛ وما
أنكر أن من الناس من يُوقعون في نفسك الظنّة ^(٢)
بكَيْتَ وكَيْتَ من سوء خُلُقهم وكذا وكذا من قبح أعمالهم
حتى لتكون صداقةُ أحدهم كأنها نصفُ معركة حربية ...
ولكنّ الهزيمة عن صديقك وأنت صديق خيرٌ من
النصرة عليه وأنت عدوّ . فتحصّن من كيد هؤلاء
وأشباههم بالانزمام عنهم لا بمداغعتهم فذلك إن لم يُقعدهم
عنك لم يلحقهم بك ثم إن ردك اليهم رادٌّ بعدُ كنت الأكرم
واعلم أن أرفع منازل الصداقة منزلتان : الصبرُ على

(١) أي منخفضة عن الارض

(٢) الظنة التهمة تجدد من أخلاقهم وأعمالهم ماتتهم صداقتهم به...

الصديق حين يغلبه طبيعته فيسيء إليك ؛ ثم صبرك على هذا
الصبر حين تغالب طبيعتك لكيلا تسيء إليه
وأنت لا تصادق من الملائكة فأعرف للطبيعة
الإنسانية مكانها فلها مبنية على ما تكره كما هي مبنية على
ما تحب ؛ فان تجاوزت لها عن بعض ما لا ترضاه ضاعفت
لك ما ترضاه فوَفَّتْ زيادتها بقصها وسَلِمَ رأس مالك الذي
تُعامل الصديقَ عليه

« * »

قلت فاني لا أعنى ذلك الذي أضع « رأس » المال بيني
وبينه ولكن شخصاً آخر وضعت « قلب » المال بيني
وبينه قال فهنا إذن ؛ ومن هنا صارت الحفرة
بئراً ولكن أفنتي فاني لا أعرف هذا الذي تسميه
الحب فهل هو بين النفسين شيء غير الصداقة ؛ قلت
هو هي إلا فرقاً واحداً . قال إن كان واحداً فلقد هان فما
هو ؛ قلت الفرق بينهما أنك ترضى أن يكون الصديقُ
لنفسه أكثر مما هو لك ولكنك لا ترضى إلا أن يكون

الحبيب لك أكثر مما هو لنفسه . قال فذاك رِقٌّ لا حب .
قلت وهذا هو الذى يجعل الحفرة بئراً ، فالصداقة فى المودة
تجذب الطبع من الطبع لیتفقوا ولكنهما فى الحب تجذب الطبعين
ليكونا دائماً عند النقطة التى يتنافضان منها . وأعظم
ما يسوءك من الصديق لا يزيد على أن يردك الى نفسك
وحسبُ ، ولكن أيسر ما يغضبك من الحبيب يسلط
نفسك عليك بسوء التحكم والإعناء والآراء الفاسدة حتى
يترك دمك وكأنه تيار من الغيظ ، فاذا حبيبُ نفسك أعدى
أعدائها واذا هو قد أصبح العدو لأنه لا يزال الحبيب .
قال أما إن هذا تعقيدٌ على النفس وهو العلة فى أن
الحب المغيظ لا يسكن غيظه ولا يهدأ فوره لأنه يحل
العقدة الواحدة بطريقة تجعلها عقدتين . ولكن أو ليس
خيراً لك اذا أنت دُفعت الى المداوة فى الحب أن تستشعر
بكرم الملك الذى فى نفسك لئوم الحيوان الذى فى صاحبك
فترجع بنفسك أنت الى ملكيتها وتردّه هو الى حيوانيته
أما إنى أعرف لاهل الحب دواءً ما يمرض بعده رجل

من امرأة أساءت إليه. أيها العاشق أما صدّمتك بهيمة من
البهائم اورمحتك ^(١) او جمحت بك فأوجعتك بلا غيظ
وأساءت إليك بلا حقد وكسرتك بلا انتقام ولم يتعاضدك
من أمرها شيء في الوهم ولا في الحقيقة ؟ ألا ويحك
ألبسها جلدّها وحوافرّها ^(٢) . . . ولا تتمثلها في مخيلتك
ألا وجهاً جميلاً على جسم حيوان ؛ فانك إن تفعل ذلك وتأخذ
نفسك به نطمس عليها في محبتك طمساً ولا تجد لها في
قلبك إلا النفرة والاشمئزاز وتعجز فيها الشيطان لا يدرى
من أين يأتيك ولا كيف يتدسّس بها الى دواهيك مادام
لها عندك الجلد والحوافر . . .

ولعل الناس لم يمتادوا فيما بينهم أن يتنازوا ويتسابوا في
عبارات السقوط والتحقيق بأسماء من أسماء البهائم كالـ كلب
والخنزير والمار إلا على هذا الأصل الذى بينته لك توحى به
غريزة الكراهة والسقوط من حيث يدرون أو لا يدرون

(١) رمت الدابة رفت (٢) نحسب هذه العبارة ستجري بين المحبين
مجرى الامثال فإذا شكاك اليك محب يريد الساو ولا يطيقه باختصر فلم النفس
كله في قولك « ألبسها جلدّها وحوافرّها »

الحب ليس شيئاً غير الجمع بين أعلى الصداقة وأسفلها .
 ألا ترى أنه ما دام الحبيبان على أسباب الرضا فكلهما أو
 أحدهما يتمثل الآخر كما يتمثل ملكاً من الملائكة بل
 ويسميه الملك الحارس أو الملك الموحى أو الملك المقدس .
 فإذا صاروا إلى الخلاف واستحكم بينهما لم يُغن طلبُ
 المعاذير تتمزى بها الصداقة ولا طلبُ العثرات تشتدُّ بها
 المداوة ، وليس للمغيظ منهما شيء دون أن يعمدَ إلى تلك
 الصداقة فيجعلَ عاليها سافلها . فلم يبق حينئذ إلا أن
 يكون صوابُ الحب في هذه الحالة قائماً على عكس الحالة
 الأولى . فما كان في صورة ملكية ليثبت عليه الحب وجب
 أن ينقلب في صورة حيوانية ليزول عنه الحب

«*»

يامن أسكره الغرامُ . إن عَرَبَدَ حُبُّكَ فاحطم كَأْسَهُ
 وأرق خمرها ولا ترها إلا سماً فان أكبر البلاء على السكر
 أن يلبس الحقائق المهلكة أثوابَ زينتها ، فيزعم يده وبين
 نفسه أنه لا يشرب الخمر ويسكنه ينقع غلة أحرانه بكأس

من ماء السرور؛ ولا يتوَحَّل في السكر ولكنه يَسْتَمْطِرُ علي
خموله سحابة النشاط؛ ولا يتجرَّعُ الجنون ولكنه يُذِيبُ
همومه في جرعة من النسيان.....

ألا ما أصدقَ الخمرَ في السكر وهي صامتة،
وأَكْذَبَ السُّكْرِ عَلَى الخمر وهو يتكلم.....



الفصل التاسع

﴿ الشيخ محمد عبده ﴾

وشفَّ سحابي عن جلال رائع يضطرب القلب له
أذكرني روعة السحابة التي كان يهبط فيها ملك الوحي
ليست في نفسها آية ولكن الآية فيها

وظهر لي وجه الشيخ وما أدراك من الشئ ثم ما
أدراك من هو^(١). رجل كان في تركيب العالم الاسلامي
أشبه بالجهة من جسم المؤمن؛ هي تجلي نور الإيمان وأعلى
ما يرتفع للأعين ولكنها مع ذلك أول ما يسجد لله من
هذا الجسم كله

خلق فصيحاً مبين اللهجة لأن لسانه أعد لتفسير
معجزة الدنيا في هذه اللغة فكان لسانه ولاغرو معجزة في

(١) قال الراغب: كل موضع ذكر في القرآن (وما أدراك) فقد دق
بيانه نحو «وما أدراك ماهيه» «نار حاميه» وكل موضع ذكر فيه وما يدريك
لم يعقبه بذلك نحو «وما يدريك لعل الساعة قريب». قلنا وهذا من أدق
معاني الالجاز فإن «أدراك» صيغة الماضي والماضى مكشوف معروف لأنه
وقم ولكن يدريك صيغة المستقبل والمستقبل محجوب فتأمل وكرر النظر فإن
المقام لا يتسع هنا

الألسنة ؛ وكان له بيانٌ يُنبِئُ من طبعه المصقول كالشعاع
الذي تَوَامَضُكَ به المرأة إذا انقذحت جَمْرَةُ الفَلَكَ
عليها (١)

وكان له عقلٌ لو وُزِنَ في رُجْجَانِهِ لُغْدٌ بين العقول
من موازين التاريخ ، وقلبٌ إن يكن في جنبه كالقلوب
التي وضعت على مُنْجَدَرِ المعاني الأرضية فانه كان دون
القلوب على مَهَبِطِ السموات (٢)

رجلٌ لم يُخْلَقْ من قبل زمنه لأن الأقدار المَصْرِفَةَ
ذخرته للقرن الرابع عشر تجعله وأصحابه النهضة الثالثة في
الإسلام (٣) وكتبت له أن يكون السكَنَزُ الثمين الذي
يُفَجِّأُ العالمُ بانكشافه ليعود القديم المُبْدَعُ الذي كاد يُنسى
فيتمكن في الأرض بأسلوب جديد . وما يُدريك لعل
هذا الحكيم الفَذَّ في علمه وعمله وذكائه وإصلاحه سيكون
التمثال العقليُّ المُشْرِف على الأجيال ، يفصل في تاريخ

(١) كناية عن الشمس وتوأمض تبرق (٢) ليس همه الا المعالي ومصالح
الحق (٣) نهضة الاخلاق زمن الصحابة والتابعين ، ثم نهضة العلم من بعدهم ،
ثم نهضة النقل الاسلامي التي كان يدعو اليها الشيخ رحمه الله

الإسلام بين ثلاثة عشر قرناً مضت وثلاثة عشر قرناً
تأتي؟

ولقد كان في تفسير كتاب الله رجلاً وحده على بعد
عصره من فجر الإسلام؛ فكان يحمل في رأسه ذهناً كآلة
الأسلاكى تهبط عليه من أقاصي الدهر شرارة النبوة،
فاذا تكلم في آية رأيت كأنما تتكلم الآية نفسها على ملائ
العقل بين مشارق الأرض ومغاربها

ولست أدري على أي روح نبت هذا الرجل ولكن
الذي أعرفه أنه حين أثمر فنضج خلاً أذاق الناس من
ثمره طعم معجزة الفكر العربي

«*»

نظرت إلى عينيهِ ذات مرة مُخَيِّلَإِلَيَّ أَنْ فِيهِمَا رَهْبَةً
الأسد حين يُجَاوِي بنظرة كبريائه^(١) ليدلَّ على أنه
الأسد لا غيره، فمدَّتْ النظر إليهما فاذا رَوْعُهُ إِنْسَانٌ هُوَ
أَرْفَعُ مِنْ إِنْسَانَيْتِنَا وإذا أنا المَحْ فِيهِمَا ذَلِكَ الشَّمَاعُ الْغَرِيبُ

(٤) أي بصره وينظر نظره الشديدة

الذي ينبعث من أعين الحكماء ليصل بين السر السكامن في
المعقول والسر السكامن في العقل ، وكأنه استشعر ذلك
فتبسم فكان لظرفته جلال سماوي رحيم أشرق على نفسى
كما تشرق على روح الطفل ابتسامه أصله الانساني
كان منظوياً على حقيقة روحانية يسطع ضياؤها في عينيه
وينتشر على ما حوله فلا يشعر من يجلس إليه أنه جالس
مع الرجل ولكن مع النفس العالية التي هي فيه ^(١) ، وكان
أعظم هيبة من الملوك لأن هؤلاء يحيطون أنفسهم بالديوان
والمواكب والأسلحة وكثير من ضروب التوقير والتعظيم
أما الشيخ فكانت تراه حيث رأيته كالحراب حيث يكون
لا يقف عنده الا من وقف ليمتخشع ، وما ذكرته إلا

(١) قالت الشيخ رحمه الله في الجامع الازهر مرة من المرات واستأذن عليه
طالب من نوابغ الطائفة وأذكياهم فلما مثل بين يديه وقف كما يقف المصلي
واضماً يديه أسفل صدره رامياً بطرفه الى الارض وتكلم كلاماً جي المتضرع حتى
فرغ وانصرف . فأعظمت ذلك ولما خرجت لحقت به وكنته فيه فقال : وأنا
أنكرت من جلوسك الى جانب الشيخ تلك الجلسة ما أنكرت أنت من وقوفي
على تلك الهيئة . لو تعلم أن أحداً لا يقف أمام هذا الرجل الا كما يقف العالم
أزاء كتاب نادر مضى يفتش عنه عدة سنين فلما رآه سجد لله شكراً وأنت
تحسبه يسجد للكتاب

ذكرت قول القائل : في هذه الصورة الأدمية آدمُ
والملائكة له ساجدون

« * »

كانَ هذا الإمامُ الفذُّ في قوة من ربه كقوة الجبل
يحمل ما يحمل ولا يتلوى ، وفي سعة من طبعه كاستفاضة
البحر يغمر ما يغمر ولا يتغير ، وفي صراحة من نفسه
كاستطارة النهار يطلع كما يطلع ولا يخفى ؛ فهو رجل لكنه فكر
من أفكار السماء ، وهو جسمٌ لكنه عضلة من عضلات
الطبيعة ، وهو إنسانٌ لكنه حقيقةٌ من حقائق الـكون
يصفه الناسُ بأنه الرجل الحكيم الذي أوتي سرَّ
الحكمة لينبغ به ، ويصفه التاريخ بأنه الحياةُ المجددة التي
وهبت سرَّ العظمة لتعملَ لها ، وتصفه الحقيقة بأنه العقل
المفسِّر الذي اتصل به طَرَفُ السرِّ الأعلى ليتكلمَ عنه
وليعملَ له ولينبغَ فيه

إذا كان في بعض جوانح الأرض أمكنةٌ نادرة
مقدسة هي قلبُ الدنيا الذي أودعه الله سرَّ التَّأَلُّه في

بعض جوانح الناس قلوب نادرة هي كتلك الأمكنة .
ولقد كان العالم الإسلامي كله يتصل من قلب الشيخ
العظيم بمنزلك^(١) فيه معنى كعنى الكعبة اذ تؤلى
شطرها كل وجوه المؤمنين

«*»

وأما بعد فكأنما أفرط على القلم فيما كتبت عن
الحب فانه يخيل الى الساعة أن روح شيخنا الجليل تريد
أن تغسل هذا الكتاب كله وتدعه ورقاً أبيض^(٢) ؛
ويخيل الى كذلك أنى كنت ماضياً فيما كتبه كما تتعكس
الافعى^(٣) في مشيتها إذ يندفع نصفها ليجر النصف
الآخر ، فلا تدري إن كان آخرها معلقاً بأولها أو الأول
أو معلق بالآخر
وكذلك كنت أكتب مرة أجد الفكر يجره القلب

(١) مناسك الحج عباداته وكذلك مواضع العبادات

(٢) لما انتهيت الى هذا الموضوع من الكتابة وفرغت من صفة الشيخ
دهمتني فجاء من لجأت المرض أنستنى بأيامها كل ما كنت أريد أن أخطه في
الفصل وكسرت حدة نفسي وهياتني تهمة جديدة لكلام جديد وكان هذا من
أعجب ما اتفق (٣) تمكسها أن يتراجع بعضها على بعض في انسحابها

جراً ومرة أجد القلب ينسحب للفكر وبين ظَهْرِي ذلك ^(١)
أراني ساعةً مُمتَنِّحَ القلب وساعةً مُدَلَّهَ العقل ^(٢) كأنني لم
أحب إلا لا تحول رجلاً شأذا تراه في الحب والبنفص وفي
الصواب والخطأ وفي الفكر والحس على حَدٍّ مما يُعرَفُ
وحَدٍّ مما لا يُعرَفُ فليس كله من هذا ولا كله من ذلك ؛
وهو محب إلا أنه يُبغض ومُبغض لكنه يحب

إن زفرةً من جهنم ونفحةً من الجنة جاءتا إلى هذه
الدنيا فرأتنا من خُبث الناس بدعاً مُبدعاً ^(٣) حتى لا يخلصون
بأعمالهم إلى جنة ولا نار فلام أهل هذه وحدها ولا أهل
تلك على حَدِّه ؛ فاختلط نفس الجنة بزفير النار وامتزجا حراً
يستوقد الضلوع يبرد تُلُجُّ عليه الصدور واجتمعا نعيماً
بيئوس وراحةً بتعب وسروراً بهم ثم وقعا في القلوب معاً
فاذا هما الحب . كذلك توحى إلى روح الشيخ

أنت يا هذا إن أحبيت امرأةً فهي كما تُثير كل ما فيك

(١) أثناء ذلك تقول : هو يتكلم ويمد كمد بين ظهري ذلك ، أي في
أثناء الكلام (٢) أي ذامبها (٣) أمراً غريباً

من الكمال تُذنبه كل ما فيك من النقص ، بَيِّنْ أَنَهَا تَجْعَلُ هَذَا
النقصُ عُلُوِيًّا وَهُوَ أَفْسَدُ لَهُ كَالزُّوْبَعَةِ إِذْ تَرَفَعُ مِنَ الْأَرْضِ
خَلَقًا مَارِدًا مِنَ الْغُبَارِ مُلْتَفًّا بِالنُّورِ ذَاهِبًا إِلَى السَّمَاءِ ؛ فَيَكُونُ
ارْتِفَاعُ الْغُبَارِ شَرًّا طَائِرًا لَمْ يَكُنْ فِي الْغُبَارِ السَّاكِنَ
أَفْتَحَسَبُ أَنْ حُبَّكَ إِيَّاهَا هُوَ الْحُبُّ ؟ كَلَّا بَلْ هُوَ بَادِيءُ
الْأَمْرِ حُبُّكَ أَنْ تُعْجَبَ بِكَ نَمُ يَزِيدُ فَذَا هُوَ الْحُبُّ أَنْ تَمِيلَ
إِلَيْكَ ثُمَّ يَبْلُغُ فَذَا هُوَ حُبُّكَ أَنْ تَخْضَعَ لَكَ . هَذِهِ
ثَلَاثٌ كُلُّهُنَّ مَفْسَدَةٌ فَإِنَّ هِيَ أَدَّتْ فِي رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْ
الْإِنْسَانِ إِلَى فَضِيلَةٍ وَاحِدَةٍ أَدَّتْ إِلَى أَلْفِ رَذِيلَةٍ فِي أَلْفِ
رَجُلٍ مِنْ هَذَا الْحَيَوَانِ ^(١)

كُلُّ شَيْءٍ يُمْكِنُكَ أَنْ تَضَعَ ضَمِيرَكَ فِي أَوَّلِهِ فَتَمْضِي
فِيهِ عَلَى بَصِيرَةٍ إِلَّا هَذَا الْحُبَّ فَإِنَّ ضَمِيرَكَ لَا يَأْتِي مَوْضِعَهُ
فِيهِ إِلَّا آخِرًا ؛ فَذَا أَنْتِ أَرَدْتَ أَنْ يَحْكُمَ قَلْبُكَ عَلَى مَنْ تَحِبُّهَا
وَأَنْ تَأْخُذَ عَلَيْهَا حَكْمَ قَلْبِهَا ^(٢) فَإِنَّمَا تُرِيدُ بِنَفْسِكَ الْإِلْمَ

(١) كَانَ أَكْثَرُ زَجَرِ الشَّيْخِ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ « يَا حَيَوَانُ » فَيُوجِخُ وَلَا يَقُولُ
إِلَّا لَاحِقًا (٢) أَيْ لَا يَحْكُمُ قَلْبُهَا عَلَيْهَا إِلَّا بِمَا أَرَدَتْ أَنْتِ

لا الحب . تريد أن تستوحي الدموع وتخرج منها كلاما
يبكى . تريد أن تزدرع شجرة الجنون التي ينبت فيها زهر
الشعر . وهذا لا يسمى حبا لحبيبة ولا يؤمن الا على
كبار الحكماء كما لا يؤمن خص آلالة المملكة الا على
كبار العلماء والمخترعين

أنت يا هذا إن أحبت خاضع لقلبك ولكنك أنت
وقالبك سائران في طريق قلبها ... يقول كل محب في حبيبته:
لاهي الا هي . أفلا يدل ذلك على ضلال الحب وإفساده
ملكاة التمييز وأنه شيء من الخبل يعترى فكرة بعينها
في العقل ويخرجها الى الهوج والبله ؟ وإذا ساغ لكل
محب أن يقول في صاحبه لاهي الا هي فمعنى ذلك أن
(الهيآت) كلهن عبث وباطل وتكون الحقيقة الطبيعية
التي يُصرّح عنها هذا القياس أن كل هي مثل كل هي في
الواقع ولا انفراد لها الا في عقل مجنون لا مساك له من
المنطق ولا عبرة به في القياس . من أعجب الأمور أن
الصفات التي يعدّها الانسان لإنسانا تخضع كلها أحيانا للصفة

واحدة من تلك الصفات التي يُعد بها الانسانُ حيوانا .
فان خدعك بائع مثالا في دراهم معدودات لا تُمنص الامر
على أنه خدعك بل تعرف أنه غشك ثم لا ترى أنه غشك
بل ازدراكك ثم لا تقول إنه ازدراك بل هزأ بك ؛ وهذه حركة
النفس في اندفاعها اذا تركت تندفع وتركت المعاني الغضبية
تخوض في دمها .

ومن ثم فلا يكون البائع في رأي نفسك قد سلبك
بعض الدراهم بل شيئا من القوة التي بها حَوْلُكَ وحيلُكَ
ومن الذكاء الذي تعامل الناس عليه وسلبك بعض الشأن
الذي يجعلك رجلا ذا بصَرٍ ومعرفة ؛ وعلى قَدَرٍ ما يتحرك
من ذلك في نفسك يتحرك من الغيظ والحقْد إن كنتَ
رجلا داهيةً ذكيا وبخاصةً إذا رأيت البائع لا يبالي أن
تعرف أنه تغفلك بل يحمل من همِّه أن تعرف ذلك . فلا
تعود الدراهم أشياء كما هي في نفسها من ضعف الخطر
والقيمة بل كما هي في نفسك مما وُضع أمرها عليه ، فلا
تنحط قيمتها إلا بانحطاط قيمة النفس وتلتحق بمعاني القهر

والغلبة وما كانت الا من بعض معاني الربح والخسارة .
وعلى هذا المثل يقاس أمر الحب ونكده وجنونه فما هو على
قدر المرأة ولا بمقدار مما تعطيه ، وانما هو استخذاء المعاني
الانسانية وخضوعها للصفة حيوانية واحدة ينصرف كل
ما في هذا الانسان اليها ؛ والأمر بعد كما قال أحد الأطباء
في تعليل الجوع إذ قال : ان المعدة متى خَوَّتْ^(١) وفرغت
من طعامها الذي كان فيها بعثت أعصابها الباطنة برسائلها
المصبية الى ساقفة المخ^(٢) والى مركز الاعصاب في العمود
الفقرى تُؤذِن بأنه صار من الممكن إرسال طعام آخر
قال فترجم مراكز الأعصاب السفلى هذه الرسائل الى
جوع . وقل أنت مثل ذلك في القلب فانه متى وقعت
امراة من حاجته موقعا ظمئ اليها فأرسل رسائله المصبية
الى المخ بأنه من الواجب . . . إطفاء هذا الغليل المحرق
فترجم مراكز الأعصاب هذه الرسائل الى حب . . .
وأنت أعلى عينا^(٣) بأن هذا كله نقل للمعاني الحيوانية

(١) أي خلت والخواء (ويقصر) خلو الجوف من الطعام
(٢) الجزء الخلفي منه (٣) أي أبصر بذلك وأخبر

الى اللغة التي تحرك النفس فتلجئها الى تسخير قواها في دفع الألم ان كان حقيقة أو خيالاً . فاذا أضلعتك أمر الحب وضعت به وعجزت أن تصرف القلب عن رسائله فاشغل العقل عن ترجمتها وأحكّم معاقِد هذه الخيالات ومقاصدَها وازدِر تلك الحيوانية وأبقِ الدرهم على قيمته . . ولا تحسبن المرأة مُعْطِيَةً أَكْثَر مما فيها ولا تتوهمن أحسن ما يبدو لك منها إذا سَحَرَتْ به على عينك إلا صورةً مسحورةً من أقبح ما فيك أنت . فان قررت في نفسك هذه القواعد وأجريت عليها ما يترجم لك العقل من رسائل القلب جاءك من هذه الرسائل الحِكْمَةُ والفلسفة والكبرياء والأَنْفَةُ أو الصبر والأناة ؛ وخضت الغمرة (١) بذراعين فيهما السباحة والنجاة لا الاختبأ والغرق .

كذلك أوحى الى روح الشيخ

« * »

في منطق الحس متى وجدت الأسباب جاءت النتيجة

من تلقاء نفسها لأنها تدور مع أسبابها وجوداً وعدمًا ،
 فاحذف الأسباب تسقط النتيجة . ولكن الأمر
 عكس ذلك في منطق الحب . إحذف النتيجة تسقط
 الأسباب كلها فانك إن لا تفكر في لذة ترجوها أو
 تحرص عليها نسيتك الحب قبل أن تنساه ؛ وهل علمت
 قطُّ عجوزاً تُعشق لأنها عجوز ليس فيها إلا حُطامُ العمر
 أو عرفتَ إنساناً يُحْدُسُ عليها ظمًا من ظنون الحب أو
 يصل بها سبباً من أسباب المطمعة ؟ أما إن هذه
 الفانية منطق سقطت نتيجته فلا يمكن في الطبع أن تقوم
 أسبابها . فإذا أنت محقتَ النتيجة وخيالها لم يبق بينك وبين
 المرأة ماسّة ^(١) منك أو منها واستحالت الى منظر من
 مناظر الجمال يُفهمك أو يلهمك أو يفسر لك فلا تنزل منها
 منزلةَ الرجل بل منزلةَ الفكر ولا تكون هي منك بمقام
 المرأة بل بمنزلة المعنى .

المصائب والنساء ؛ من شقاء الشقيّ أن يبالغ فيهن ؛ فإن

ما بنالك من خوف المصيبة ليس منها ولكنك منك وما
يُذعلك من حب المرأة ليس فيها ولكنك فيك ، فأنت من
ذلك كالذى ينحت صنما من الحجر ثم يصله بمكان الرغبة
والرهبة من نفسه فاذا القدرة كلها قد استفاضت عليه واذا
الحجر الذى لا يملك ولا حشرة من حشرات الأرض قد
تملك رجلا بمقله وقلبه وحواسه وحيزه من الدنيا ، واذا
هذا الرجل يتعمد بحقيقته لخياله وبمقله لوهمه وبعلمه لجمله
وبما يصدق فيه لما يكذب عليه ، ويبقى الحجر حجراً ولا
يبقى الرجل رجلاً . وكذلك يصنع عاشق المرأة بالمرأة
وهى عند نفسه كأنما نبت جسمها على روح صنم معبود ،
يحسب فيها السماء والجنة وما فيها أكثر من امرأة ويكون
منها فى الحب والرضا كحجر الألماس يلتقى عليه الضوء لوناً
واحداً فيخرجه من قلبه ألواناً ذوات عدد فى بريقٍ
وبصيص ، وفى البنض والنفرة كالجسم المحترق تحول كله
ناراً من شرارة أو جرة أو شعلة . وهو فى كلتا الحالتين
يسرُّ ويألم بماذته كلها لتأويل طراً عليه من مادتها هي ، فهي

من تلقاء نفسها لأنها تدور مع أسبابها وجوداً وعدمًا ،
 فاحذف الأسباب تسقط النتيجة . ولكن الأمر
 عكس ذلك في منطق الحب . إحذف النتيجة تسقط
 الأسباب كلها فانك إن لا تفكر في لذة رجوها أو
 تحرص عليها نسيتك الحب قبل أن تنساه ؛ وهل علمت
 قطُّ عجوزاً تُعشق لأنها عجوز ليس فيها الأُحطامُ العمر
 أو عرفتَ إنساناً يُحْدُسُ عليها ظناً من ظنون الحب أو
 يصل بها سبباً من أسباب المطمعة ؟ أما إن هذه
 الفانية منطق سقطت نتيجته فلا يمكن في الطبع أن تقوم
 أسبابها . فإذا أنت محقت النتيجة وخیالها لم يبق بينك وبين
 المرأة ماسّة ^(١) منك أو منها واستحالت الى منظر من
 مناظر الجمال يفهمك أو يلممك أو يفسر لك فلا تنزل منها
 منزلة الرجل بل منزلة الفكر ولا تكون هي منك بمقام
 المرأة بل بمنزلة المعنى .

المصائب والنساء ؛ من شقاء الشقي أن يبالغ فيهن ؛ فإن

(١) أي صلة وشابكة

ما بنالك من خوف المصيبة ليس منها ولكنك منك وما
يُذهلك من حب المرأة ليس فيها ولكنك فيك ، فأنت من
ذلك كالذى ينحت صنما من الحجر ثم يصله بمكان الرغبة
والرهبة من نفسه فاذا القدرة كلها قد استفاضت عليه واذا
الحجر الذى لا يملك ولا حشرة من حشرات الأرض قد
تملك رجلا بعقله وقلبه وحواسه وحيزه من الدنيا ، واذا
هذا الرجل يتعمد بحقيقته خياله وبمقله لوهمه وبعلمه لجهله
وبما يصدق فيه لما يكذب عليه ، ويبقى الحجر حجراً ولا
يبقى الرجل رجلاً . وكذلك يصنع عاشق المرأة بالمرأة
وهى عند نفسه كأنما نبت جسمها على روح صنم معبود ،
يحسب فيها السماء والجنة وما فيها أكثر من امرأة ويكون
منها فى الحب والرضا كحجر الألماس يلتقى عليه الضوء لوناً
واحداً فيخرجه من قلبه ألواناً ذوات عدد فى بريق
وبصيص ، وفى البنفسج والنفرة كالجسم المحترق تحول كله
ناراً من شرارة أو جرة أو شمعة . وهو فى كلتا الحالتين
يسر ويألم بمادته كلها القليل طراً عليه من مادتها هي ، فهي

شيء واحد ولكنها بمادته تنقلب جمالا ملء عينه وفتنة ملء صدره وفكره ملء عقله وكذا وكذا مع هن وهن وهنات ^(١) . انما هذه سبيل اللذات في الانفس المريضة التي تزْدِفُ بما فيه لذتها الى ما فيه هلاكها ولا تُكسبها اللذة شعوراً الا لتسلبها شعوراً غيره ولا تهيج فيها خيالاً الا لتطمس به على حقيقة ولا تبتعث حرصاً الا لتغلب به على قصد ؛ فالخمر فيمن يُبتلى بها تسلب الشعور بفضيلة العقل لتُنْشِئ اللذات الخيالية التي هي من بواعث الجنون ؛ والمال فيمن يحرص عليه يَسْتَلْب الشعور بفضيلة الخلق ليحدث له اللذات الوهمية التي هي من بواعث السقوط ؛ والمرأة فيمن يُمتحن بها تنتزع الشعور بفضيلة التمييز لتؤْتيه اللذات الغريبة التي يكون منها الجنون والسقوط ؛ ضَرْب من هذا وضرب من ذلك . ولن تجد كل جرائر الحب الا متفرعة من هذين الأصلين فهي بجملتها داخلة

(١) أي مع كذا وكذا وأمور أخرى مما يمكن أن يكون

في باب سلب العقل بعضه أو أكثره وفي باب سلب الخلق بعضه أو كله .

وفي النفس الانسانية لا تعرض الحقيقة إلا من سوء التخيل فيها . كأن نعمة الخيال انما وهبت للانسان لتخرجه من حدود الحقائق فيفسدها ويفسد آثارها فيه فتقلب من مادة شقائه وهي مادة سعادته . فالخيال هو القوة التي يثب بها الانسان الى المجهول ، وهو نفسه القوة التي يسقط بها اذا تقاصرت الوثبة أو طاشت وقتلما جاءت إلامن هاتين ، والخيال هو العنصر الذي تمزجه بالحقائق ليحدث فيها التنويع فيخرج ثلاث حقائق من اثنتين ، وهو نفسه العنصر الذي يستخرج الضرر الكامن في هذه الحقائق متى أسرف عليها فيخرج من المنفعة الواحدة مضرّتين للحقيقة وللانسان معاً

فالمَنهُومُ الذي ينتهي بطنه ولا تنتهي نفسه ^(١) ،
والحرّيصُ الذي يفرغ عمره ولا يفرغ أمله ، والفاجر الذي

(١) يمتلئ بطنه ولا يزال يشتهي

تذهب مُروءته ولا تذهب لذته ، والمُذْنُ من الذى يسقط
عقله وخياله لا يزال يعلو ، والمقامر الذى لا ينفك^١ يطعم في
الغنى وهو فقير حتى من الفقر^(١) ؛ كل واحد من هؤلاء
مريض بمرض خيالي واحد . أما الذى هو مريض بشيء
من كل شيء فهو العاشق المريض بامرأة يهوها

وهل في شِقْوَةِ الخيال وشدة مُغَاوَّاتِهِ أعجبُ من خيال
هذا العاشق إذ يرى الجمالَ المخلوق كله لا يبلغ مبلغ القُبلة
الأولى التى لا تزال في شفتي حبيبته لم تُخلق بعد ؟

المرأة في النساء امرأة ، كالواحد في العدَد واحد ؟ يَنَدُ
أن خيال العاشق يَرَقم الى هذا الرِّقْم الفرد صفا طويلا لا يراه
أحد غيره فالواحد اسمه واحد ومعناه ملايين كثيرة

وبهذا يصبح العاشق مع المرأة الخيالية كالنَّسر مُحَطِّمَتِ مخالبه
وصدع منقاره ونسل جناحاه فاسمه نسر ومعناه دجاجة
أفّ للشعر يعلو بالأشياء كلها علو الاسرار الإلهية

(١) المراد أنه نزل من العدم والحاجة منزلة قد يكون فقر الفقراء عندها

التي فيها ، ويعلمو بالشاعر على كل الناس إذ كان فيه من رُوح
الله أكثر مما فيهم ، ثم لا يكون عقابه على هذا التما له إلا أن
يرمي بصاحبه من فوق سماواته تحت قدمي امرأة ان كان
في الشاعر رُوح رجل تائم ، أو بين سفلة الخلق وسفاسيف
الأشياء ان كان الشاعر مؤنث النفس أو ساقطها

آه آه : إن الله لا يُنعم قلباً في الدنيا على أسلوب النعيم
في الآخرة ولكنه ترك للناس أن يعذبوا أنفسهم هنا على
نحو مما هنالك ، فكلما طَفِئَتْ لهم نار أو قدوا غيرها
يَحْتَرِقُونَ فيها ليدوقوا العذاب لا ليموتوا

إن لنار الآخرة سبعة أبواب وكان كل باب منها ألقى جمره
على الأرض ، فباب ألقى الوهم وآخر قذف الخوف وثالث
رمى بالطمع والرابع بالحرص والخامس بالآلم والسادس بالبغض .
أما السابع فرمى بالشر الذي يجمع هذه الستة كلها وهو الحب
النار في الآخرة ولكن أرواحها في الناس لتسوق

أرواح الناس اليها

خطأ وصوابه

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٧	١٢	قُرَوي	قَرَوِي
٥٣	٦	والانخذال	والخذلان
٥٩	٤	في روح إما الرجل الخصب	في روح إما الرجل الخصب
		في روح الرجل إما الخصب	في روح الرجل إما الخصب
٧٦	٨	من لذتك	من لذتك
٩٢	١٠	ما يخاض اليه	مالا يخاض اليه
١١٥	٣	لا يمن	الامان
١٢٥	٣	وكان الرجل	وكان الرجل
١٤١	٦	المرأة تصير القبيحة	المرأة تصير القبيحة
		تصير المرأة القبيحة	تصير المرأة القبيحة

